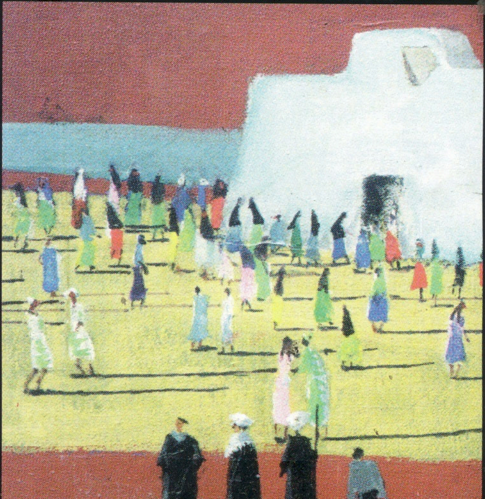
مجلة
الثقافة
الوطنية
الديمقراطية

أدب ونقد

العدد
(٢١٠)
فبراير
٢٠٠٣

ياإسكندرية.. بحرك عجايب

الشخصيات المسيحية فى السينما المصرية



بروين شاكر كل الدوائر أصغر من أقدامى

باول: الصفاقة التى سيرد عليها المستقبل

الأدب الإيرانى.. الأرض.. العدل.. الحرية

الاشتراكات لمدة عام

باسم الأهالي / مجلة [أدب ونقد]: داخل مصر ٥٠ جنيها

البلاد العـــربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا

الطباعة

شركة الأمل للطباعة والنشر

الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر

يمكن إرســـال الأعمـــال على العنـــوان البريدي أو البريد الالكتروني:

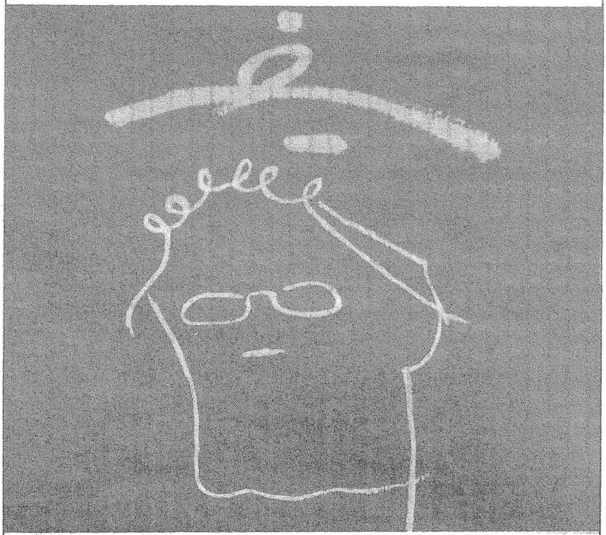
adabwanaqd@yahoo.com

موقع [أدب ونقد] على الانترنت: adabwanaqd.4t.com

ترجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن عشر صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة

[redacted]

محتويات العدد



أول الكتابة

فريدة النقاش

يحمل لكم عددنا هذا إطلالة على أدب بلدين من بلدان آسيا المسلمة هما باكستان وإيران فى محاولة منا للتعرف معا على هذا العالم الشاسع المجهول لنا القريب إلى ثقافتنا والبعيد عنا والذى يدرسه الأكاديميون فى أقسام الآداب واللغات الشرقية فى الجامعات . وتظل نتائج دراساتهم حبيسة فى الأدراج لا يعرف عنها الجمهور الواسع شيئا ،لأن المصادر الأجنبية لثقافتنا ظلت حكرا على أوروبا ثم أضيفت إليها أمريكا منذ نهاية القرن الثامن عشر مع الحملة الفرنسية وعلى امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين مع الحملات الاستعمارية الانجليزية والفرنسية والتى توجها الاستعمار الاقتصادى الأمريكى فى منتصف القرن العشرين بعد انحسار الامبراطوريتين الكبيرتين آنذاك انجلترا وفرنسا تحت ضربات حركة تحرر وطنى عارمة شملت القارات الثلاث آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية.

وحين اندلعت الثورة الإسلامية فى إيران عام ١٩٧٩ وأطاحت بالنظام الاستبدادى التابع لأمريكا بزعامة الشاه محمد رضا بهلوى برزت ملامح اهتمام عام بالأدب والثقافة الإيرانيتين، خاصة وأن زعيم الثورة كان فقيها ورجل دين هو آيه الله الخمينى» الذى طبع الثورة بطابعه رغم أنها فى العمق كانت عملا شعبيا واسعا ضد الاستبداد والاستغلال شاركت فيه الطبقة العاملة الإيرانية القوية التى خاضت مع طلائعها الاشتراكية نضالا باسلا ضد نظام الشاه، من أجل حقوقها وحقوق الشعب كله كما شارك المهمشون وهم بالملايين بعد أن زحفوا إلى المدن تحت ضغط إفقار الريف وعرفت الثورة صورا من المد الجزر فى ظل صراع سياسى وفكرى ضار أطاح فيه «الخمينى» بالمعارضة الديمقراطية بوحشية وانفرد رجال الدين بالسلطة وحدث تصالح ضمنى وغير معلن بينهم وبين كبار ومتوسطى التجار (البازار)، وفى عام ١٩٨٩ صدرت فتوى بقتل« سلمان رشدى» الكاتب البريطانى من أصل هندى.

وكان الصراع الفكرى ولا يزال إحدى العلامات المميزة للوضع الإيرانى وقد تبلور حتى فيما قبل انتخاب الرئيس «محمد خاتمى» بين الاصلاحيين من جهة الذين يرمز إليهم «خاتمى» وقد عبأوا الناخبين للتصويت له فى الانتخابات الرئاسية ، والمحافظين من جهة أخرى الذين تمترسوا فى الدوائر الدينية التقليدية ، والحوزات العلمية معتمدين على القوى الاجتماعية القديمة التى تقاتل من أجل الانفراد بالثروة والسلطة وإسباغ حماية دينية على هذا الانفراد. ولكن حيوية الشعب الإيرانى وروحه النضالية العالية كانت ولا تزال سنداً لتيار إصلاحى يتعاظم قوة ونفوذا رغم سطوة المحافظين.

والآن وفى« قم» حيث المقر الفكرى للثورة الإيرانية والتى أوصلت آيه الله الخمينى» إلى الحكم فى طهران عام ١٩٧٩ وتضم ثلاثين ألفا من علماء الدين الإيرانيين تتبلور حركة جديدة تعيد التفكير فى دور

علماء الدين ، وتطالب بانسحابهم من السياسة وفصل الدين عن السياسة ويعتقد هذا التيار أن دخول السياسة شوه صورة علماء الدين فى إيران الذين أصبحوا يخشون من أنهم إذا عارضوا سياسات الحكومة الإصلاحية سوف يخسرون الناس. وقال أحد هؤلاء العلماء إن رجال الدين عندما يكونون فى السلطة لا يتسامحون مع الأفكار الأخرى ،وفى أوساط هؤلاء انتشرت دعوات قوية لإلغاء عقوبة رجم النساء التى تناضل ضدها النساء الايرانيات والأوساط الديمقراطية كافة منذ زمن طويل.

وقال أحد علماء الدين الاصلاحيين إن العقوبة إذا أصبحت مصدرا للنفور من الدين تصبح غير مقبولة وبمساندة بعض رجال الدين الاصلاحيين قدمت مجموعة من عضوات البرلمان مشروع قرار لإلغاء عقوبة الرجم التى أساءت إلى نساء كثيرات وحطمتهن وقتلت بعضهن.

بالاضافة إلى ذلك فإن الفصل المتعسف للجنسين وإجبار المرأة على ارتداء الحجاب والتشدد فى تطبيق الشريعة أصبح مصدرا للاستياء. وأذكر أنه أثناء زيارتى لإيران فى بداية عام ٢٠٠٢ للمشاركة فى ندوة عن العلاقات العربية الإيرانية أننى انتقدت فرض الحجاب على النساء الايرانيات قائلة إن اختيار الزى هو مسألة شخصية وحق من حقوق الإنسان وإذا شاءت المرأة أن تلبس الحجاب فلابد أن يحترم الآخرون حقها تماما مثلما لوشاءت أن تكون سافرة . ووجدت مداخلتى هذه تأييداً قويا من النساء الإيرانيات والمثقفين الديمقراطيين المشاركين فى الندوة وشعرت ساعتها أن أشياء كثيرة تتغير فى المجتمع الإيرانى ، وأن هذا التغير قادم.

وقد شكل علماء الدين الإصلاحيون رابطة الباحثين والمدرسين التى تجتمع مرة أسبوعيا وجرى تسجيلها قبل ثمانية أشهر كتجمع دينى مواجه لجمعية المدرسين المحافظين.

ويسيطر المحافظون على المواقع المهمة فى الحكومة وفى المجتمع الإيرانى من الأمن الداخلى إلى القضاء بالإضافة إلى المؤسسات الاقتصادية.

ومع ضعف الاقتصاد الإيرانى وارتباط الجيل الجديد بالإنترنت وشبكات التلفزيون الفضائية فإن رجال الدين أصبحوا هدفا للإحباط الشعبى كما تقول جريدة الشرق الأوسط فى تقرير لها من طهران.

ويسيطر على المحكمة الخاصة لرجال الدين متشددون محافظون وهى المسئولة عن التعامل مع المنشقين وقد أصدرت حكما بالسجن خمس سنوات على حسين يوسف أشكوارى بسبب حديث له فى برلين قال فيه إنه لا يجب أن يفرض على المرأة تغطية رأسها . وحذر أحد الكتاب من الاستبداد باسم الدين لأنه أخطر أنواع الاستبداد على حد قوله .

أما الكاتب والأستاذ الجامعى «هاشم أغاجارى» فقد صدر ضده حكم بالإعدام بسبب محاضره ألقاها فى ذكرى مرور ربع قرن على رحيل المفكر الإسلامى المستنير على شريعتى الذى تعلم فى فرنسا وترجم كتابات فرانز فانون إلى الفارسية ونفاه شاه إيران بسبب معارضته للاستبداد ،ولكنه مات ميتة غامضة بعد أيام من وصوله إلى منفاه فى لندن عام ١٩٧٧ قبل اندلاع الثورة بعامين . وقيل حينذاك إن

جهاز «السافاك» أى مخابرات الشاه دس له السم فى طعامه وكان فى الرابعة والأربعين من عمره.

ووصف أغاجارى على شريعتى بانه «مارتن لوثر» الإسلام وأن دعوته هى بروتستانتية فى مسار الدعوة الإسلامية الشيعية مؤكدا الحاجة الماسة إلى إصلاح دينى كان شريعتى قد دعا إليه وأجرى مقارنة مع البروتستانتية التى جددت المسيحية .

وهى الدعوة آى دعوة أغاجارى-التى أثارت جدلا واسعا فى الأوساط الثقافية الإيرانية وحين صدر حكم الإعدام ضده انفجر الشارع الإيرانى وخرجت مظاهرات طلابية حاشدة ، وعبر المثقفون عن احتجاجهم بصور مختلفة، ورفض «أغاجارى» أن يستأنف الحكم تعبيرا عن الاحتجاج على الدوائر الظلامية التى تستهدف إطفاء أنوار العقل والحرية وساندته حركة إيرانية وعالمية واسعة النطاق فجرى تجميد الحكم.

كان« على شريعتى» يدعو- بخلاف المثقفين التقليديين الذين قصروا خطابهم على شعوب المسلمين- إلى الانفتاح على الفكر غير الإسلامى وإلى التجديد فى الإسلام ، وأسس على شريعتى طبقا للدكتور وليد عبد الناصر «فى حسينيه ارشاد» -والحسينية هو الاسم الذى يطلقه الايرانيون على دار الندوة الدينية ونسبة إلى الحسين بن على رضى الله عنه وهى قاعة المحاضرات التى كان يلقى فيها دروسه -أسس لجانا متخصصة فى إعادة تفسير القرآن الكريم ، وإعادة تفسير التاريخ الإسلامى ، وتأكيد تشجيع الإسلام للفنون».

وكان شريعتى يرى أن بداية تحريف المفاهيم يعود إلى حكم الأسرة الصفوية التى حكمت إيران من عام ١٠٥١ إلى ١٧٢٢ ، وتحول التشيع إلى شعائرية تحتكرها مؤسسة دينية ذات طابع بيروقراطى ويقول وليد عبد الناصر إن شريعتى فى هذا الإطار «أعاد تفسير مفاهيم» العدل و«الحج» والغيبة و«الشهادة» و«الإمامة» و«عاشوراء» بانحياز واضح للعدالة والاستنارة والاجتهاد . ورفض ما من شأنه تبرير التسلط السياسى أو الاستغلال الاقتصادى أو احتكار السلطة الدينية. كما دعا إلى تطهير التشيع مما سماه الخرافات التى تتناقض مع الحقائق العلمية الحديثة» ولابد أن نذكر هنا أن الإمام «محمد عبده» كان قد أطلق دعوة مشابهة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فى مصر لتطهير الإسلام السنى من الخرافات.

ودعا شريعتى المسلمين «إلى ترك العلوم للمتخصصين باعتبار القرآن الكريم رؤية شاملة توجه العلم والعلماء فى اتجاه معين وتشجعهم».

وكان شريعتى قد تحدث وكتب فى زمن «قاوم فيه غالبية رجال الدين فى إيران أى دور للمثقفين من خارج المؤسسة فى تناول مسائل فقهية. وقد حظر عدد من كبار رجال الدين فى قم تدريس كتابات على شريعتى فى المدارس الدينية والحوزات العلمية لأنهم اعتبروه غير ملم بشكل كامل ومتعمق بالمسائل الدينية». ٠

ويذكرنا هذا الموقف بما حدث مع الباحث المصرى فى علوم القرآن الدكتور «نصر حامد أبو زيد» حين اتهمه رجال الدين التقليديون بأنه يجتهد فى غير تخصصه وذلك حتى يتجنبوا مناقشة منهجه فى التأويل والاستخلاصات أو يناقشوا أفكاره الجديدة. التى وصل إليها ، وبدلا من ذلك حركوا الدعاوى ضده وصولا إلى الحكم بتطليقه من زوجته أستاذة الأدب الفرنسى الدكتوره «إبتهال يونس» قاطعين الطريق على منهجه العلمى الموضوعى ورؤيته الثاقبة وحارمين طلابه الذين جرى تخويفهم من التلمذ على يديه.

بل إن الدوائر الظلامية المتزمتة أفتت بقتل المفكر د. فرج فوده الذى أتقن البحث فى الإسلاميات مستهدفا إضاءة طريق العقل والنقد أمام المسلمين ، ثم أقدم أحد الشباب المهووسين على قتله فعلا.

معركة الإصلاح الدينى محتدمة إذن فى صفوف السنة والشيعة على حد سواء مما يؤكد أن هناك احتياجا موضوعيا ملحا لمثل هذا الإصلاح.

وإذا كنا نحن فى مصر والوطن العربى نعرف قليلا أو كثيرا عن اجتهادات علماء المسلمين السنة فى هذا السياق فإن أقل القليل هو ما يتوفر لنا حول اجتهادات المسلمين الشيعة ، وقد آن الأوان أن نرى صورة الإسلام ككل خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار مايجرى فى أوساط المثقفين المسلمين فى كل من أندونيسيا وماليزيا وهو ما سنفرد له مساحات من مجلتنا فى الأعداد القادمة.

وسيكون الإصلاح الدينى الذى ينبثق من احتياجاتنا وشجاعتنا الذاتية هو ردنا العقلانى على كل من التطرف والظلامية من جهة والهوس الأمريكى ضد الاسلام من جهة أخرى.

رأى على شريعتى أن المجتمعات التى تستورد الحضارة من الخارج ثم تقوم بتجميعها وتركيبها دون جذور. ودون استعداد ودون تغيير للتفكير والفكر ، وبدون إرساء هذه الحضارة على أسس وقواعد ثابتة من أعماق ترابها الثقافى والتاريخى والقومى ، لا تصير ذات حضارة وليس هذا فحسب، لكنها تفرط فى فرصة أن تكون يوما ما ذات حضارة».

فإذا ربطنا بين هذا القول ودعوته لاحترام العلم والتمكن منه باعتباره قوة سوف نصل إلى أحد جذور المأزق الراهن للحضارة العربية الاسلامية التى تعيش على الاستيراد دون الإبداع والابتكار ، وتأخذ من الحضارة قشورها «حين تقوم بتجميع وتركيب» متغافلة عن الأسس العلمية ذات التاريخ الطويل التى أنتجت هذه الأدوات أى أنها حضارة هشة تتعامل مع مفردات العلم ونتائجه التطبيقية دون فلسفته ومناهجه وتقطع الجذور مع تراث ازدهارها الذى أضاء الأنوار لأوروبا فى عصور الظلام الوسطى.

قارن «شريعتى» بين المفكر والنبى حيث يتشابه الدوران فى إيقاظ المجتمع الخامل فإذا كان« العلم قوة فالفكر نور» على حد قوله، و«وأعظم مسئوليات المفكر فى مجتمعه هى أن يجد السبب الأساسى والحقيقى لانحطاط المجتمع ، ويكتشف السبب الأساسى للركود والتأخر والمأساة بالنسبة لمواطنه وجنسه

وبيئته ، ثم يقوم بعد ذلك بتنبيه مجتمعه الغافل الغائب عن الوعى إلى السبب الأساسى لمصيره وقدره التاريخى المشؤوم ».

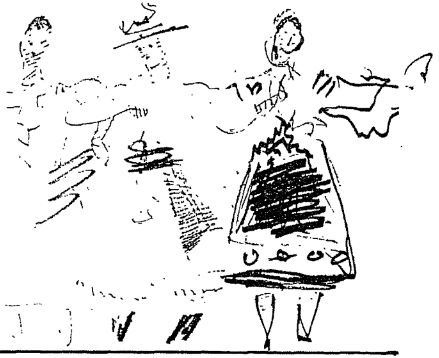
المفكر إذن هو نبى هذا العصر الذى يوقظ روح شعبه من السبات ، ويحمل مشاعل الوعى والعقل، يضئ الظلمات ويفتح الدروب المغلقة.. وشرط المحبة الجسارة » كما يقول أحمد فؤاد نجم . لقد رفض شريعتى عبادة التاريخ وعبادة الموتى ، لكنه دافع بشجاعة عن الأصالة الذاتية «لا أريد أن أوحى أننا» فى الماضى كنا على ما يرام من كافة النواحى أبدا كنا جامدين متوقفين ، ولكننا كنا أصلاء . وماذا يعنى أننا كنا أصلاء ؟ يعنى أن« نواتنا كانت هى نواتنا» كنا متوقفين لكننا كنا بشرا ، أى أننا كنا نختار نواتنا أى أننا كنا الذين نقوم بصناعة ملابسنا ونبنى منازلنا ، كانت نواتنا هى نواتنا لأننا كنا نختار ألواننا وزيناتنا والأنماط الخاصة بنا».

بوسعنا أن نرى فى هذه الكلمات وجوه تشابه مع دعوة حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى الذى تصدر عنه «أدب ونقد» للتنمية بالاعتماد على الذات . فهل نتذكر أيضا أن الصين هذا العملاق القادم ليست مدينة لأحد ، وأن القروض التى أغرقتنا فى الديون هى واحدة من أسباب تبعيتنا للرأسمالية العالمية ، وعجزنا بسبب انعدام العدالة وإرتهان الارادة السياسية للأجنبى والفساد والاستهلاك الترفى عن تعظيم الادخار فى بلادنا من أجل هذا الحلم أى تنمية بالاعتماد على الذات.

يطرح «على شريعتى» و«أغاجارى» القضايا الكبرى التى تخص تطورنا كبلدان نامية ذات حضارة قديمة عريقة .نختلف أو نتفق معهما لكنهما يملكان هذه الجسارة التى هى شرط المحبة للشعب والمستقبل ..المستقبل الذى تطلعا إليه مختلفا ويانعا لا تكبله التبعية أو الاستغلال والاستبداد. وتظلله العدالة والمساواة والحرية للشعوب وللأفراد على حد سواء سوف نتابع طرح بعض هذه القضايا فى أعدادنا القادمة لنتلافى تقصيرنا فى الانفتاح على ثقافة آسيا بما فيها من مسلمين وبوذيين وهندوس وتاويين ولادينيين.

**

سوف يكون هذا العدد بين أيديكم وقد تصاعدت هيستيريا الحرب التى تزمع الامبريالية الأمريكية شنها على العراق وقد تصاعدت أيضا الاحتجاجات العالمية التى تسعى لمنع وقوع هذه الحرب.. ونحن مدعوون إلى الانخراط فى هذا السعى الشريف للإنسانية دفاعا عن إنسانيتها ضد توحش وبربرية رأس المال فلا دم من أجل النفط ..كما هو شعار المظاهرات فى العالم أجمع . لا دم من أجل النفط .







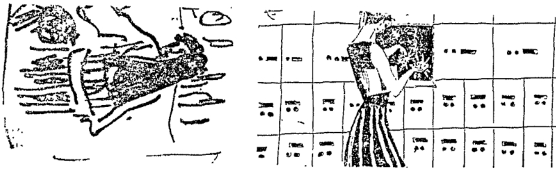


ديمقراطية مدفوعة الثمن

- أمريكا-الشرق الأوسط .. صراع أم حوار : كولين باول

- الصفاقة التى سيرد عليها المستقبل : غادة نبيل

- بيانات الخلاص والأمل .. من بونابرت إلى باول : د. على مبروك



أمريكا والشرق الأوسط: صراع أم حوار

كولين باول

ترجمة: غادة نبيل

جنبا إلى جنب الإعداد المحموم للحرب علي العراق قدم وزير الخارجية الأمريكية «كولن باول» مبادرته للشراكة الأمريكية مع الشرق الأوسط التى أعلنها أمام مؤسسة أمريكية معروفة باتجاهاتها اليمينية المعادية للشعوب .. وهذا هو نص المبادرة.

أريد أن أشكركم أيها الأصدقاء ، أصحاب السعادة السيدات والسادة ، أنتم بصفة خاصة ومؤسسة Hertiage لدعوتى هنا لقضاء لحظات مع هذا الجمهور ومع جمهور المشاهدين والاستماع إليكم ومناقشة الآمال والطموحات التى نتقاسمها مع شعوب الشرق الأوسط .كما أريد بصفة خاصة أن أرحب بالضيوف المبرزين فى الهيئة الدبلوماسية وأعضاء الكونجرس ومجتمع المنظمات غير الحكومية والقطاع الخاص.

شكراً لكم جميعا أنكم وجدتم الوقت فى جدول أعمالكم لمشاركتنا هذا المساء.

وأنه لمن المناسب أن نتقابل هنا فى مؤسسة Heritage ذلك أن رؤية هذه المؤسسة والتى هى بناء دولة تزدهر فيها الحرية والفرص والرفاهية والمجتمع المدنى» هى نفسها ذات الرؤية التى نشترك فيها مع شعوب الشرق الأوسط لمستقبل بلدانهم.

إن الشرق الأوسط منطقة هائلة ذات أهمية للشعب الأمريكي . والملايين منا يتعبدون في الكنائس والمساجد والمعابد اليهودية يمارسون شعائر الديانات الثلاث العظيمة التي ولدت في الأراضي التي تقع بين البحر المتوسط والخليج الفارسي (العربي-الأقواس من عندنا).

إن لغتنا وتقاليدنا مليئة بإشارات إلى القدس وبيت لحم ومكة ودليل هواتفنا يشتمل على أسماء مثل: موسوي وليفي وشاهين وهو ما يعبر عن جذور عائلية عميقة لنا في الشرق الأوسط.

وإنه لمن المحزن -حد المأساة -أن الألوف من أبناء ونساء بلدنا قد ماتوا في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على يد إرهابيين ولدوا وتمت تنشئتهم على العنف(الثوري) في الشرق الأوسط.

وبادراكنا لأهمية المنطقة فإننا قد كرسنا على مدى نصف قرن وأكثر دمنا وثروتنا لمساعدة شعوب وحكومات الشرق الأوسط . وبالفعل فإن عملي في الخدمة العامة وخاصة في الخدمة العسكرية قد شكلته الأحداث في تلك المنطقة . إذ حظيت بأن أكون رئيس أركان الحرب للقوات المشتركة عندما قادت الولايات المتحدة التحالف الدولي-والذي شمل عدة دول عربية- الذي طرد المحتلين العراقيين من الكويت.

واليوم -كوزير للخارجية -فإن الشرق الأوسط يحتاج الكثير من اهتمامي.

لقد ركزت سياستنا حيال الشرق الأوسط على كسب الحرب ضد «الإرهاب» ونزع سلاح العراق ووضع نهاية للصراع العربي الإسرائيلي.

والحرب ضد الارهاب ليست مقصورة على الشرق الأوسط . إن أصدقاءنا هناك لديهم مصلحة كبيرة في مثل تلك الحرب ضد الارهاب وفي كسبها لأن الكثيرين قد عانوا من بلاء «الإرهاب» مباشرة . أنا سعيد أن أصدقاءنا هم على مستوى التحدي وذلك من خلال دعم لعملية «الحرية المطلقة» في أفغانستان وتبادل المعلومات المخابراتية وتلك الخاصة بتطبيق القوانين واعتقال الارهابيين المتهمين والتعامل بطريقة أكثر صرامة مع تمويل «الإرهاب».

ويجب أن نتعامل أيضا مع الخطر الجاد والمتنامي الذي يمثله النظام العراقي بزعامة صدام حسين وذلك بالتعاون مع دول الشرق الأوسط وأصدقائنا وحلفائنا والمجتمع الدولي.

ومن خلال إصدار القرار ١٤٤١ قدم مجلس الأمن للعراق الفرصة الأخيرة للوفاء بالتزاماته تجاه السلام والمجتمع الدولي إما أن ينزع النظام العراقي سلاحه بنفسه أو أن ذلك السلاح سيتم نزعه دون الخيار لهم لكن هذا القرار لا يمكن تأجيله.

أيضا نحن لدينا مصلحة قومية عميقة في إنهاء الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني ونحن

نعمل مع أصدقائنا فى المنطقة وفى المجتمع الدولى لتحقيق سلام دائم يقوم على رؤية الرئيس بوش للدولتين اللتين تعيشان بجانب بعضهما البعض فى سلام وأمن . وهذا السلام سوف يحتاج من الفلسطينيين إلى قيادة فلسطينية جديدة ومختلفة ومؤسسات جديدة وإنهاء الإرهاب والعنف ،وكلما يحقق الفلسطينيون تقدماً فى ذلك الاتجاه سيكون على إسرائيل أيضا أن تتخذ قرارات صعبة بما فى ذلك وقف كل نشاط لبناء المستوطنات بما يتماشى مع تقرير ميتشيل.

وكما أكد الرئيس بوش فإنه بالجهد المكثف من جميع الأطراف سوف تكون ولادة فلسطين ديمقراطية ناجحة أمراً ممكناً بحلول ٢٠٠٥.

إن هدفنا النهائى هو تسوية عربية -إسرائيلية عادلة حيث يقبل كل سكان المنطقة بعضهم البعض كجيران ويعيشون فى سلام وأمن ويبنون مستقبلا أفضل للجميع.

لقد كانت هذه التحديات فى مقدمة اهتمامات سياسة أمريكا للشرق الأوسط ،والسبب قوى وأن كل واحد من هذه التحديات يؤثر بعمق على مصالحنا القومية ومصالح الناس الذين يرون فى الشرق الأوسط موطنهم . ونحن ما زلنا ملتزمين -بعمق- بمواجهة كل من هذه التحديات بحيث نتعامل معها بحماس وتصميم.

وفى نفس الوقت فقد صار من الواضح -على نحو متزايد-أنه لابد من أن توسع مدخلنا فى معالجة شئون المنطقة إذا ما كان لنا أن ننجح ،وبخاصة ، لابد أن نعطى اهتماماً حيوياً وقويا للإصلاح الاقتصادى والسياسى والتعليمى ،بأن نعمل مع الناس والحكومات لسد الفجوة بين التوقع والواقع وهو ما أسمته الملكة رانيا بفصاحة بالغة «فجوة الأمل».

إن انتشار الديمقراطية والأسواق الحرة والذى غذته عجائب الثورة التكنولوجية قد خلق دينامو يمكنه أن يولد الازدهار ورفاهية الإنسان على مستوى غير مسبوق لكن هذه الثورة (التكنولوجية) تركت معظم الشرق الأوسط متخلفاً.

شاركت دول الشرق الأوسط على مر التاريخ بإسهامات لا تقدر بثمن فى تطور الفنون والعلوم .أما اليوم فالكثير من الناس هناك يفتقرون إلى الحرية السياسية والاقتصادية وتمكين النساء والتعليم الحديث الذى يحتاجون إليه ليحققوا الازدهار فى القرن الواحد والعشرين.

وقد حدد تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٢ الذى وضعه عدد من كبار المفكرين العرب وأصدرته الأمم المتحدة خياراً جوهرياً بيت الجمود وبين ونهضة عربية يمكن أن تبنى مستقبلا مزدهراً لكل العرب». وليست هذه كلماتى إنما هى من خبراء عرب نظروا بعمق فى هذه

القضايا وهى مبنية على الحقائق الواضحة.

هناك ما يقرب من ١٤ مليون عربى بالغ لا يجدون الوظائف التى يحتاجون إليها ليضعوا الطعام على موائدهم وليجدوا سقفا على رؤوس عائلاتهم ولكى يضعوا الأمل ليس فقط فى قلوبهم بل فى قلوب أطفالهم.

وسوف يدخل قرابة ٥٠ مليون مواطن عربى سوق العمل المكتظ أصلا عبر السنوات الثمانى القادمة لكن اقتصاد الدول لم يعد يخلق وظائف كافية . النمو ضعيف والناتج القومى الاجمالى لما يقرب من ٢٦٠ مليون عربى أقل من مثيله لما يقرب من ٤٠ مليون أسبانى وما زال يتراجع وإذا ما أضفنا انتاج ٦٧ مليون شخص فى إيران نجد أن المجموع ما زال ثلثى نظيره فى إيطاليا.

وداخليا هناك الكثير من اقتصاديات الدول التى تخنقها اللوائح والمحسوبية . وتفتقر إلى الشفافية وهى مغلقة أمام الاستثمار والتجارة.

كما أن دول الشرق الأوسط هى أساسا غائبة عن الأسواق العالمية وهى توفر بالكاد ١ بالمائة من صادرات العالم غير النفطية.

إن عشر دول من الشرق الأوسط تنتمى إلى منظمة التجارة العالمية ولقد باتت حكومات المنطقة تدرك الآن مثلما حذر الرئيس المصرى حسنى مبارك «إن اعطاء أولوية للتصدير هو مسألة حياة أو موت» . ونقص الفرص الاقتصادية هو بمثابة تذكرة إلى اليأس فإذا ما تضافر مع أنظمة سياسية جامدة يكون لدينا خليط خطر فعلا. وهكذا إلى جانب اقتصاديات أكثر حرية فإن العديد من سكان الشرق الأوسط يحتاجون إلى أن يكون صوتهم السياسى أكثر قوة.

نحن نرفض التصور الاستعلائى القائل بأن الحرية لن تتطور فى الشرق الأوسط أو إنه لا توجد منطقة فى العالم لا تستطيع أن تؤيد الديمقراطية.

لقد كان الرئيس بوش يعبر عن مطامح وأشواق الناس فى كل مكان عندما أعلن فى خطابه فى وست بوينت أنه إذا ما وصل الأمر إلى حقوق واحتياجات الرجال والنساء لن يوجد صدام حضارات إن متطلبات الحرية تنطبق تماما على افريقيا وأمريكا اللاتينية وجميع العالم الإسلامى.

إن الناس لو منحوا حق الاختيار بين الاستبداد والحرية سوف يختارون الحرية وما علينا سوى أن ننظر إلى شوارع كابول المليئة بالسكان الذين يحتفلون بنهاية حكم طالبان فى العام الماضى.

هناك أشعة أمل فى الشرق الأوسط كذلك. دول مثل البحرين وقطر والمغرب بدأت إصلاحات

سياسية جريئة والمؤسسات المدنية تزداد نشاطا وفعالية فى العديد من الدول العربية وهى تعمل على قضايا حيوية مثل ضمان بطاقا هوية للنساء هن فى أشد الحاجة إليها .

كما أننا نشاهد انفجاراً فى منافذ الاعلام بدءاً من القنوات التلفزيونية الفضائية وحتى الصحف الأسبوعية الصغيرة وعلى الرغم من أن بعضها ما زال أقل من مستوى المسئولية لتقديم التغطية المسئولة والمعلومات والوقائع الفعلية إلا أنها إجمالا توفر المعلومة للمزيد من الناس أكثر من أى وقت مضى. ومع المعلومات آخر الأمر ، تأتى المعرفة ، المعرفة لتربية النشء والمعرفة بما يحدث فى مناطق أخرى من العالم.

رغم ذلك فإن الكثير من الشرق أوسطيين تحكمهم أنظمة سياسية مغلقة والكثير من الحكومات تكبح مؤسسات المجتمع المدنى تنظر إليها كتهديد أكثر مما ترحب بها كأساس لمجتمع حر وديناميكى وملئ بالأمل وما زالت لغة الكراهية والاستبعاد والتحريض على العنف هى الأكثر شيوعاً فى كل المنطقة.

وكما قال ملك المغرب لبرلمان بلاده منذ عامين «لتحقيق التنمية والديمقراطية والتحديث من الضرورى تحسين وتقوية الأحزاب السياسية والنقابات العمالية والهيئات والاعلام وتعظيم حجم المشاركة وأخيرا ،هناك الكثير من أطفال المنطقة يفتقرون إلى المعرفة اللازمة للاستفادة من عالم يتميز بالحرية الاقتصادية والسياسة. هناك عشرة ملايين طفل فى سن التعليم المدرسى لم يدخلوا المدرسة وهم إما يعملون أو فى الشوارع وذلك بدلاً من أن يكونوا فى فصولهم الدراسية.

إن ما يقرب من ٦٥مليون من آبائهم لا يستطيعون القراءة أو الكتابة ناهيك عن عدم إمكانياتهم مساعدة أبنائهم فى دروسهم أو تعليمهم القراءة والكتابة وبالكاد فإن شخصا واحدا من بين مائة شخص لديه الامكانية للحصول على كمبيوتر ومن هؤلاء (أو هذه النسبة) النصف فقط هم من يملكون القدرة على الوصول للعالم الأوسع عن طريق الإنترنت وحتى عندما يذهب الأطفال إلى المدرسة فإنهم كثيراً ما يفشلون فى الحصول على المهارات التى سوف يحتاجونها بشدة لكى ينجحوا فى عالم القرن الحادى والعشرين . إن التعليم كثيراً ما يعنى التعلم القائم على أكثر مما يعنى التفكير الابداعى النقدى الضرورى للنجاح فى ظل العولمة.

ولقد وجد الخبراء الذين وضعوا تقرير التنمية العربية أن «التعليم قد بدأ يفقد دوره البارز كوسيلة لتحقيق الترقى الاجتماعى فى الدول العربية ليتحول بدلا من ذلك إلى وسيلة لإطالة أمد التراث الاجتماعى والفقر».

إن هذه إدانة واضحة. لكنها أكثر من ذلك .إنها دعوة للتحرك.

هناك قضية مستمرة فى كل هذه التحديات وهى تهميش النساء إن أكثر من نصف نساء العالم العربى أميات.

كما أنهن يعانين أكثر من الرجال من البطالة وضعف الفرص الاقتصادية والنساء كذلك يشكلن نسبة صغيرة من أعضاء البرلمان فى الدول العربية أكثر من أية منطقة أخرى فى العالم.

وما لم تطلق دول الشرق الأوسط قدرات وامكانات نسائها فإنها لن تبنى أى مستقبل للأمل . وأى مدخل للشرق الأوسط يتجاهل تخلفه السياسى والاقتصادى والتعليمى سوف يكون مبنياً على الرمال ، ذلك أن الوقت قد حان لإرساء قاعدة متينة من الأمل إن الأمل هو موضوع حديثى اليوم.

تريد أمريكا أن تتحالف مع الناس فى الشرق الأوسط وتتحرك قدماً للأمام على أساس الأمل الأمل فى السلام والأمل فى حياة أفضل لأطفال الشرق الأوسط وأطفال العالم.

ولصالح هذا الهدف فإنى أعلن اليوم مبادرة تضع الولايات المتحدة بحزم فى صف التغيير والإصلاح ومستقبل حديث للشرق الأوسط ..فى صف الأمل.

فى مارس الماضى أثناء زيارة الرئيس مبارك إلى واشنطن طلب الرئيس بوش منى أن اتراس عملا جديداً للحكومة الأمريكية لدعم شعوب وحكومات الشرق الأوسط فى جهودهم لمواجهة هذه الاحتياجات الإنسانية الضاغطة والتى تمثل تحديا.

إنى سعيد إذ أعلن النتائج المبدئية لعملنا– مجموعة برامج مبتكرة وإطار عمل للتعاون المستقبلى الذى نسميه مبادرة الشراكة الأمريكية– الشرق أوسطية.

إن مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية هى جسر بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط ، بين حكوماتنا وشعوبنا وهى مبادرة تغطى فجوة الأمل بالطاقة والأفكار والتمويل .

إن مبادرة شراكتنا هى استمرار وتعميق لالتزامنا القائم منذ فترة بعيدة بالعمل مع كل شعوب الشرق الأوسط لتحسين حياتهم اليومية ومساعدتهم لكى يواجهوا المستقبل بأمل.

ومثلما أن قرارنا لاعادة انضمامنا لليونسكو هو رمز لالتزامنا بتعظيم حقوق الإنسان والتسامح والتعلم كذلك هذه المبادرة هى إعلان مجسد لالتزامنا نحو الكرامة الإنسانية فى الشرق الأوسط.

بداءة نحن سنخصص ٢٩ مليون دولار لنجعل هذه المبادرة تبدأ بداية قوية وبالعمل مع الكونجرس سوف نسعى للحصول على تمويل إضافى بارز للعام القادم وهذا الدعم سوف يكون

أكثر من المليار دولار أو أكثر التى نمنحها فى صورة مساعدات اقتصادية للعالم العربى كل عام.

وترتكز مبادرتنا على ثلاث دعائم إذ أننا سوف نتعامل مع جماعات القطاعات العام والخاص للقضاء على فجوة الوظائف بالاصلاح الاقتصادى واستثمار رأس المال وتطوير القطاع الخاص وسوف يشترك كل زعماء الجماعات لردم فجوة الحرية بمشروعات لتدعيم المجتمع المدنى وتوسيع المشاركة السياسية وإعلاء صوت النساء كما أننا سوف نعمل مع الآباء والمعلمين لردم فجوة المعرفة بمدارس أفضل وفرص أكبر للتعليم العالى.

أصدقانى ..إن الأمل يبدأ بشيك وهذا يتطلب اقتصاداً حيوياً .

وعبر مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية سوف نعمل مع الحكومات لإنشاء لوائح وقواعد اقتصادية من شأنها أن تجذب الاستثمار الأجنبى وتسمح للقطاع الخاص بالازدهار كما أننا سوف نساعد المشاريع الصغيرة والمتوسطة فى الوصول إلى دم وحياة ورأس المال وكخطوة أولية يسعدنى أن أعلن أننا سوف ننشئ جهات تمويل للمشروعات للشرق الأوسط على غرار نموذج تمويل المشروع البولندى الأمريكى الناجح وهذه التمويلات سوف تبدأ الاستثمار فى مشروعات جديدة واعدة.

كما أننا سوف نساعد المزيد من البلدان فى المشاركة فى غنيمة الاقتصاد المتعولم وهذا يعنى أن تقدم لأعضاء طموحين للالتحاق بمنظمة التجارة العالمية مثل السعودية والجزائر ولبنان واليمن المساعدة التقنية لتصل إلى معايير عضوية منظمة التجارة العالمية وهذا يعنى أن نبنى على اتفاقية التجارة الحرة الناجحة التى عقدناها مع الأردن بأن نبدأ اتفاقية تجارة حرة مع المغرب كما يعنى أن نعمل مع دول مثل مصر والبحرين لاستكشاف وسائل لتعظيم علاقاتنا التجارية الاقتصادية الثنائية بما فى ذلك اتفاقيات ممكنة للتجارة الحرة.

إن الاقتصاديات المفتوحة لكى تكون ناجحة تتطلب أنظمة سياسية مفتوحة.

وهكذا فإن القاعدة الثانية فى مبادرة شراكتنا سوف تدعم أولئك المواطنين فى كل منطقة ممن يطالبون بأن يكون لهم صوت سياسى مسموع ولقد بدأنا المشروع الأول الرئيسى فى هذا المجال الشهر الماضى عندما أتينا بوفد مكون من ٥٥ سيدة عربية وزعيمات سياسيات إلى الولايات المتحدة لمراقبة انتخاباتنا للتجديد النصفى للكونجرس.

لقد كان لى لقاء ممتاز بهذه المجموعة الرائعة ولكم أعجبت بطاقتهن والتزامهن ولقد طرحن أسئلة صعبة على وتناقشنا فى القضايا كما يفعل الناس فى المجتمع الحر.

لقد كانت هؤلاء النساء فخورات بارادتهن وتحدثن بفصاحة عن أمانيهن فى عالم حيث يمكن

لأطفالهن أن يكبروا ويعيشوا فى سلام وتحدثن عن آمالهن فى رؤية نهاية للصراعات التى تعيق منطقتهن. أيضا تحدثن عن توقعاتهن من أمريكا وعن كيف أنهن يرغبن فى أن يسيطرن على حياتهن واقدارهن وطلبن معرفة المزيد عن الديمقراطية الأمريكية وكيف يمكنهن أن يجعلن أصواتهن الخاصة آكبر تأثيراً.

وتتطلب المشاركة السياسية المتعاظمة كذلك تقوية المؤسسات المدنية التى تحمى حقوق الافراد وتوافر الفرص للمشاركة.

وعبر مبادرتنا سوف ندعم هذه الجهود . ولكى تكون فعالة فإن الاقتصاديات الحرة والنظم السياسية المفتوحة تحتاج إلى مواطنين متعلمين وهكذا فإن الدعامة الثالثة فى مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية سوف تركز على إصلاح التعليم.

إن برامجنا سوف تركز بصورة خاصة على تعليم الفتيات.

لقد قال شاعر مصرى ذات مرة(يقصد أحمد شوقى) «الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق.

وعندما ترتفع معدلات تعليم الفتيات فإن كل المؤشرات الأخرى المهمة للتنمية فى بلد ما سوف ترتفع هى الأخرى.

وبمبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية سوف نوفر المنح لكى تبقى الفتيات فى المدارس ولتوسيع مجال تعليم الفتيات والنساء وعلى نطاق أوسع سوف نعمل مع الآباء والمعلمين لزيادة الاشراف المحلى والعائلى على النظم المدرسية وفى كل مجال من هذه المجالات الثلاثة نحن ملتزمون بشراكة حقيقية تبادلية مع مواطنى وبلدان المنطقة ومع الكونجرس بل حتى مع متبرعين آخرين عندما نبدأ تنفيذ هذه الأجندة.

إن مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية هى إحدى أكثر المهمات الصعبة التى فكرنا فيها سواء نحن أو أصدقاءنا فى المنطقة ويجب أن نكون واقعيين تماما بينما نتحرك قدماً فيما يتعلق بالعوائق التى أمامنا وفيما يتعلق بالوقت الذى سوف تستغرقه المبادرة لنرى تغييرا حقيقياً يتجذر والدور المحدود الذى يمكن لأطراف خارجية أن تلعبه.

وعلينا أن نتفهم كيف أن مصلحة الشرق الأوسط الحقيقية يجب أن تدفع هذه المبادرة وأن التزام الشرق الأوسط فقط هو الذى سوف يحافظ عليها بمرور الوقت . لكن يجب كذلك أن نكف عن التسليم بالتوقعات القليلة وكما يظهر الغليان فى المنطقة فإن شعوب الشرق الأوسط نفسها معنية بهذه القضايا ذلك أن هذه هى القضايا التى يتكلمون عنها وهى قضايا هم على استعداد



لآن يتعاملوا معها.

ونحن لا نبدأ من الصفر كذلك لأننا أصلا نعمل مع طائفة كبيرة من الشركاء فمثلا في الشهر الماضى فقط أعلنا تأسيس مؤسسة **LEAD**حيث تشارك الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية كل من البنك الدولى والقطاع الخاص في مصر لدعم قروض المشروعات الصغيرة في مصر . وبالاضافة لهذا ، فإنه عبر شراكتنا في التعليم نحن بالفعل مشاركون مع دول المنطقة في مجالات تدريب المدرسين وتدريس اللغة الانجليزية وبرامج أخرى لتدعيم نظمها التعليمية.

حقا، إن جانبا كبيراً من عملنا سوف ينصب على إعادة تأمل برامجنا الحالية لكى نتعلم منها ونتأكد من أن مساعدتنا تلمس حيوات أكبر عدد من الناس كلما أمكن.

كما أننا كذلك لا نشجع استخدام مدخل «مقاس واحد يناسب الجميع» ! فالمنطقة أكثر تنوعا من هذا وسوف نلامس الأشياء بأيدينا ،ننصت ونعمل كى نتأكد من أن برامجنا تم تفصيلها لمواجهة احتياجات الناس حيث يعيشون حياتهم ففى كل أسفارى عبر الشرق الأوسط في الحياة العامة والخاصة شاهدت عن قرب مدى حماس وإبداع وإخلاص الآباء بينما يحاولون أن يبنوا مستقبلا أفضل لأولادهم لكننى رأيت أيضا إحباطهم عندما يكون التقدم بطيئا إلى هذا الحد المؤلم . لابد أن نتحرك بشكل أسرع وسوف نتحرك بشكل أسرع.

عبر مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية نحن نضيف الأمل إلى أجندة الولايات المتحدة- الشرق الأوسط.

ونحن نعد ونرهن طاقتنا وقدراتنا ومثلنا لنحقق الأمل لكل أبناء الله الذين يصفون الشرق الأوسط ب « الوطن» . وطنهم.



ردا على كولن باول:

الصفاقة التى سيرد عليها المستقبل

غادة نبيل

السيد كولين باول وزير خارجية السيد بوش خرج علينا بالضبط فى توقيت حشد قوات بلاده لاتمام احتلال منطقة الخليج بما يعرف ـأن أغلب الحكام العرب والأنظمة العربية لاتريد سواه أمام شعوبها المقهورة.

السيد باول يتحدث عن بناء الأمل للسنوات القادمة فى المنطقة وذلك من خلال مبادرة شراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط (يفترض أنه جغرافياً جعل ذلك مرادفاً للعالم العربى فحسب) .. والسيد باول كان يتكلم عن " الشرق أوسطيين" أى نحن وبالطبع الاسرائيليين فالعالم أولاً وأخيراً ماهو إلا قرية صغيرة ولها حاكم واحد هو الذى قام بتعيين واختيار السيد باول فى وظيفته التى خرج منها يطل على القرية التى تدمرها بلاده ويعظنا عن الأمل.

والآن لنتأمل وصفة الأمل المصنوعة فى أمريكا لعلنا نفهم من يتولون عنا عملية الإحساس بكرامتنا لأن السيد باول يتحدث عن أن مبادرة بلده هى تجسيد مادى لالتزامها تجاه الكرامة الانسانية فى الشرق الأوسط .. وقوات بلده لاتعسكر فى الخليج بل إنها لم تفكر أصلاً فى شن حرب على العراق إلا

من أجل هذه الكرامة.

أوكيه ياسيد باول سوف نقوم بـ " مط" أفقنا الضيق لنحاول أن نفهم ولن نفترض أنك تسخر وتهزأ .. سنتعامل مع ماتقوله أو سنحاول على الأقل .. بجدية وهكذا سنعطيك أكثر مما أعطيت كل قضايانا ونظرتك إلينا وإلى الإجرام الذى ترتكبه الإدارة التى تشكل أنت بمنصبك أحد أهم عناصرها .

يقول سيادته : " لقد كرسنا على مدى نصف قرن وأكثر دمنا وثرواتنا لمساعدة شعوب وحكومات الشرق الأوسط ".

منذ نصف قرن وأكثر! . هذا تاريخ نشوء دولة إسرائيل فى العصر الحديث وذلك بتسليم فلسطين من الانتداب البريطانى إلى اليهود عبر وعد بلفور ثم تبنى الولايات المتحدة لهذه الابنة الوحيدة لها ودعمها – كما هو واضح – مادامت الامبراطورية الأمريكية . وما من دم أو ثروة إلا التى يقصدها السيد باول لإسرائيل أما نحن فنعجز تماماً عن رؤية كيف أن أربع حروب خاضتها هذه الأمة حتى الآن ودفعت فيها من دمها وثروتها . كيف يمكن أن تكون قد ساعدتنا أو حصلنا فيها على الدعم والمساندة من بلاد مستر باول.

ويقول : إما أن ينزع النظام العراقى سلاحه بنفسه أو أن ذلك السلاح سيتم نزعه" ولا ضرر ولافرق إن لم يجد المفتشون الدوليون أى سلاح لكى ينزع فى العراق فالاجتياح واقع واقع والحرب قادمة قادمة – مع أنها لن تكون حرباً بل تدميراً من طرف واحد بدون أى توازن فى القوة ..

لعل رغبة التدمير الهستيرى التى تسيطر على الإدارة الأمريكية تتجاوز عن " العته " والاستبداد المطلق الكامن وراء قرار الحرب السابق على إرسال المفتشين للعراق .. ويقول باول " إنه اختيارهم (يقصد القيادة العراقية ،كأن هذه القيادة بلا شعب).. إنه اختيار العراقيين أن يضرب بلدهم أو لايضرب !! .. ياللديمقراطية !

ثم نكتشف أن هذه الإدارة تملك قراراً ورؤية حيال إنشاء دولة فلسطينية بحلول عام ٢٠٠٥ .. كلام قديم ومانعرف سوى أن أى توقيت أو ترسيم أو عظام تلقى إنما تعكس الرؤية والقرارات التى يتم اتخاذها فى تل أبيب.

فالإدارة الشارونية – الأمريكية تملك أن تقول لشرذمة من الشعوب العربية إما سلام على الطريقة الأمريكية .. أى بشروط إسرائيل المنفردة أو لاسلام ولا دولة فلسطينية يملك " شارون الذى ظل يصرخ وقت ضرب الأبراج الشهيرة فى ١١ سبتمبر " العراق وياسر عرفات " ويشير بأصبعه على أعدائه الذين يريد أن يأتى الدور عليهم – أقول يملك وحده مفاتيح السلام المبنى على الحل النهائى والأخير للمشكلة الفلسطينية (القتل – التهجير الجبرى والإحلال العرقى أو الترحيل الترانسفير – جعل الحياة للفلسطينيين مستحيلة على أرضهم .. إلخ) المهم إنه يملك الحل الأخير لتلك المشكلة مثلما كان هتلر

يملك الحل الأخير لمشكلة الوجود اليهودى فى أوروبا.

والسيد باول يتحدث – كعادة المسرحيين السياسيين الأمريكيين – عن نهاية للارهاب والعنف من منطلق مايراه أى شخص يأتى إلى رئاسة الوزراء فى تل أبيب.

يتحدث باول بخبث فى المبادرة التى من الأفضل أن يبتلع وراءها الكثير من الماء الذى نتمنى لو نصبه فى حلقه غصباً مثلما تفعل بلاده باعتماد سياسة الإكراه والدوس على الكرامة الوطنية فى أى بلد يجعله حظه العاثر مسيلاً للعاب القائمين على مصلحة الأمن القومى الإسرائيلى الأمريكى، يتحدث وهو يستعير جملاً مقتبسة من كلمات الملكة رانيا ملكة الأردن والرئيس حسنى مبارك وملك المغرب بل تبلغ الصفاقة والتلاعب – فى تدخلهم حتى فى نظم ومناهج التعليم بحجة أن النظم التعليمية فى بلاد العرب ترسخ " التحفيظ" وليس الابداع والتفكير وهى حقيقة – إنه يستشهد ببيت الشاعر أحمد شوقى الشهير " الأم مدرسة إذا أعددتها / أعددت شعباً طيب الأعراق "..

،أمريكا هى الأم.

فقط نحن العميان سيئو الفهم والنية .. ألسنا عرباً ؟

بالطبع هو صادق وهو يقول إن لغة الكراهية والاستبعاد والتحريض على العنف هى اللغة السائدة فى منطقة بلاد العرب ولا ينسى أبداً إبادات صدام المتكررة للمواطنين الأكراد فى العراق ولا الحرب الأهلية فى لبنان .. لكن ماذا عن لغة السيد بوش تجاه العالم وتجاه منطقتنا وهو المتحضر الراقى الذى لايحارب أحداً إلا من منطلق منع الحرب؟

السيد بوش الذى قسم العالم إلى عالم حر جدير بالحياة.

وعالم غير حر جدير بالإبادة وبالتدمير أو.. ليضمن فرصته الوحيدة فى البقاء .. عليه أن يرضى بمواضعات ضد كرامته وضد هويته .. عالم على " الشرق أوسطيين " فيه كما يسميهم باول ليدغم الجميع محتل وصاحب أرض فى سلة واحدة ويرتاح .. عليه أن يخضع لوجود"الارهاب الإسرائيلى الذى تحميه أكبر قوة نووية فى العالم استخدمت أسلحتها الذرية أول ما استخدمتها ضد الشعب اليابانى والآن لاتتصور أن تسمح لقوة أخرى عربية أو غير عربية بتطوير سلاح مشابه أو حتى أقل.

أين العالم الذى يعظ باول عن ضرورة تنمية اقتصاديه – الذى من المفترض وفق حكم الحاكمين – أن يكون حراً فقط ومتعولما تماماً والذى يتكلم فيه عن احتياج الشرق الأوسط إلى " صوت سياسى أكثر قوة " يبدو وكأن الفلسطينيين محرومون تماماً ومستبعدون واقعياً من أن يكون لهم أى حق أو دور فيه مالم تتم إعادة صياغة المواطن الفلسطينى الذى يتحدث باول عن ضرورة تغيير قيادته ! رغم أنه يقول فى هذه الأجندة التى ليس مسموحاً فيها للفلسطينى بأى صوت يختاره وهو وفق رؤيته هو وليس رؤية أعدائه إنه يرفض النظرة الاستعلائية التى ترى أن " الحرية " لن تنمو وتتطور فى الشرق الأوسط..

لنبتهج ! سيعطوننا الفرصة وهو على أية حال يشعر بالرأفة الكبيرة تجاه ٤١ مليون عربى ليست لديهم وظائف تضمن لهم سقفاً فوق رؤوسهم وطعاماً على مائدتهم .. والكثير من أطفال العرب إما فى البيت أو يعملون أو ببساطة هم أطفال شوارع والأمريكان سيضمنون لنا أن تختفى الظاهرة وينسى هنا أو يتناسى باول محمد الدرة والطفلة حنين ذات التاسعة التى كانت تقف فى شرفة منزلها والأطفال الثلاثة الذين استشهدوا أثناء محاولتهم التسلل إلى إحدى المستعمرات اليهودية فقتلهم الجيش الإسرائيلى ونشر الأهرام أن جثثهم تعرضت للتمثيل بالسكاكين بعد القتل .. وغيرهم من طوابير الأطفال فى فلسطين والعراق ..

يجيدون إلقاء الخطب عن السلام وهم يدفعون الحشود للحرب ويتكلمون عن شراكة قهرية مفروضة من الأقوى على الأضعف الذى هو منهك وخاضع ومتعاون وفاسد أحياناً كثيرة لكنه كذلك اختار هذا الكم من الضعف الذى جعل العراق والعرب كلهم يقفون هذا الموقف من قضية التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل مقارنة بالموقف الشامخ القوى الذى تقفه كوريا الشمالية من قضية التفتيش عن أسلحة دمارها الشامل.

وبالنيابة عنا يقول باول إن مبادرته هى جسر بين حكومات وشعوب بلده وبلادنا ! يجعل الحكومات والشعوب شيئاً واحداً لدى الفريقين رغم المظاهرات المناهضة لدخول بلاده الحرب ضد العراق والتى تقوم فى أمريكا نفسها وفى الكثير من عواصم العالم الأوروبية والعربية أى اختلال إذن يريدون لنا ابتلاعه هؤلاء؟

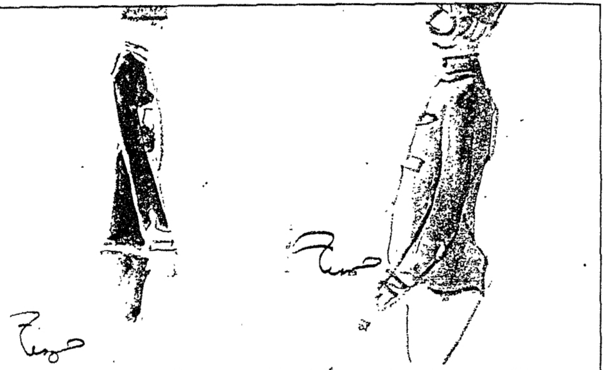
وهل اجتياح العراق يتم بارادة الشعب العراقى أو القيادة العراقية أو أكثر الشعوب العربية « ولنتغاضى عن الموقف شديد الخيانة والتذلل الذى تلتزمه بعض الأنظمة العربية فى الخليج» وهل كرامة الأمة العربية هى التى تتحقق بتنصيب جنرال عسكرى أمريكى وهى الصورة الحديثة من فكرة المندوب السامى لإحدى الإمبراطوريات العظمى أيام زمان فى بلاد المستعمرات ؟

سوف يساعدنا الأمريكيون فى المشاركة واقتسام مايسميه باول " غنيمة " الاقتصاد العالمى .. بأن نستورد المزيد من القمح الأمريكى والخبراء الأمريكيين وندخل فى عمليات ومشروعات اقتصادية تعتمد أكثر فأكثر على مايحدث في الأسواق العالمية وتزداد مديونيتنا للبنك الدولى ويأخذوا هم بترولنا وكرامتنا وأرضنا وبالتعليم (وتعليمنا يحتاج إلى تثوير وتغيير لاجدال) يأخذون عقولنا وهويتنا ...

إنها غنيمة الماكدونالدز والفرايد تشيكن .. أن يأخذوا – أخيراً – بطوننا.

يتحدث باول عن مجوعة من السيدات اللاتى استضافتهن بلاده ضمن منحة ليعرفن المزيد عن الديمقراطية الأمريكية.

لا أستطيع التعليق على هذا بكلام محترم صالح للنشر . فقط أنكر بكلام رئيسه :" من ليس معنا



فهو ضدنا" لكنه يؤكد – أقصد باول – نفياً لأى شكوك وتأويلات – أن بلاده وإدارته لاتشجع على سياسة أن مايصلح لزيد يصلح لعبيد ولو جبراً ويقول – بسلامته – لابد أن نتحرك بأسرع مايمكن وسوف نتحرك بأسرع مايمكن ".

ونحن نرى هذا .. نراه فقط ونمارس السلطة الوحيدة التى ارتضيناها لأنفسنا : سلطة البصم ثم يعود ليذكر كلمة أدين لها بالكثير من القهقهة التى كنا فعلاً نحتاجها بسبب توترات مختلفة مررنا بها أخيراً : المثالية الأمريكية.

يتحدث باول عن " مثالية " بلاده التى تحيط بنا فى مايحدث ومانراه من شواهد فى فلسطين وفى الأسلحة الجديدة التى تنوى بلاده استخدامها وتجربتها من باب التسلية على الشعب العراقى إذ جعل هو تلك المثالية هى الباب للأمل الذى ظل يتحدث عنه طوال مبادرته التى يلقى بها أمام شعوب المنطقة وعليهم أن يغتنموا الفرصة ، لعلها تكون الأخيرة لهم ، للدخول فى حيز يصفه بـ " كل أبناء الله " فى ختام مبادرته فاضحاً إدعاء التسامح المفتعل بلغة دينية مسرحية أذكر أن صحفياً يهودياً اختار أن يصف بها عمق تغلغل التراث العبرانى المسيحى فى نفسية وعقلية الرئيس الأمريكى الحالى وكيف أنه يحب إسرائيل – بحسب وصف ذلك الصحفى على الإنترنت – " حباً من الحشا ".

أبناء الله الذين كما يذكرهم باول هم كل من يقولون عن الشرق الأوسط " وطننا " .. إسرائيل قبلنا ياسادة !

ألسنا جميعاً أبناء الإله الأمريكى الجديد ؟

هيا إذن قبل أن يفوتنا موعد الصلاة !



بيانات الخلاص والأمل

من بونابرت إلى باول

د. على مبروك

وإذن فإنها البشرى ، لابد أن تعم فيافى العرب بعد أن أضيف الأمل إلى أجندة الولايات المتحدة الشرق أوسطية ، التى لم تتسع قليلا لغير إسرائيل والنفط ، ثم ها هى تتسع أخيرا ،وعبر الأمل- الذى ليس ثمة ما هو أكثر تردادا منه فى مبادرة السيد« باول» -للعرب كبشر ،وليس كنفط فقط، لكنهم يظلون ،مع ذلك ، من قبل البشر الأدنى فى الرتبة والمكانة ،وهكذا فليس لأحد أن يتصور اتساع« الأمل الأمريكى» للعرب حقاً كبشر ..بل فقط كصور تتزين بشارات واكسسوارات الأمركة.

ولعل ذلك ما يدركه المرء ، مباشرا وصريحا ، من ملاحظة الثمن المتدنى لهذا الأمل ، فإذ هو الأمل «أمريكيا » ،فإنه كان لابد أن يكون «محسوبا» ومدفوع الثمن، وأعنى أنه ليس أبدا من قبيل الأمل تصنعه بلاغة الكلمات ، أو فصاحة اللسان، بقدر ما هو الأمل مشفوعاً بالكلفة وحساب الجدوى ، ومن هنا فإنه يبدأ بشيك» على قول السيد باول الذى لم يتورع عن استخدام لغة البيزنس والرأسمالية على نحو يليق بواحد من السلالة البراجماتية المباركة ، وإذا هو الشيك

ضئيلا ومتدنياً . فإنما ليليق بالعرب الذين انحطوا إلى مواطئ الدونية ،والسقوط ،فالحق أنها« تسع وعشرون مليون دولار» فقط هى جملة ما أمكن رصده لتنفيذ هذه المبادرة ، وبمايعنى- وعلى فرض توزيع هذا المبلغ بالسوية بين العرب -أن العربى الواحد لن يتكلف أكثر من «نصف جنيه مصرى»-حسب أعلى سعر للدولار- ليصبح مواطنا على حسب المواصفات القياسية الأمريكية .. بل وحتى حاصلا على شهادة جودة وهكذا «بنصف جنيه لكل مواطن» (يا بلاش؟) سوف تنحل مشاكل العرب جميعا مع الديمقراطية والحداثة والتكنولوجيا ،ومنظمة التجارة العالمية ،وكل شئ وهاهى- بعد جهود مئات المفكرين وعشرات المشاريع الفكرية ، ابتداء من الطهطاوى والتونسى وانتهاء بالجابرى وحنفى (بل وحتى النجم الصاعد طارق حجى) -تنتهى أسئلة الحداثة والديمقراطية فى العالم العربى إلى أن تجد إجابتها عبر هذا الاستثمار لمبلغ تافه .. يالها من نهاية تليق بالعرب حقا!!.

وعلى أى الأحوال ،فإنه يبقى أن صبر العرب لم يتسرب هباء . فبعد العقود -وحتى القرون -من اليأس والقنوط ،ها هو ذا يبزغ فجر الأمل وهو يبزغ هذه المرة من قلب «الأطلنطى» بعد أن ظل العرب طويلا يتوقعونه بازغاً من قلب «المتوسط» ، مبددا ظلمات عالمهم المتخلف الذى لم يفارق بعد آفاق العصور الوسطى، حيث «لغة الكراهية والاستبعاد والتحريض على العنف هى- على قول «باول» -الأكثر شيوعاً فى كل المنطقة» .،وهنا فإنه ولولا أن المصادفات السعيدة قد جعلت السيد« باول» يلمح بعض أشعة هذا الأمل تتلألأ فى فضاء البعض من ممالك العرب السعيدة «المغرب والبحرين وقطر» ،لكانت ظلمة اليأس- ولا شئ سواها -هى ما تغطى فضاءات عالم العرب كله، ولكن ذلك لابد أن يحيل إلى ضرورة أن يتطلع بقية العرب التعساء إلى ما جرى فى هذه الممالك السعيدة الثلاث ، مستلهمين وناقلين ، لينالوا اعتراف السيد باول، ولو بأمل واحد يشع من أرجاء عوالمهم الكئيبة.

***

لاتخرج مبادرة السيد« باول» عن سياق التقليد الغربى المستقر ،فقد جرت عادة الغرب«الاستعمارى» على ابتداء كل موجة من موجات تمدده على العالم بمنشور أو بيان» يتعالى فيه بنفسه إلى ذروة البرئ المخلص ، ويتدنى فيه بغيره إلى مواطئ «المتخلف العاجز » أو حتى الفاسد ، وبالطبع فإنه «المخلص» يأتى لا يبتغى شيئا لنفسه ، بقدر ما يحمل على عاتقه عبء

الخلاص غيره ، وأما ما وراء ذلك من السعى إلى الهيمنة »،فإنه يبقى من قبيل المسكوت عنه وما لا يقال.

وهكذا فإنه وابتداء من منشور «بونابرت» إلى المصريين– الذى كان الأول ضمن سياق موجة التمدد الغربى الاستعمارية الحديثة على العالم العربى –وانتهاء بمنشور «باول» الذى لن يكون الأخير ، فإنه لا شئ يطرحه الغرب إلا تلك الثنائية المانوية عن التخلف أو السقوط ثم الخلاص ، والتى تكاد أن تلخص جوهر الرؤية المسيحية للعالم من«مدينة الله» السامية فى مقابل «مدينة الأرض» الساقطة .. ولكن ومع ضرورة الوعى بأنه فيما قد أتى«المسيح» المخلص ليحرر حقا وليس ليستعبد ،فإن الغرب إنما يتمدد للاستعباد تحت راية الخلاص.

ومن هنا إلحاح كل من« بونابرت وباول» على الابتداء من تكريس حقيقة تخلف موضوعهما وسقوطه(وهما مستعدان تماما لتوثيق ما يصدرانه وتزويده بحقائق حول هذا التخلف من أصحاب الشأن أنفسهم تأكيدا للحياد والنزاهة) فإذ يلح «باول» على أن« أى مدخل للشرق الأوسط يتجاهل تخلفه السياسى والاقتصادى والتعليمى سوف يكون مبنياً على الرمال .فالكثير من الناس هناك يفتقرون إلى الحرية السياسية والاقتصادية ، وتمكين النساء والتعليم الحديث.وهذه ليست كلماتى ، إنما هى من خبراء عرب نظروا بعمق فى هذه القضايا ،وهى مبنية على الحقائق الواضحة»، فإن «بونابرت» قد سبقه إلى الإلحاح على نفس التخلف (الراهن) لموضوعه ،حيث :كان سابقا فى الأرض المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر ،وما أزال ذلك كله (حيث التخلف الراهن) إلا الظلم والطمع من المماليك ..هذه الزمرة المجلوبة من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون الإقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد مثله فى كرة الأرض كلها» وبالطبع فإن الإنطلاق من هذا «التخلف والسقوط» (الذى اندفعا يكرسانه عبر دغدغة مشاعر السامعين بالإشارة إلى ماضيهم المشرق ، تكريسا لتخلفهم المزدوج لا بالنسبة للغرب فقط ، بل وبالنسبة لأسلافهم أيضا ، ليتسنى السيطرة عليهم تماما) لم يكن إلاالتوطئة اللازمة لتقمص دور«المخلص البرئ» راح يلعبه «نابليون» منادياً « يا أيها المصريون» ،قد قيل لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه ،وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين »، ثم راح باول يتقمص نفس الدور مؤكد على ا إنه يقدم« مبادرة تغطى فجوة الأمل» .(فى الخلاص طبعا) بالطاقة والأفكار والتمويل .وهى استمرار

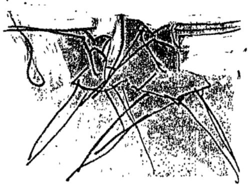
وتعميق لالتزامنا القائم منذ فترة بعيدة بالعمل مع كل شعوب الشرق الأوسط لتحسين حياتهم اليومية ومساعدتهم لكى يواجهوا المستقبل بأمل، وكذا فهى إعلان مجسد لالتزامنا نحو الكرامة الإنسانية فى الشرق الأوسط».

وإذا كانت الوقائع ، ثم الوثائق ، قد كشفت حدود براءة نابليون ، وفضحت زيفه وهو الذى لم يتورع عن أن يتخذ من الأزهر اصطبلا لخيله ، بعد أن كان قد ارتدى عمامة الشيخ وجبته ، فإن الأمر فى حالة السيد« باول» كان يمكن أن يمر بسهولة لو أنه اكتفى بمجرد الترويج لالتزامات مبادرته ، من دون أن يماثلها مع شئ من قبيل «الالتزام بتعظيم حقوق الإنسان والتسامح الذى يمثله القرار الأمريكى بإعادة الانضمام لليونسكو..«حيث تكشف هذه المماثلة عن أن التزاماته لاتجاوز أبدا حدود الادعاء ، وأعنى من حيث يرتبط قرار انسحاب الولايات المتحدة ثم عودتها إلى اليونسكو بالموقف من أمينها العام الأسبق السيد« أحمد مختار إمبو» ذلك الإفريقى الذى تعرفت الولايات المتحدة فى وجهه على ملامح واحد من سلالة عبيدها السابقين يتمرد على عبوديته ويطمح إلى جعل اليونسكو منبرا للمقهورين ، فاصطدمت به ،ولم تقبل بما هو أدنى من إبعاده فى تناقض صارخ مع ما يدعيه «باول» من أن القرار هو «رمز للالتزام بتعظيم حقوق الإنسان والتسامح» .وهكذا تتكشف مماثلة «باول» عن حدود ما يعلنه من التزامات فى مبادرته ، تلك الالتزامات تجاه عبيده الحاليين (من العرب) الذين يرتبط الالتزام نحوهم باحترامهم لشروط عبوديتهم والقائمهم عليها.

***

ورغم التماثل ، فيما يتعلق بثنائية السقوط والخلاص ، بين كل من بونابرت وباول ، فإنه كان لابد أن ينبثق بينهما ضرب من الاختلاف لا محالة ، وأعنى من حيث أن الواحد منهما كان لابد أن يستعير لغته ومفردات خطابه من قاموس عصره.

ومن هنا فإن «بونابرت» قد راح يوظف ، فى منشوره ، مفردات التنوير ويستخدم لغته من قبيل «الحرية والتسوية .. وأن جميع الناس متساوون عند الله ، وأن الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط. بل إنه وانطلاقا من المبدأ المتفائل لعصر التنوير الذى يقضى بضرورة أن يحكم العُقل العالم» ،قد راح يعين الفئة التى يتجه إليها بخطابه من بين المصريين بأنهم «العلماء والفضلاء والعقلاء الذين(راح يداعبهم بأنهم) سيدبرون الأمور، وبذلك





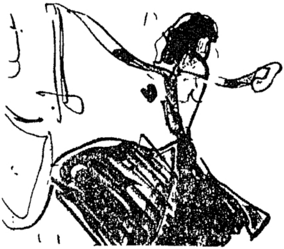
يصلح حال الأمة كلها» ، وإذن فإنهم العقلاء هم قصد الخطاب وغايته عند الروح المجسد لعصر التنوير كله ، أعنى نابليون.

وأما السيد «باول» -الذى راح ، مخلصا لمبادئ رأسماليته المنتصرة ، يستعير مفردات خطابه من قاموس البيزنس وعالم الرأسمال- فإنه قد مضى بدوره يعين الفئات التى يتجه بخطابه إليها ، فى العالم العربى ،بأنها جماعات الضغط السياسى والاقتصادى من رجال الأعمال والبيزنس التى تدوى بمطارقها على جدران سلطة مصمته.

وإذ يتجاوب ذلك مع السعي الراهن من جانب العديد من المثقفين للانخراط فى جماعات للضغط تبدو بمثابة القناع الأنيق لجماعات الضغط السياسى والاقتصادى» ،وعلى نحو يبدو معه وكأن المثقف يستحيل إلى جزءٍ من اللعبة ، فإن ذلك يدفع إلى ضرورة مقاربة «سؤال الغرب» من جديد.

فإذ لا ينازع أحد في واقع الفساد والتخلف الراهن ،فإنه يبقى السؤال عن المخرج.. آهو الغرب؟ أم إنه النقد؟.

قصة



ليلة بالألوان

عبد الستار حتيتة

كانت هناك بنت صغيرة تحب والدها ولاتفارقه أبداً .. تقرأ معه الصحف ، وتشاهد ، إلى جواره ، نشرات الأخبار . إذا جاء الليل ، نامت على دفء أنفاسه مطمئنة ، لكنها الليلة لم تنم . أغمضت عينيها .. بجانبها الأيسر غاصت فوق مرتبة السرير الطرية . أخذت تحدق إلى وجه أبيها الكبير ، بشاربه الأسود ، وخده الحليق ، وشعر رأسه المنكوش على المخدة المبللة بالعرق . وفجأة حرك يديه الكبيرتين .. وبكفيه دعك عينيه ، فخرجت منهما ألوان تليفزيونية مرتعشة.

وعندما مدد ذراعيه إلى جواره انتفض وهو يتمتم ، ثم همد كأنه مات .. لكن أصابعه الطويلة تشبثت بملاءة السرير . ولوثتها بالألوان المضيئة النابضة بالحياة.

وفي هذه اللحظة كان والدها ينام على ظهره وعيناه شاخصتان في سقف حجرة النوم المظلمة .. طبقات داكنة تضغط فوق بعضها البعض .. تطبق على صدره .. تخنق عنقه المستديرة . خيوط طويلة مشتبكة ممتدة بطول الجدران .. خيوط ملونة تهزها ذبذبات الضوء .. رؤوس ملقاة على قارعة الطريق تنزف ، وفوقها تهوى الأنقاض مرتطمة فى ضجيج أصم.

مدت البنت يدها تبحث عن جسد والدها .. غاصت أصابعها فى لحم مهروس بالشعر ..بالدم



معجون . دم أحمر ، وأزرق ، وأبيض .. هكذا الألوان تنبض مابين سقف الحجرة وحواف المخدع ، وسط الظلام المطبق والصمت المخيف . اهتزت الأرض .. اختلط الأنين بالبكاء .. والدها يحملها في حضنه مهرولاً ..

– " ماذا هناك ؟ " – صاح أحدهم .

– " زلزال ! "

يجرى هو، وهى تبكى مذعورة .. المبانى الشاهقة ، العارية من الأسمنت ، تتهاوى على جانبى الطريق الضيقة المعتمة ، فالى أين ؟ صاح أحدهم :

– " فروا إلى هناك .. هناك ! "

يجرى هو ، وهى تتشبث فى عنقه .. تصرخ .. ترى وجهها يتفجر بالدموع والدم الأحمر .. ترى نزيف رأسها . وفوقها حومت الطائرات تهز أسطح العمارات . دارت فى لمح البصر ، ودوت الانفجارات .. سحب الدخان .. ألسنة النيران تصاعدت من خلف الركام المتصدع.

من وراء كتف والدها ، يتخبط الأولاد والبنات وهم يفرون على غير هدى ، فيتساقطون وراء الغبار الأصفر. المآذن وأبواق الكنائس نقلت على الهواء مباشرة صوت قارئ نشرة الأخبار:

" أيها المواطنون ، قام العدو بغارة غادرة .. "

نهض والدها من مرقده مذعوراً قابضاً عنقه وصدره بأصابعه الطويلة . أضاء النور ، فأغمضت عينيها. سمعته يجرع الماء مستعيذاً مستغفرا . سأل إن كانت مستيقظة .. تظاهرت بأنها تغط فى نوم عميق .. أظلم الحجرة .. استلقى جوارها ثقيلاً .. هنيهة وهمد كأنه مات !

تحدق البنت الصغيرة إلى وجه والدها الكبير بشاربه الأسود ، وترفع يديها ضاربة الفراغ الثقيل الممتد بين السقف وحواف السرير .. كأنها تتقى الأنقاض والضجيج الأصم والغبار الأصفر !





الأدب فى الشرق : الأرض .. العدل .. الحرية

- محكمة العدل بين توفيق الحكيم وبهرام بيضائى : د. أبو الحسن سلام .

- كل الدوائر أصغر من أقدامى : مختارات من بروين شاكر

ترجمة وتقديم : د. إبراهيم محمد إبراهيم

- القصة النسائية فى إيران مختارات من مريم جمشيدى

ترجمة وتقديم : أسامة فتح الباب

رقية الشبراوى



محكمة العدل بين توفيق الحكيم وبهرام بيضانى

د. أبو الحسن سلام

شغل المسرح بقضية العدل ، فنسج كتابه الأحداث حولها ورسموا الشخصيات رموزا للعدل ورموزا للظلم فى مواجهات صراع درامى ما بين حاكم ومحكوم مما صبغ نصوصهم بصبغة سياسية تستهدف نقد المجتمع ونقد الحكم فى بيئة تغرق فى بحر الرشوة والجور والتعسف والإحجاف وانتهاك الأعراض.

ومن بين كتاب المسرح الذين تناولوا شخصية القاضى رمزا للحكم وعنوانا لعدله أو جوره يبرز اسم (برتولت بريشت) فى رسمه لدور (أزدك) قاضيا فى(دائرة الطباشير القوقازية) (١) ولا يحكم وفق قانون سائد فى الدولة ، ولا وفق العرف الاجتماعى فى البلاد ، ولا وفق الوقائع والشهود ، ولكنه يحكم وفقط لمعتقده السياسى حيث الأرض لمن يفلحها لا لمن ورثها والابن لم رباه وليس لمن ولده!!.

ولعل غرابة أحكام قاضى بريشت قد أغرت كتابا ترسموا خلل العلاقة بين الحاكم والمحكوم بتشخيص صورة القاضى فجاء تشخيصهم لها مقاربا لصورة أزدك فى(دائرة الطباشير القوقازية) فقد وجدنا عند قاضى (بهرام بيضانى) الإيرانى فى مسرحيته (محكمة العدل فى بلخ)

(٢).

ظلا لقاضى بريشت ،كما وجدنا ذلك أيضا عند قاضى (توفيق الحكيم) فى(مجلس العدل) (٣).

وهكذا خرجت صورة القاضى عند بهرام وعند الحكيم من عباءة (أزدك) قاضى بريشت فى دائرته الطباشيرية غير أن المشكلة تتبدى فى معرفة أى من الاقتباسين كان الأسبق من الآخر.

خاصة إذا وجدنا بعض المواقف المتشابهة فى أحكام القاضى فى(مجلس العدل) مع أحكام القاضى فى (محكمة العدل فى بلخ) وهو تشابه يكاد يكون متطابقا ، ففى مسرحية (بهرام بيضانى) يلجأ القاضى المنحرف إلى كشف فساد دعوى الاتهام المقامة من رجل ضد آخر رغب القاضى لمصلحة له عند المتهم أن ينقذه لعلمه بكذب المدعى فقضى بحكم مستحيل التنفيذ:

«جعفر» : أنا جزار يا سيدى .. منذ أيام ، وبينما كانت زوجتى عائدة من الحمام ، وهى فى شهرها الأخير ، دفعها هذا الرجل الخليع .. وقعت زوجتى على الأرض فأجهضت.

سلمان: (يقفز من مكانه) كله كذب وبهتان .

جعفر: (باكيا) سيدى.. تعبت أربع سنوات حتى جاءنا هذا الطفل.

القاضى: معك الحق.. يجب تعويض هذا .

جعفر: (مسرورا) روحى فداك.. لك الشكر.

القاضى : الجنين الذى تقول إنه أجهض كان صبيا أو بنتا؟.

جعفر: صبيا .

القاضى : حسنا .تأخذ هذا الفتى إلى بيتك ، وتحسن ضيافته .وبعد أن تشفى زوجتك تدفعها إلى الفتى ليعد لك صبيا.

جعفر : ماذا تفضلت؟.

القاضى: إن أنجبت صبيا فهو المطلوب... وإن كان المولود بنتاً فعلى زوجتك أن تحمل ثانية.

جعفر: (بغضب) لم أفهم ما قلت .

القاضى : فإذا كان الثانى صبيا فقد بلغت المقصود، وإن كان بنتا فقد بلغت المقصود أيضا ، فحسب الشرع الأنثيان تعادلان ذكراً.

جعفر: لقد ثارت ثائرتى .. ما هذا الكلام؟.

القاضى: هذا لصالحك!.

(يضحك الحضور.. يخرج كبير العسس مغتاظا).

جعفر: سأفتح فاهى الآن وأقول ما يجرى على لسانى .لقد تراجعت عن حقى .

القاضى : ولكن الشاب لن يتراجع عن حقه.

جعفر: دعونى أذهب ..أنا أصلا لا زوج لى ولا دار ولا طفل.

القاضى: فقد كان ما قلت كذبا .خمسون دينارا غرامة الكذب.(٣)

هذا الموقف نفسه صوره توفيق الحكيم فى مثول (الصرماتى) وزوجه التى أسقط الفران حملها ومثولهما شاكيين أمام القاضى فى مجلسه غير العادل حيث قضى بما قضى به قاضى (محكمة العدل فى بلخ).

الزوج: يا سيدى القاضى . أنا وزوجتى هذه كنا نسير أمام الفرن .

القاضى: انتما أيضا .

الزوج: وزوجتى حامل

القاضى : وما دخل الحمل فى الفرن .

الزوج: لا دخل

: استمر

وجدنا المشاجرة على أشدها بين هذا الفران وبين صاحب الأوزة

قلنا لكم اتركوا الأوزة

لم أتدخل فى العراك نظراً لوجود حريمى معى وهى حامل فى شهرين حمل كنت أنتظره بفروغ صبر يا سيدى القاضى لأنى لم أرزق بعد . وهذه أول خلفة.

: ما دمت لم تشترك فى العراك وتنتظر الخلفة فلماذا أشرفت لتبلغنا الخبر السعيد ونهنئك بالمولود .

: لا يا سيدى القاضى مع الأسف الشديد ، فرحة ما تمت ، لن يكون هناك مولود .

القاضى: سبحان الله ، السبب

: السبب هذا الفران

: ماله أيضا فى هذا؟

: كان يتشاجر فى الطريق ، يلطم هذا بيده ، ويركل ذاك بقدمه .فقلت له حاسب ياعم .معنا حريم .فما كان منه إلا أن ضرب بقدمه بطن زوجتى فأسقط حملها.

***

لأهمية هذا النص وعلاقته من جانب بالنص الإيرانى الذى أتناوله هنا، وعلاقته من جانب آخر بما يحدث الآن من انتهاك لحرمان الدول والشعوب تحت غطاء قانونى من مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة (وهذا ما ذكره توفيق الحكيم فى توطئة لمسرحية : مجلس العدل) .لهذه

الأهمية أرى نشر هذه المسرحية- وهى قصيرة- فى نهاية قراءتى هذى).

وتظهر المقاربة الثقافية بين (محكمة العدل فى بلخ) و(دائرة الطباشير القوقازية) حيث تستلهم المسرحيتان أسطورة الملك سليمان الحكيم الذى قضى بوضع طفل تدعى امرأتان أنه ابن لها، بوضعه فى دائرة طباشيرية وأن يشقه بسيفه نصفين طولين تحصل كل امرأة منهما على النصف الذى يواجهها .غير أن الأم الحقيقية تصرخ متنازلة عن حقها فى أمومة الطفل ليحكم سليمان الحكيم لها بالطفل.

أما استلهام (دائرة الطباشير القوقازية) فقد استهدف تجسيد فكرة الاشتراكية العليا التى تقول (إن الأرض لمن يزرعها وليس لمن يرثها والمصنع للعمال وليس لصاحب رأس المال والولد لمن يربيه وليس لمن يلده).

وإذا كان استلهام بريشت للحكاية الشعبية من منظور حداثى يرفض المسكوكات الفكرية وثقافة الإذعان ، الأمر الذى يجعله يفرغ الحكاية الشعبية أو الأسطورة أو الحادثة التاريخية من مضمونها التراثى أو التاريخى المرسخ للفكر الإذعانى ليشحذ المضمون بحيثيات يعيد فيها المتلقى الدلالات معروضة على وعيه لا على حسه ، بما لا ينفى عن العرض المسرحى قدرته على الإمتاع مدخلا لدوره فى الاقناع مدعوما بمبدأ السببية.

وفى ظنى أن كل استلهام من التراث، وإن انطلق من منابع تراثية إلا أنه لابد وأن يستهدف خدمة حاضر مجتمع الكاتب أو المبدع سواء توقف عند ذلك الحد أو تجاوزه إلى استشفاف مستقبل مأمول يتعدى حدود مجتمعه ليرقى إلى مصاف إنسانى أكثر عمقا وثراء.

والحكيم حيث اقتبس شخصية القاضى المنحرف إسقاطا على فكرة الحاكم الفاسد ، إنما أراد بها نقد فكرة التحالف بوصفها فكرة تلفيقية ، كما أراد بها نقد فكرة التأميم بوصفها فكرة أريد بها سرقة الآخر ، لأنها لم تكن تأميماً لمصلحة الجماهير وإنما هى تأميم يستولى فيه الحاكم (القاضى) بوساطة مؤتمن من قبل صاحب رأس المال (الاوزة) على ماله ، فى الوقت الذى كان مطلوبا منه إنضاجها لا اختلاسها وتقديمه طعاماً سائغا للحاكم/ القاضى . فالفران يختلس الاوزة بعد إنضاجه لها ويقدمها إلى القاضى وعندما يطالب صاحبها بها ، يهرع المؤتمن(الفران) إلى الحاكم(القاضى) مذعورا فما كان من القاضى إلا أن يطمئنه ويرشده إلى الرد المناسب على صاحب الاوزة(قل له طارت (ودعه يحضر إلى) وعندما يقف صاحب الاوزة فى حضرة القاضى ويستمع إلى دهشته مما أدعاه الفران حول(طيران الاوزة بعد نضوجها فى الفرن) يباغته القاضى بسؤال يشككه فى عقيدته الدينية(هل تؤمن بأن الله يحيى العظام وهى رميم) فما يستطيع صاحب الاوزة إلا أن يجيب (بلى أومن) وهنا يمسك القاضى(الحاكم بأمره) بتلابيبه :

(فلماذا لاتصدق ما قاله لك الفران) ولكن صاحب الأوزة الذى يؤمن بالله تصيبه الدهشة ولا يبدو عليه التصديق بطيران الاوزة المذبوحة المطبوخة!

-المدعى عليها- غير أن القاضى قد لف حول عنقه حبل العقيدة وأحكمه فما يستطيع أن يتململ من الإقرار بصدق الاستشهاد القرآنى ، ولا يستطيع الإقتناع بملاءمة توظيفه أو الرجوع إليه فى ذلك الموقف ، لكن الغريب أن القاضى لا يمهله لحظة واحدة للتفكير أو التدبر ، إذ يعاجله بالحكم بتغريمه بغرامة مالية رمزية.

ولكن الأمر لا ينتهى عند ذلك الحد ، وإنما يعقد الحكيم الحدث ويفرعه مع أن مسرحيته تقع فى فصل واحد، فيخرج بذلك عن تقاليد البناء الدرامى للمسرحية ذات الفصل الواحد ، حيث تلتزم فى غير مسرحيته تلك بحدث درامى واحد لا تفريع فيه ، إذ يترتب على مطاردة صاحب الأوزة للفران فى سبيل استرداد ماله (أوزته المحمرة) إرتكاب الفران فى فراره عبر الأزقة والحوارى عددا من الجرائم ، إذ يصطدم بزوجة مرقع الأحذية (الصرماتى) فيسقط حملها ، ويقفز من أعلى مئذنة المسجد فيدق عنق رجل جالس بأسفل الحائط الخارجى للمسجد ويصيب حمار أحد الفلاحين المارين بالأذى ،. وهؤلاء جميعهم يقفون أمام القاضى مدعين على الفران بالحق ، طلبا للاقتصاص واقتضاء للعدل ، غير أن القاضى يرد الاتهامات إلى أعناق المدعين ويلزم كلا منهم بالغرامة المالية الرمزية التى يحكم بها على كل واحد منهم ، بما يهدم أركان العدالة فى الدولة ويثبت فساد الحكم فيها وخلل العلاقة بين أركان التحالف . وفى ذلك إسقاط على فكرة تحالف قوى الشعب التى سادت فكر دولة(رأسمالية الدولة) فى الستينيات وشعاراتها التلفيقية حيث جمعت تحت شعار التحالف نماذج طبقية :(الرأسمالية «الوطنية»» -المثقفين -العمال -الفلاحين) .

وفى مسرحية (مجلس الدولة) تلك يجتمع فى إطارها الدرامى : صاحب رأس مال هو صاحب الأوزة التى تم تأميمها لصالح الحاكم الفرد وعامل هو الصرماتى -مع أنه من حثالة الطبقة العاملة- وفلاح، ومؤذن المسجد وهو رمز للمثقف وفوق هذه النماذج المؤطرة تأطير تحالف تلفيقى فى الحدث -اسقاط على الواقع السياسى للنظام فى ستينيات الحكم فى مصر -حاكم ومتصرف فى رأس المال المؤمم والتلفيق يخترم فكرة أى تحالف ، إذا لم يبن على كيانات لكل منها استقلالها وبرنامجها وهويتها الطبقية، لذلك فإن التحالف فى الواقع السياسى الستينى فى مصر كان تلفيقيا لأنه لم يكن بين أحزاب لكل منها استقلاله وهويته الطبقية وبرنامجه وحواراته النقدية مع الأحزاب الأخرى المشاركة أو التى هى بصدد التحالف وصولا إلى برنامج مؤقت لتحقيق هدف قومى محدد وذلك لو كان قد تم لأصبح ذلك التحالف حقيقيا .

ولقد تأسس الإطار الدرامى للحدث فى مسرحية (مجلس العدل) على التلفيق الدرامى لا على التوفيق الدرامى . ولا أرى فى ذلك خللا فى البناء الدرامى للمسرحية لأن خلل العدالة وخلل النظام وخلخلة أركانه تتضافر شكلا لتوكيد مصداقية التعبير عن المعنى الكلى للمسرحية . ولعل أوفر مثال على خلل البناء الدرامى فى مسرحية (مجلس العدل) هو مناقشة القاضى لصاحب الأوزة -المدعى بالحق المدنى -فى حيثيات إتهامه للفران بعد أن أصدر القاضى نفسه وفى نفس الجلسة حكمه بتغريم صاحب الأوزة ، وليس فى الواقع الحياتى المعيش ما يطابق ذلك، لأن مناقشة أركان الادعاء وردها سابق فى مجلس القضاء على إصدار الحكم وليس العكس . ولكن فساد القضاء لا يتأكد بالحكم الفاسد فحسب ولكن فى آليات الوصول إليه، كما أن وضع الحكيم الحكم أمام حوارية الاتهام والدفاع شبيه بوضع العربة أمام الحصان وذلك خطأ ما بعده خطأ ، وذلك ما يثبت فساد القاضى لأنه يصدر الحكم ثم يناقش الادعاء ويرد هو نيابة عن المدعى عليه (الفران) مؤمم رأس مال الغير .

غير أن نص« توفيق الحكيم» أكثر إحكاما من نص« بهرام بيضانى» ليس كونه من فصل واحد ، فى حين تنقسم مسرحية بهرام إلى قسمين يعنونها المؤلف بالمشهدين الأول والثانى غير أن كل مشهد من المشهدين حسبما نص الكاتب يقع فيما يزيد على مائة صفحة وذلك مناقض للمتعارف عليه فى أصول تقسيم الفصول والمناظر والمشاهد المسرحية فى النص .

ومع أن نص الحكيم أكثر إحكاما من نص بيضانى ، إلا أن النظرة النقدية الأولية لبنائه الدرامى تحكم بخلل فى البناء قياسا على الحقيقة الحياتية ففى الحقائق الخارجية نجد أن القاضى على أى مستوى لا يصدر حكما قضائيا على طرف من أطراف قضية ما عرضت عليه ، إلا بعد أن يقتلها فحصا وتمحيصا للشواهد والأدلة الثبوتية والقرائن ومقارنتها ببعضها بعضا ومناقشة الادعاء والإنصات للدفاع واستخلاص الحقائق ثم الحكم بعد هذه الرحلة الشاقة. غير أن قاضى الحكيم يحكم أولا قبل أن يقضى وهنا تكون الحقائق الداخلية لنص الحكيم غير مساوية للحقائق الداخلية فيه ، وبذلك يجوز لنا أن نقول نص مجلس العدل لا معادل موضوعى فيه.

غير أن الجملة الأولى من حوار المسرحية تردنا عن هذه الرأى، إذ يلقى القاضى الفران المذعور فيبادره بالقول :«مالك يا صديقى الفران؟) ولأن هذا التعبير لا يطابق واقع العلاقة السوية بين قاض وفران فلذلك دلالة على خلل فى العلاقة فالقاضى لا يخاطب الفران فى واقعنا الحياتى بالصديق ، ولكنه فى نص الحكيم يعلن عن صداقته له. وبناء الحدث على النحو الذى أشرنا إليه بما يكشف عن غياب المعادل الموضوعى هو توكيد لخلل العلاقة بين قاض وفران (وفق الحقيقة الخارجية) غير أن الخلل فى البناء الدرامى هنا مقصودة وفيه وضع تلك العلاقة فى مركز اهتمام

المتفرج بقصد إدهاشه بغرابة تلك العلاقة كما أنها نظرة نقدية لفساد القضاء ونظام الحكم لذلك يحكم قاضى الحكيم على صاحب الأوزة وبعد ذلك يناقشه وهذا خلل كخلل صداقته للفران أما البناء الدرامى لنص: (محكمة العدل فى بلخ) فيقوم على تداخل الزمان وأسلوب القطع التلفزيونى وفق لقطات متلاحمة تسقط منطق الزمان فيما هو أقرب إلى(الكولاج الدرامى) كذلك يلجأ إلى تقنية (التمثيل داخل التمثيل).

محرر العرائض»: طبعا .. قل لنا :

خدابخش: حسنا! .فلنفترض أنى أنا القاضى فى التمثيلية.

بائع الملابس: (لمحرر العرائض) قدم له كرسيك .

خدابخش: ونأخذ تيمور وأحمدك على أنهما الشاهدان لذلك.

تيمور: ماذا تقصد؟.

محرر العرائض: يريد محاكاة التمثيلية.

تيمور : لأنى وأحمدك شهدنا بالأمس أيضا.

خدابخش : هذه لا علاقة لها بالأمس ..إنها محاكاة كما قلت.

بائع الملابس: نعم.. إنها لعبة مسلية.

تيمور: ولماذا نحن؟ ..فليتقدم غيرنا».

إن صاحب المحكمة خدابخش الذى لم يعد يرضى بظلم القاضى وحاشية السلطة من قائد الشرطة ومعاونيه وفحش أفعالهم ومؤتمراتهم يدير تمثيلية يقلد فيها دور القاضى ويقنع بعض أعوان الفساد الملتفين حول القاضى الفاسد الذى كان حاجبا من قبل لقاض عادل أقصى ونفى ليحل محله الذى تآمر وشهد ضده زورا ، واستخدم عددا من شهود الزور فى كل قضية تعرض عليه ليعود منها بالكسب أو بمحاباة الحاكم أو رئيس المخفر أو الوالى ، لذلك ويصطنع خدابخش الحاجب تمثيلية يستخدم فيها شهود زور فى قضية عرضت بالأمس على القاضى الفاسد يعرض فيها هو نفسه بتاجر شريف وبأخته الجميلة التى رفضت الزواج من رئيس المخفر أولا ومن القاضى ثانيا: فطعن فى شرفها وحرض زبانية الزور المحيطين به وبرئيس المخفر عليها وعلى أخيها بعد أن أحرقوا له منزله وأجبروه على التخفى والهروب . والحاجب خدابخش الذى أخفى فى منزلة الفتاة حماية لها يدبر التمثلية ويوزع أدوار شهود الزور على الأشخاص الحقيقيين الذين استخدموا فى شهادات زور سابقة وذلك للإيقاع بهم أمام الناس فى ميدان عام والغريب أن شهود الزور يقدمون على تلك التمثيلية لأنهم يعرفون أو ما زالوا يرون فى خدابخش الشخص الساذج السلبى.



إن مسرحية بهرام بيضاني (محكمة العدل فى بلخ) إذا قراتها أو شاهدتها .إن قدر لها أن تعرض سترى مصر وصورة الفساد بكل تفاصيلها الحادثة الآن . الرشوة ، الجور ، السرقة ، الاختلاس ، الخنا ، المؤامرات ، الجرائم ، ولكن فى قالب ملهاوى مأساوى يرد ذاكرتك إلى بيت المتنبى:

(وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا) .

ولو كان ما صوره بهرام فى مسرحيته

تشخيص للواقع الايرانى فليس أمامنا

إلا أن نردد قول حافظ إبراهيم.

«... كلنا فى الهم شرق».

---

(١) برتولت بريشت، دائرة الطباشير القوقازية ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، سلسلة من روائع المسرح العالمى ع(٣٠) القاهرة ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

(٢)بهرام بيضانى ، محكمة العدل فى بلخ، ترجمة د. محمد التونجى ، سلسلة إبداعات عالمية ع٣٣٠ ، الكويت المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، يوليو ٢٠٠١.

(٣)توفيق الحكيم، مجلس العدل ، القاهرة ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز.

* كتبها فى الخمسينيات .

** كتبها فى السبعينيات .

(*) بهرام بيضانى ، محكمة العدل فى بلخ ، المصدر نفسه ، ص ١٠٧-١٠٨.

*بغض النظر عن أسلوب التقية الذى حاول به حماية نفسه من الرقابة الرسمية إذ زعم فى مقدمة نظرية لنصه أنه قصد به مجلس الأمن وما يدور فيه من أعوجاج ينصر من خلاله الدول الكبرى المتسلطة على الدول الصغرى.





الديوان الصغير



كل الدوائر أصغر من أقدامى

(مختارات من الشاعرة الباكستانية : بروين شاكر)

إعداد وتقديم: د. إبراهيم محمد ابراهيم

بروين شاكر واحدة من أهم شاعرات اللغة الأردية فى القرن العشرين.فى باكستان والهند على السواء ، ولدت بمدينة كراتشى الباكستانية فى ٢٤ نوفمبر ١٩٥٢ م ،وتدرجت فى مراحل التعليم المختلفة حتى حصلت على الماجستير فى اللغة الانجليزية من جامعة كراتشى عام ١٩٨٠ م ،وأوشكت على دراسة الدكتوراة ، لكن القدر لم يمهلها ، فتوفيت فى حادث سيارة أليم فى ٢٦ ديسمبر عام ١٩٩٤ . وقد تولت بروين شاكر مناصب عديدة تدرجت فيها إلى أن وصلت إلى منصب نائب مدير مصلحة الجمارك بباكستان ، وحصلت على جوائز أدبية عديدة محلية وعالمية، وخلفت وراءها أربعة دواوين هى: خوشبو: العبق –صدبرك : أوراق –خور كلامى: حديث النفس انكار : إنكار ، وقد جمعت هذه الدواوين معاً فى شكل الأعمال الكاملة تحت عنوان ماه تمام: بدر التمام.

هذا وقد زارت بروين شاكر العديد من الدول، وكانت تجيد الانجليزية والفرنسية والفارسية والعربية.

عاشت بروين شاكر حياة اجتماعية صعبة إذ تزوجت وانجبت ابنها الوحيد« مراد» ، ثم لم تلبث أن دبت الخلافات بينها وبين زوجها مما أدى إلى الطلاق بعد فترة زواج قصيرة مما أثر على حالتها النفسية، فانعكس كل ذلك فى شعرها الذى جاء رقيقاً ومؤثراً ومعبراً عن المشاكل التى تواجه المرأة ، وخاصة المرأة العاملة ، إضافة إلى تعبيرها عن قضايا المرأة ومشاكلها على الصعيد العام وخاصة الطلاق ، وزواج البنت فى سن صغيرة ، ونظرة المجتمع إلى المرأة المثقفة العاملة، وكذا المرأة المطلقة وخاصة فى مجتمع شبه القارة الهندوباكستانية والذى يتميز بنوع ما من المحافظة تشبه إلى حد كبير ما هو قائم فى مجتمعنا المصرى والعربى .كما تحدثت بروين شاكر عن المرأة كأم وزوجة وصديقة بأسلوب يتسم بقدر كبير من الصراحة ولعل قضية المرأة العاملة هى أهم القضايا المعاصرة التى تناولتها بروين شاكر فى شعرها ؛ إذ أن المرأة العاملة فى عصرنا تواجه العديد من المشاكل التى تسبب لها كثيراً من المعاناة الجسدية والنفسية والذهنية إضافة إلى نظرة المجتمع لها ، وخاصة فى مجتمعاتنا الإسلامية الشرقية حيث تتغلب العادات والتقاليد فى بعض الأحيان على الدين والقوانين ، وتصير الأعراف الاجتماعية هى الفيصل الوحيد الذى يقيس الناس من خلاله من عداهم ويصدرون حكمهم عليه ،حتى ولو كانت هذه الأعراف لا تتفق مع الدين والقانون ، فهى تبذل مجهوداً عضلياً مضنياً منذ لحظة استيقاظها فى الصباح الباكر، وإعداد ما يتطلبه خروج الزوج إلى عمله ، والأطفال إلى مدارسهم

بما يمثل مشقة كبيرة لا تتحملها المرأة إلا بدافع الأمومة والحفاظ على كيان الأسرة والعمل على رفع مستوى البيت، أضف إلى ذلك الضغط النفسى الذى يصيبها حين تواجه بمضايقات الآخرين لها، وخاصة إذا كانت فى عمر الشباب ، وانشغالها أثناء وجودها فى العمل فكريا وذهنيا ، باعتبارها أماً على أبنائها وخاصة إذا ما كانوا أطفالا صغاراً ، ثم ذلك الصراع النفسى الرهيب الذى تعيشه حين تشعر فى كثير من الأحيان بأن خروجها إلى العمل قد أثر سلباً على تربية أبنائها وتقدمهم فى دراستهم ، فتصبح بين فكى رحى ، فلاهى تستطيع أن تترك العمل وتتفرغ لتربية أولادها ومتابعتهم ، إذ أن دخل الزوج لا يكفى متطلبات الحياة ، ولا هى تستطيع بأى حال من الأحوال القيام بالأمرين معاً- العمل وإعطاء الأولاد الوقت والجهد الكافيين -فى وقت واحد، خاصة فى ظل الظروف المعيشية الصعبة التى تعيشها مجتمعاتنا، فتصاب عندئذ بحالة من الإحباط وفقدان الإحساس بقيمة الحياة.

ومما يزيد من معاناة المرأة العاملة وإحباطها إذا كان الزوج غير متعاون معها فيما يظنه هو من واجباتها هى فقط ، فتصبح المرأة فى النهاية مثل الآلة تتحرك بشكل روتينى، وتزداد المشاكل الأسرية إلى حد قد يؤدى إلى تفككها وتشتت أفرادها الذين يشكون دائما من عدم تفرغ الأم أو الزوجة للبيت والأولاد.

أما نظرة المجتمع إلى المرأة العاملة- وأكثرهن يعانين من الظروف سابقة الذكر -فحدث فيها ولا حرج ، والمعوّل هنا على النسبة الغالبة من الناس والذين قد يتغامزون بها ، وقد تجرحها تعليقاتهم ، فإذا ما تمسكت بكرامتها وإحساسها بذاتها ومقدار ما تقوم به من جهد اتهمها هذا المجتمع -وخاصة الأقربون بالغرور والتسلط وعدم الاكتراث بالآخرين . وقد تكون المرأة العاملة بغير عائل يعول بيتها، كأن تكون أرملة ، أومطلقة، أو ما إلى ذلك ، وحينئذ تصبح معاناة أضعاف أضعاف المرأة العاملة التى تعيش ظروفا اجتماعية طبيعية.

هذا وقد عبرت بروين شاكر عن الجوانب سابقة الذكر تعبيراً واضحا ومؤثرا باعتبارها امرأة شرقية تشعر بما يعانيه بنات جلدتها فى مجتمعاتنا المتشابهة غالباً ، وباعتبار أنها كانت مطلقة، وتعيش هى وابنها مراد فى كنف أمها ، وإن تيسرت أحوالها المادية وارتفعت مكانتها الوظيفية.

فى المكان الخطأ

أحياناً ينتابنى التفكير
لماذا تقل ملكتى فى إسعاد الآخرين!!
البعض يغضب من ألفاظى
والبعض من لهجتى وأسلوبى
كانت أمى دائما
تشكو من انشغالى
والآن يشكو ولدى من الأمر نفسه
«كم تتضاءل العلاقات وتتوارى فى سباق
الرزق الأعمى»
فى حين أن الواقع هو
أن بيتى
يستمتع تماماً بنقطة ضعفى
بكونى امرأة
كل صباح
أحمل الحقيبة على أكتافى
ويزداد ثقلها يوماً بعد يوم
ومع ذلك
فإن انحناءة ظهرى
تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم
ثم إن هناك عملى ..
الذى يشترط للتعيين بداية
أن أستقيل من كبريائى
أحاول أن أزرع فى العقول البور أزهاراً
وأحيانا تبدو فيها ينوعة واخضرار
وإلا فإن الأحجار
تظل دائما غضبى من الأمطار
وقبيلتى
تستخرج من حروفى النور
لكننى أعرف جيدا
من منهم
تقع على الألفاظ عيونه
ومن منهم
تقع عيونه
على قائلة الألفاظ
كل الدوائر أصغر من أقدامى
لكن الرقص الهمجى للزمن
لا يتوقف أبداً
وتتسارع كل لحظة نغمات الرقص
فإما أننى بالفعل مخلوق مختلف
وإما أن هذا ليس برجى!

امرأة عاملة

الجميع يقولون
ما هذا التكبّر والغرور الذى أصابها
أما أنا.
فأروى نبتتى بدمائى
وينوعة أوراقى
هى كل شئ جميل فى حياتى
وليس لنسمة هواء
أو قطرة مطر

فضل ولو قدر شعرة
على برعم من براعمى
أستطيع اللعب حين أريد
وكل أوضاعى من اكتشافى أنا
أستطيع الآن
أن أواجه كل الفصول
وأنا مرفوعة الرأس
فأنا الآن شجرة قوية
أعرف كل إمكانيات نموّى الرائع
لكن بداخلى نبتة لبلاب قديمة
عندما يشتد الريح أحيانا
تودّ أن تتعلق بجذع شجرة قوية!.

مراد

الذئاب تحيط بى من كل جانب
عيونها خارج حدقاتها
وألسنتها تتدلى من حلوقها
تلهث كأنها تنفث النيران
وقد تحلقت حولى
تنتظر غفلة منى ولو للمحة
كصياد ماهر
أعد الحبوب والشباك
ولفق التهم
ورصد الجوائز والمكافآت
شباك حاضرة من كل نوع
لكن هناك
شعلة من اللهب تحيط بى
وتجبر هذه الوحوش
على الاحتفاظ بمسافة
بينى وبينها
وبالرغم من كل حيلها ومكرها
إلا أن الذئاب
لا تقفز فى النيران!!

محاولة للاختيار

إن كان مقدراً أن أعيش فى غابة
ولا مفر
إن الذئاب ترصدنى فى كل مكان
فإننى أفكر:
لماذا إذن
فى مثل هذا الواقع
لا أعيش فى الغابة
التى أختارها أنا!

إلى شاعرة

لا يمكن أن يتصادق الذئب مع الغزال
فكيف تركت البيت
لمجرد أمل فى ظل بسيط!
صحيح أن جداره متهالك
وسقفه تملؤه الثقوب
وأشعة الشمس الحارقة
تملأ حجراته حتى المساء

لكن الأرض التى يقف عليها هذا البيت
والتى شبت عليها أقدامك
كانت ملكاً لك أنت
تحملت أحاديثك الجافة
كأم رؤوم
من كان يعيد إليك رداء عفتك
حين يعلق طرف طرحتك
بالأشواك أحيانا
أو ينحسر فى غفلة منك عن رأسك
من كان يتلقف أوراق وجودك الصغيرة
فى أمواج السيول والعواصف الجارفة!
من كان يربت بيده على رأسك
عندما كانت المدينة كلها
تتناول أطرافك بالحديث!
من كان يظللك بيديه
عندما كان المطر يسقط بغزارة!
من أضاء كل مصابيح بيتك!
من ذا الذى جعل من أبيات شعرك
كحلاً لعينيه
واليوم
عندما حل الخطب بالوطن
بدا مستقبلك لعينيك مظلماً!
منذ متى كانت
خدمة الأم بالورود والهدايا
إنها تحتاج إلى لساتك أنت
مباركة لك دنياك الجديدة!

لكن عليك أن تعقلى هذا الكلام جيدا
إن الغابة التى اتخذت منها بيتا لك
مليئة بالدببة والذئاب!.

غريب

عيون شاردة
وشعر متناثر
ورداء مهلهل
إنسان ذاهل
يلازمنى كظلى
ولكن
كلما صادفته فى مكان
اضطرب وغير طريقه
ثم راح يرمقنى من بعيد
ترى من يكون هذا؟

حب

سحب الربيع
أخذت بين يديها
وجه الوردة
وقبلتها
فتحولت آلام الوردة
إلى عبق .وفاحت

عطيل

طلبت رقمى ..على تليفونى
مرات و مرات
مندهشة

حتى متى يظل تليفونه مشغولا

وقلبى يحترق غيره

ترى من يتكلم كل هذا الوقت

صوت الميلاد الأول

هى فتاة

ربما لم ألقها ولو للحظة واحدة

أنا أعرف وجهها

لأن وجهها

يطل من وراء ستار أشعارك وأغانيك

صدقنى

إن هذا الوجه أعز عندى من وجودك أنت

إذ أن فى عينيها

يكمن بحر المحبة

لقد جعلت منها إلها ، وظلت تقدسك مثلى

جسم تلك الفتاة

هو جسمى أنا

إنها فتاة

بمثابة رجع صدى ميلادى الأول!

تخيل

تقول: إن حبك لى بلا حدود

وأنا على يقين من ذلك

ولكن أيها الشاب الحالف

هناك شئ فى عينيك لا يطمئن!

حيرة

كان لقاؤنا هذه المرة عجيبا

ها تغيرت أنت أم تغيرت نظراتى

كان يبدو من نظراتك أنه بدلا منى

حل شخص آخر فى بيتك

جئت لأهنئك بمنصبك الجديد

فكان استقبالك لى

كاستقبال رجال الدولة فى البروتوكولات

وجلست بالقرب منى تكلفاً

ثم تحدثت عن الطقس بحماس

وبعد ذلك

تكلمت عن السياسة قليلا

وعلقت على الأدب ببعض الكلمات

لكنك لم تسألنى كعادتك

كيف يمر بك الوقت حبيبتى

كم حجم الأذى فى النهار الثقيل

وكم قسوة الوحدة فى ليالى الشتاء

وهل تشكون أنت أيضا

من بطء الليالى

ليتك حدثتنى عن قصص أحزان الفراق

أو سعادة الوصال

ليتك حدثتنى

ولو على سبيل المجاملة !!

احزان الغد القادم

تتراءى لأنظارى

تلك اللحظة
عندما تغمض عينيك فى ظل ناعم لضفائر جميلة
متخيلا الأيام الماضية
شارداً للحظة
وربما أصابك الحزن وإن لم ترد ذلك
وسيسألك صوت جميل
روحى ! ماذا بك؟
فى أى شئ شرد ذهنك؟
وستبدو وعلى شفتيك ابتسامة
كشعاع الصباح البكر
وسوف تربت على خديها قائلا:
كنت أفكر فى فتاة
فتاة عجيبة ، كم كانت مجنونة!
وعندما يعبس جبين رفيقتك الجميل
ستضحك أنت بحب شديد
وستقول لها
إن تلك الفتاة
كانت حماقة عواطفى
كم كانت فتاة حمقاء
ثم تمر بأصابعك بين ثنايا ضفائر رفيقتك الجميلة
وتقول لها
هيا
فى غدنا الجديد القادم
ندفن ماضينا!

مجرد فتاة

أجلس حزينة
فى حجرتى الباردة
ومن النوافذ نصف المفتوحة
يتسلل الهواء الرطب
يلمس جسمى
فيشعل فيه النيران
ويذكر اسمك
فيدغدغ بدنى
ليتنى كانت لى أجنحة
فأطير قادمة إليك
ليتنى كنت هواءً
فألمسك وأعود
لكننى لست شيئا
داخل الأسوار الحديدية
للتقاليد القاسية
أنا متهم يقضى سجنه مدى الحياة
أنا مجرد فتاة!

نصيب

أنا تلك الفتاة
التى رفع شخص ما
طرف طرحتها عن وجهها
فى الليلة الأولى قائلا:
كل ما أملك هو لك
ما عدا قلبى!

إلى من راقصتك

ذلك الذى وضعت رأسك الآن
على أكتافه أثناء الرقص
كنت فى يوم من الأيام ملاذاً له
والفرق هو أننى
صرت وحيدة قبل الليل
أما أنت
فسوف تبقين فى وهم هذا الأمان
حتى الصباح!

تنفيس

اليوم
وضع رأسه على كتفى
وانتحب باكياً
فى ذكرى شخص آخر!

القمر

كل منا مسافر
وقدرنا واحد
أنا وحيدة على الأرض
وهو كذلك فى السماء!

رحلة خلوية

صديقاتى
يقفن فى عرض البحر ضاحكات
وأنا بعيدة عنهن
أجلس على الساحل وحيدة
أعد الأمواج المتعاقبة
أو
أكتب اسمك على الرمال الرطبة!

حلم

الفتيات الواقفات وسط المياه الكثيرة
يتقاذفن بذرات الأمواج الرقيقة
ويضحكن على أى شئ
ويتحدثن عن أحلامهن
أما تلك الصامتات
فترتسم فى عيونهن أيضا ابتسامة
وتقبل شفاههن لمسة أحلام خيالية
«وقد صارت كل أردية الفصول القادمة
زرقاء»
ومن بعيد
كانت هناك فتاة صغيرة
تجلس على الساحل
لا تشعر بضحكاتنا
ولا بنغمات الأمواج
كانت مشغولة
ببناء بيت صغير من الرمال
وكنت أقول لنفسى
إلهى
نحن الفتيات
لماذا نحب أن نرى الأحلام
منذ نعومة أظفارنا

كم يتواصل حكم الأحلام!!

(نصيحة)

أيتها الفتاة الصغيرة
لاتبنى بيتك من الرمال
بالقرب من الساحل
إذ لو جاءت موجة متمردة
فستقتلع معها بيتك من جذوره
وعندها ستظلين طيلة عمرك
تبكين فى ذكراه!!

الطرحة والشراع

كانت هناك فتاة وحيدة على الشاطئ
تمسك بيد الهواء البارد
وتجرى فوق الرمال المبللة
لايدرى أحد
عمن تبحث
وبعيون قلقة
خالية من الكحل
كانت ترقب فى حيرة
تمايل شراع سفينة تجرى نجفة
على صدر البحر الواسع
كيف تطبق على طرحتها فى حسرة!

صديق

تلك الصخرة الوحيدة
بصحبة البحر
شربت سم الوحدة
حتى صار جسدها الذهبى
أزرق

مدينة الأطباء

خلف مدينة الأطباء
بعض الشباب فى زى بلون الماء الرقيق
يؤدون واجباتهم
فى خفة مثل موج الصبا
يكفكفون الدموع
يعالجون الآلام
أعجبنى كثيراً
هؤلاء الأطباء ، ذوى الوجوه الوردية والزى الملائكى
ولون الحياة واللغة الندية
واللمسة القمرية ، ونفيس عيسى
ود القلب لو أكتب لهم شيئا
وليبق دائما
هذا الضياء العطوف فى وجوههم
هذا النور الرقيق فى عيونهم
هذا البريق الودود فى لهجتهم
هذه الضحكة الجميلة على شفاههم.
لتبق دائما مضيئة متلألئة هكذا
ولتضحك الحياة بصحبتهم
لكن هذا الدعاء لم يكتمل على شفتى
إذ جاء فجأة من جهة ما

جسد إنسان صريح
غارق فى دمائه
ووجهه كئيب
لقد استغرق هذا المنظر ذهنى
فابتلت لهجتى كما ابتلت رموشى
وتلون رداء حديثى بلون الدماء.
لكن هو ذلك المنقذ أمامى
ظل واقفا يضحك
ولم ينقطع حبل حديثه
ولم يكن فى عيونه أثر لأى ألم
بل إنه
عندما رأى حزنى ضحك قائلا:
«سيدتى ! هذا يحدث كل يوم
على من سنحزن
من يتحمل آلام الآخرين
هذا يحدث كل يوم
دعك من هذا
وتعالى نتحدث قليلا»
وبدأت عيونى تحملق فى ملاك الرحمة هذا بحيرة
وظللت أنظر إلى ذلك الإنسان الذى يرتدى لباسا بلون الماء
منحوتا من أجنحة الملائكة
وحاول الناس كثيراً إقناعى:
«هذا طبيب ، الموت بالنسبة له
حدث عام ، وليس مصيبة عظمى»

مبارك للأطباء مكانتهم
ولكن الطريق الذى جاء منه هؤلاء
على كل منحنى فيه
جاءت قلوبهم تحت أقدامهم.
إشتروا الطبابة بدلاً من القلب الحساس الرقيق
وهذا الثمن غال جداً
غال جداً!

إلى صديقاتى العصافير

١

عصفورتى الوديعة
لماذا جئت إلى حجرتى
ليس هنا سوى الكتب
التى يمكن أن تعطيك فقط خريطة بيتك
ولكن
صديقك الذى يحضر القش
ليس بمقدروها

٢

عصفورتى الحبيبة
خذى قشك من نافذتى وارحلى
فربما
خراب بيتى غدا
يقضى على عمار بيتك
ويحل عليك ظل مفرق شعرى!



٣

عصفورتى

لماذا تبكين؟

فاليوم جاءت الشمس إلى بيتك

حاملة رسالة النسيم

واشعة الشمس تمسك بأصابع أطفالك راقصة

وعانق الهواء صغارك لأول مرة

ومتى عاد إلى البيت من يعانق الهواء ذات مرة

٤

عصفورتى الوحيدة فى البيت المزخرف

فى عيونك المهجورة كالنجمة

أحزان «أم الأمراء» ساكنة الشرق

كأننى أرى فيك أمى

أقول لنفسى:

لماذا يكون قدر الأمهات واحداً؟

حجورهن يملؤها الورد

وأفنية بيوتهن خالية!!

قصة



القصة النسائية فى إيران

مختارات من مريم جمشيدى

ترجمة وتقديم

أسامة فتح الباب

رقـــية الشبراوى

بالرغم من التجربة التاريخية التى يصل عمرها إلى عدة قرون ، والتى كانت نتاجا لدرر من النظم ،والنثر. فإن تاريخ كتابة القصة فى إيران لا يتعدى المائة، ونيف سنة ، حتى اطلع الإيرانيون على عالم الغرب .. وما واكب هذه الأجواء المتنوعة من الأدب والفن.

وقد أسفر البحث بين فهارس الكتب المختلفة ، ومصادر الأدب القصصى الإيرانى عن نتيجة مهمة، وهى أن كتاب القصة الإيرانيين فى القرن الأخير من شيوخ، وشباب يصل إلى ١٢٠٠ كاتب ، وكاتبة وتشكل الكاتبات ما يقرب من تسع هذا العدد تقريبا .

وكان الأدب القصصى النسائى قد بدأ يشق طريقه إلى النور بشكل جدى عندما نشرت الأديبة الإيرانية ذائعة الصيت سيمين دانشور مجموعتها القصصية (آتش خاموش) (النار المطفأة) فى عام ١٩٤٩م.

وإن كان هناك أثر قصصى نسائى آخر مثل (آفسانه ورامين) طبعة طهران عام ١٣٢٣

هش عام ١٩٤٥ م للكاتبة الإيرانية «مريم فيروز» تم نشره قبل هذا التاريخ إلا أنه ، وللأسف الشديد نفدت طبعته ،وليس من السهل الآن العثور عليه والحكم بما إذا كان هذا العمل عملا قصصيا أم لا .مع أن بعض الكتب قد عرضت له ،واعتبرته أول عمل أدبى منثور خطه قلم سيدة إيرانية.

ويمكن تقسيم الكاتبات الإيرانيات إلى عدة فرق.

١- الفريق الأول : وهو فريق الكاتبات اللاتى استمر نشاطهن القصصى حتى قيام الثورة الإسلامية ثم انقطع هذا النشاط بقيام الثورة، ولم ينشر لهن أثر واحد بعد الثورة . ومن هذا الفريق كاتبات لم ينشرن إلا عملاً واحداً، أو عملين فقط، ثم إن هذين العملين لا يتسمان بالجودة الأدبية كما أنهما قد يفتقران إلى الحبكة الفنية ، والتكتيكية .وما لبثت هذه الجماعة أن اعتزلت العمل القصصى ،والتحقت بقطاع أدبى آخر.

٢- الفريق الثانى : ويتمثل فى مجموعة الكاتبات اللائى يمكن أن يطلق عليهن اسم الكتابات المخضرمات ،وهن اللاتى نشرن أعمالا قصصية قبل الثورة ، واستمر نشاطهن حتى بعد قيام الثورة. فهناك كاتبات معدودات سطرن أسمائهن بحروف من نور بين أشهر الكاتبات اللاتى لمعت أسماؤهن فى مجال القصة ، ولا يزال حتى اليوم.

الفريق الثالث: ويتمثل فى مجموعة من الكاتبات اللائى لم يكتبن إلا بعد الثورة ، وهؤلاء الكاتبات أطلقن على أنفسهن اسم« كاتبات جيل الثورة» والمقطوع به أن هذا الجيل من الكاتبات قد اتسمت أعماله بخصائص ،وملامح جديدة ،ومختلفة عن مضمون القصة قبل الثورة، وهذا الأمر ليس بالغريب فالثورة الإسلامية قد أحدثت تحولا عظيما فى البنية السياسية، والاجتماعية، والأدبية ،وتغيرت قواعد ،ومجالات ،وتبدلت رغبات ،واحتياجات مختلفة ، وصدق من قال إن الأدب هو مرآة العصر .فقد أدت أحداث الأيام الأولى للثورة ، وكذلك الأشهر القليلة التى مرت قبيل الثورة إلى ظهور خصائص أدبية ، وفنية عديدة.

من هنا فإننا اليوم أمام أدب جديد من نوعه ذى خصائص أدبية مختلفة ، ولذلك فهو فى حاجة إلى أسس ،ومعايير جديدة تضاف إلى المعايير التقليدية للنقد الأدبى حتى يمكن تقييمه ،ونقده بشكل علمى دقيق ،كما أنه يحتاج إلى سبر أغوار الإنسان ذاته .ومع أن أدب الثورة الإسلامية لا يزال يفتقر إلى المبادئ العامة التى يجب توافرها فى الكتابة القصصية ، إلا أنه جدير بالعرض ، ومع أن الكتابة النسائية تعكس التجارب الشخصية للمرأة، إلا أنها تعكس فى الوقت ذاته الملامح السياسية ، والاجتماعية للمجتمع بأسره «فمثل هذا القصص يفيض صدقا ، و إخلاصا.

إن الوصول إلى مرحلة الحبكة الفنية ، وتفعيل الخبرات يحتاج إلى وقت طويل بينما لا يزال أدب الثورة يعيش طور الصبا فى كافة مجالاته ،ومناحيه ولكل هذا قد يكون من قبيل العجلة طرح هذا الأدب النسائى فى هذا الوقت مع أنه يعد تجربة إنسانية ، ونتيجة سياسية واجتماعية.

ونحن الآن نسعى للتعرف على هذا الإنتاج القصصى للمرأة الإيرانية التى كان عليها أن تخطو خطوة إلى الأمام لتعبر عن وجودها ، وتثبت للمجتمع أنها كائنة ، لها دورها الذى لا يقل أثرا عن دور الرجل، لأنها تطلع القارئ على جانب يكاد يكون خفيا عنه ،ومهما حاول الرجل تصويره ،وتجسيده فإن قلمه يخونه ، ويهتز بين أصابعه ،وعلى سبيل المثال لا الحصر تقدم إحدى القصص المقدمة اليوم للقارئ تجربة أنثوية فريدة قد يشاهدها الرجل من بعيد ،ولكنه لا يستطيع أن يصفها الوصف الدقيق لأنه لا يعيش هذه التجربة ، ولن يستطيع أن يعيشها ، فهى تجربة امرأة تضع طفلا ، فالقاصة مريم جمشيدى برعت ، وأبدعت فى وصف هذا المشهد وتجسيم هذه الصورة .إنها أحكمت قبضتها على قلمها ، وأطاعها هذا القلم ،فأخذت تجرى به على سطور أوراقها ، وهو يرسم صورة مؤثرة ترحل بالقارئ بعيدا عن واقعه الذى كان يعيش فيه قبل قراءة هذه القصة ،وتؤثر فيه تأثيرا بالغا فهى تصور امرأة تضع فى المستشفى ،والمشهد يقوم به أكثر من شخصية ،وهذه الشخصيات هى المرأة التى تعانى آلام المخاض ،والطبيبة ،والمرضات ، وطبية التخدير ، وأم المرأة ،وكانت الكاتبة تعطى خيط الحديث لكل شخصية فى إحكام للتعبير عن تجربة ربما تكون قد مرت بها هى بل إنها من المؤكد أن تكون قد مرت بها، وهذه التجربة لا يمكن للرجل أن يصورها ، أو يجسدها كما جسدتها الكاتبة، ويعد هذا من الجوانب التى تنفرد بها المرأة على مسرح الكتابة القصصية.

وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الكاتبات اللائى أثرن فى حركة الكتابة النسائية فى إيران ، و من هؤلاء الكاتبات، الكاتبة الإيرانية الشهيرة «سيمين دانشور» التى تعد أشهر الكاتبات الإيرانيات فى العصر الحديث حيث بدأت القصة النسائية فى إيران على يدها ، ويقصتها «آتش خاموش» (النار المطفأة) ،وتوالى إنتاجها الأدبى ،واستمرت تنتج أروع الأعمال ، وأكثرها إبداعا فرأينا لها بعد ذلك «مدينة كالجنة» عام ١٣٤٠ هـ ش، و(سووشون) عام ١٣٤٨ هـ. ش ، و(على من ألقى السلام) ١٣٥٩ هـ .ش ،والجزء الأول من رواية (جزيرة الحيرة) عام ١٣٧٢ هـ. ش.

ومن الكاتبات البارزات فى الأدب الإيرانى ،والتى يمكن أن تحتل المرتبة الثانية بعد

سيمين دانشور الكاتبة الإيرانية المقتدرة «كلى ترقى» والتى ولدت عام ١٣٨١ هـ ش. و١٩٤٠ فى مدينة طهران ، وكانت تعمل أستاذة بالجامعة فى قسم الترجمة . وهى كريمة السيد لطف الله ترقى مدير مجلة« ترقى» ، وكانت ترقى قد بدأت تشق طريقها لاحتراف كتابة القصة منذ عام ١٣٤٤ هـ. ش ١٩٦٥م ونشرت مجموعتها القصصية الأولى فى عام ١٣٤٨هـ.ش «من هم جه كوارا هستم» ، و(أنا أيضا ما أمتعنى).

ويأتى الدور فى الحديث على كاتبتنا التى أبدعت أعمالا أدبية رائعة منها: المجموعة القصصية التى بين أيدينا ، وهى مريم جمشيدى التى ولدت عام ١٣٤٣ هـ.ش ١٩٦٤ م ونشرت فى عام ١٣٦٧ هـ. ش ١٩٨٨ م«مجموعتها القصصية : كهواره« خوبى»، (المخدع الجميل) و«عالم وآدم» (العالم والإنسان) ،وتحتوى هاتان المجموعتان على آلام ومتاعب وقضايا تهم المرأة الإيرانية فى فترة ما بعد الثورة .

الشاحب

قلت مرة أخرى : هل يتحدث إبراهيم؟.

أمسح عينى ولا أصدق .هل كنت أرى كل تلك الأشياء فى المنام؟.

ولن يعود إبراهيم فى الحقيقة. هل يعقل ؟ لا . إبراهيم قد رحل منذ فترة طويلة، وضاع! ضاع إبراهيم منذ فترة طويلة. كم هو مؤلم ! أذهب إلى الفناء ، وأجلس فوق السلم الأسمنتى المعتم للغاية!.

عندما كان إبراهيم يريد أن يذهب و .. لا يعود .. أنظر للأفق ، وهذا القمر الفضى بعيونه الزرقاء ينظر إلى بتؤدة، ولكنى متبرم جدا من الأنس به.

إننى لا أفهم ما حدث بالمرة .لقد جاءنى فى المنام ، ربما يكون هذا هو السبب .فالأشياء التى كان يقولها كأنها وخزتنى بمخرز ، إنه كان يصرخ ، ولا يريد أن يقول ، ألححت عليه كثيرا ، وتوسلت إليه لكى يقول ، وهكذا أعتقد أن إبراهيم قد وقع أسيرا، وخلاصة الأمر فإن إبراهيم كان يستطيع أن يرى كل هذه الأشياء ، و .. يا إلهى .. إبراهيم!.

كان هناك شئ يزعجنى ربما كان هذا الشئ هو كلام إبراهيم .مؤكد هو. فكلام إبراهيم كان ثقيلا ، ثقيلا جدا ،كأنهم أفرغوا عليه قدراً من السائل الحديدى ،وهكذا كان يتملكنى إحساس غريب بالضيق ،فقد تغيرت كثيراً ، وأصبح لدى يقين بأنه هو رد فعل كلمات إبراهيم . فيا لها من أشياء ! أقول لا نفعل فمنامى ليس له تفسير.

هل يمكن! أيمكن أن يكون داخل المعتقل على هذا النحو .. لا ، لا أيأتينى إبراهيم فى المنام ، هل يمكن أن أصدق ما رأيت فى المنام.

ولكن كل هذه الأشياء حقيقية ، فقد قيدت رقبة إبراهيم بقيد محكم، وإبراهيم يتوجع ، ويئن! يا لها من قسوة ! ويالها من وحشية! وما أبشعه ألما! فهل لهم علاقة بالجميع ! الآن لا يمكن .. لا ، لا ، إبراهيم نفسه قال لا يمكن . أى لا يمكن أن يحدث . نحن مع هؤلاء .. لا ، لا ، أصلا لا يوجد أحد شريف.

إبراهيم كان يقول إننى يجب أن أعرف ! وأمى كانت تقول أيضا لماذا كان قليل الكلام، ويجب أن ألح عليه لكى يحرك شفتيه بكلمة . وكان قلبه قد قبض جدا لم أجرؤ أن أدقق فى ملامحه بعد التقاطيب التى كانت قد علت جبهته بعد مضى عامين يصبح هو نفسه رجلا حذرا أم لا .فقط اصرارى هو الذى جعله يتحدث ، وكان يقول نفس الكلام الثقيل ، يبدو أنه كان متعبا للغاية . ألقيت نظرة إلى عينيه كان من الواضح أنه أمضى الليل كله مستيقظا وكان يقول إنه لم يكن يستطع مشاهدة نجوم الليل.

يا ليت لسانى كان قد انعقد ولم يتحرك ، فلو كان هو هناك وذهبت أنت لجعلوا سقف السجن حجابا للسماء.

فى رأيك أين يجب أن أكون ؟ فوق ، بين طبقات السماء ؟ لم يقل لنادر . وكان يقول لنفسه . ومع هذا سألت : هل لا تقول يا إبراهيم؟.

قال : إنه لن يقول لنادر مرة ثانية.

ونسيت ويا ليتنى لم أنس فى أى وقت أن أسأل أين هذا المكان الذى كان يتحدث عنه فهو لا يستطيع أن يشاهد نجومه ولا يداوى جروح نادر. وعندما لا يتحدث هو بنفسه يجب أن أسأله أنا، وعلى هذا الشكل تذكرت وسألته.

إبراهيم ، يقال إنك قد ضعت . وأخيرا لماذا ؟ وأنت يا إبراهيم الذى كنت تعرف الجبهة جيداً وأنت نفسك أكنت طفلا وتربيت فى هذا المكان ! إلا أن إبراهيم قد أومأ برأسه وأشار لى بيده.

قلت:« إبراهيم . إننى أعرف هؤلاء جيدا .هى نفسها أيدى الإخوة قوية للغاية ، ونافذة . وأنت يجب أن تفخر بها.

ولكنى لم أفهم لماذا يتألم إبراهيم من كلامى ، وأجابنى بابتسامة مريرة هل ترى شيئا؟.

قلت : إبراهيم كيف، لا أرى شيئا ! ويدك بهذا القدر من الضخامة . حتى لو أننى

رغبت لم أستطع أن أراها.

ولكن إبراهيم لم يصدق ،وفى الحقيقة أصبح كل شئ سيئا حيث لم ألمس يده ،وكما يقول صعب جدا ،جداً ، ولكننى كنت أعرف أنه لو لم يتحدث .لكان يذهب ، ولم يستطع قلبى أن يعود مرة ثانية وفى هذه الأثناء قلت هل تتحدث معى مرة ثانية أيضا يا إبراهيم؟.

إذن فينبغى أن أحافظ على نفسى تماما كالقمر . فهو يرنو إلى قصة بيضاء أملا فى الغد .

الآن أسمع صوت مؤذن شيخ المسجد القديم فى حينا يدوى فى الفناء ويخفف من عبء قلبى ، أنهض من مكانى للصلاة ثم بعد الضوء أقف للصلاة. وعندما أصل القنوط ابراهيم أمام عينى يتجول فوق ظهر يدى ،والآن ولا أزال فى فتوتى.

والآن ، ولا أزال فى فتوتى أحدث صوتاعاليا يتلمسه .اللهم لا أن تقدر لأى إنسان أن يصل إلى سن الكهولة فى انتظار أى عزيز.

ثم أداوم هياجى الداخلى!.

يارب عجل بظهور الموعود على حقك!

وفى النهاية زال الغم الذى يعلو قلبى، ينبغى على الإنسان أن يصل لنظرة الناس.

الناس الذين هم وحيدون يلقون السلام على الشمس بمفردهم!.

وفاة زوجة

كان قد مر وقت طويل ، ولم يكن قد رآها فهو مريض . وكأنهم يغلون دمها داخل جسده الذى أصبح يشبه الإناء حتى إن النار كادت تشتعل فيها من أخمص قدمها حتى مفرق الرأس ساعة بساعة لدرجة أن لعابها أخذ يتبخر.

كم كانت تعانى .كانت قد وضعت أطراف غطائها على شعرها. وقبعتها كانت تحس أنها فى خفة قطعة نقد معدنية .كانت أحيانا تجزع ،وتفزع أمام زوجها «حيدر أوراه» وذلك لأنها كانت قد ضاقت ذرعا ، وتنظر إلى حيدر بعينين يملأهما الغيظ .كانت تريد الحديث إلى زوجها ،وحيدر كان صامتاً ،وكانت شفتاه قد شجتا ،وسيطرعلى قلبها إحساس سيئ ، ورضيت بأن يقضى الله دائما على العربدة التى يعربدها حيدر داخل البيت سواء بسبب ، أو بدون سبب. إن زوجها يعى تماما أنها ليست سيئة ، أو حزينة .. وخلايا النحل النشطة داخل حديقة الحاج اسفنديار الميلانى تجعل الخلية تفيض بالعسل الجيد.

«سيدة البيت» كانت لا تزال تواصل سيرها تجاه المنزل بسرعة متلاحقة وفكرت ، ولكن

الآن ماذا؟!!! وهل كانت تستطيع هذه المرأة ألا تقول لزوجها .. ودون إرادة منها انهمرت فى البكاء وأصبح على وجهها خطان من أثر الدمعس . تذكرت الطبيب الأنيق ذا العظمة التى تعلو رقبته . ذلك الرجل الهندى الألكن الذى كان يلوك اللغة فى فمه ، وانتهى به المطاف إلى أن توفى فى بلده ، لم يشعر الرجل بأنه غريب هنا فما أكثر أن أشاد بنفسه قائلا: «إننى أستطيع أن أعمل لك عملية «تاهة» ، ولكن لم تسفر عن نتيجة «والتاهه ..».

تذكرت الزوجة دون أن تصغى لما تبقى من كلامه أن الموت شئ يشبه ضيفاً مجهولا من الممكن أن تشاهد هيبته فى وقت تناول طعام الفطور ، أو أثناء صلاة العصر عندما تسجد ، أو عندما تستغفر الله ، أو عندما تقوم للتشهد «وبين لحظة ، أو أخرى يدخلك بيته كأنك لم تكن غريبا عنه أبداً.

«الموت» يدخل بمفرده من باب ، ويخرج من نفس الباب ، وهو يصطحبك دون أن تكون قد انتظرت مجيئه ، أو أن تكون قد هيأت نفسك للذهاب معه.

«الزوجة» بينما كانت تومئ برأسها . بصقت من فمها فنثرت قطرات عرقها ، ودمدمت فى نفسها قائلة «لقد يممت وجهى شطرالقبلة مرات عديدة ، وانتظرت موتى... منذ اللحظة الأولى التى أصبت فيها بلهيب ذلك المرض الميئوس منه.. منذ ذلك الوقت عرفت مصيرى ... أنا كنت أعرف أن شمس عمرى لن تكفيس لأن تضئ ربيع هذا العام ..لم يكن الصيف قد نفخ فى نفيره بعد إلا ورحلت .ولطالما كتبت وصيتى كلما كان نفسى يصعد واشتريت كفنا لجثتى ..لقد أمهلت نفسى خمسة أشهر أخرى».

وفجأة كانت قد وثبت من فوق مقعدها خائفة تريد أن تتحدث مع الطبيب.

—يا آواره لقد مرت عدة أشهر وأنت على علم بمرضىّ لو أنك لا تفهم لغتى ، فأنت كنتس تعرف علاج مرضى «إذن فلماذا لم تجر لى العملية حتى الآن ..لماذا تركت هذه الغدة السرطانية تعزو كل جسدى .والآن لن يجد علاجك ولا دواؤسك .لقد جئت للتو فأجبنى ..

ولكن« الزوجة» لم تتفوه بكلمة ، بعد ذلك كان لسانها قد ثقل «وكانت تعرف أن الكلام غير مناسب لحالتها لم يكن الطبيب ينظر إليها بعينين مفتوحتين ويفهمها بلغة الصمت فلا يقف ، ويذهب ... وكأنه كان قد قال :« إنك أتيت كنت قد أتيت متأخرة .متأخرة.

«الزوجة» عندما عادت إلى البيت كان حيدر فى البيت حزيناً وقد جلس القرفصاء واضعا ركبته تحت إبطه فى زاوية بعيدة.

«الزوجة» التى لم تكن تتوقع رؤيته فى البيت فى هذا الوقت من النهار دخلت حجرتها ،

ومرت متثاقلة من أمام زوجها . ولم يرها حيدر ، ولكنه سمع صوتها حيث كانت تئن بصوت عال: «حيدر الموت لك يا حيدر» ..لو تعرف كيف أصبحت مثل السمكة التى أخرجت من الماء وألقيت بعيداً ..إنك لا تراني مهما تلويت من الألم لا تراني..».

رفع حيدر رأسه فجأة وصرخ في وجه زوجته المضطرب ، وقال «كفي يا امرأة وانهض أيها العجوز . إنك تعددين وكأن دم ابنك الوحيد قد أريق على الأرض».

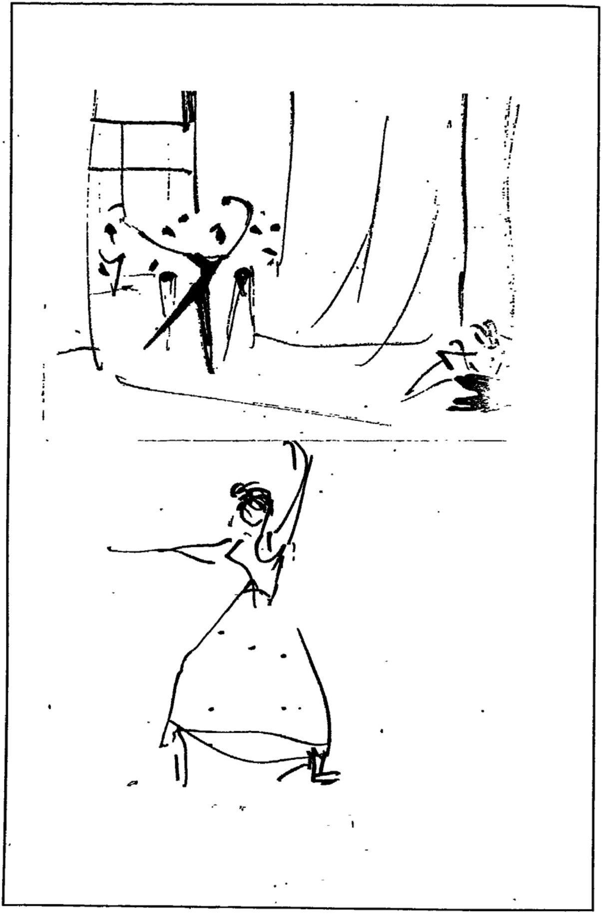
«الزوجة» نظرت إلى زوجها تشبه نظرة الخروف الأسود. ولا يساعدها قلبها على الكلام ..لفت في الحجرة لفة سريعة واجترت آهة وتألمت بينما كانت منشغلة في جمع القمامة منفوق البساط قائلة: اذهب فداء لرضاء الله..فإنه يظل يضئ البيت حتى الصباح وإلا فكيف كان كل هذا العالم وكل هؤلاء الناس يعبدونه..

ثم صاحت صيحة عالية من أعماق قلبها واتجهت نحو المطبخ وكأن حيدر قد أفاق فجأة وأخذت عيناه في البكاء ومن غيرس تفكير نهض من مكانه وتبع زوجته إلى المطبخ حيث وقف إلى جوارها وقال بصوت متقطع «ماذا حدث يا امرأة ..لقد أشعلت ناراً في القلب وفي البيت وتذرفين من عينيك دماً».

ولكن عندما سكن كل شئ ولم يسمع إلا صوت البكاء وصوت غسيل الأواني والأكواب عاد إلى وسط الحجرة وصرخ قائلا : «فإلى أى قبر أسود ذهب هؤلاء الأيتام حتى لا أراهم في داخل البيت ألا يسمعون صيحات أمهم ..ألا يؤثر فيهم تلاوة الروضة(١) التى تترنم بها ثم أستطاع أن يرفع صوته أعلى منها فقال: حسنية ، إن الهواء يبدد صوتك فلا يسمع أيتها اليتيمة».

وأراد أن يتناول ابنه هدايت هو الآخر بالسباب والفحش حتى هدأت «السيد» وخرجت من المطبخ تماما مثل النجم الذى يضئ الأرض بشعاعه من السماء وهو وحيداً جلست وسط الحجرة وفي يدها الشاى وبدون حتى أن تستطيع إلقاء نظرة عابرة غمغمت «لماذا تحدث اضطرابا أيها الرجل.. أجلس حتى نجدد نشاطنا بعدها أى سؤال ستسأله سأجيبك عليه ولا شأن لك بحسنية أو بهدايت ... إنهما لا يعرفان شيئا قط.. وأنت الذى يجب أن تعرف كل شئ.

جلس حيدر تائها وحيران أمام زوجته بملامحه السوداء التى تشبه تماما التوت الأسود ، وظل منتظرا «الزوجة» عندما انتهت من كلامها رفعت رأسها واستقر بصرها فجأة على وجه زوجها كان يبدو لها أن حيدر قد مات منذ سنوات بينما كان متكئا على الحائط وقد أغلق جفونه بشدة.



كان هواء الخريف السيئ يحرك غصون الأشجار وأوراقها .وكانت حسنية قد جاءت إلى الساحة لكى تكنس أوراق شجرة التين العجوز وتراقبس الغروب من ناحية وتنظر فى الساحة من ناحية أخرى حتى يعود حيدر من حديقة الحاج اسنفنديار.

ولما تنكرت حسنية أن جو الخريف ليس ملائما وتعتقد أن الخريف على الأقل لا يتجنب المشردين بالشوارع بينما كان يهجم على الحديقة محدثا صوت أزيز وهو يعريس جسد الأسجار..

ارتفع صوت «الزوجة» بشدة ودوى بين النافذة والساحة عادت حسنية ،وقد ربطت نطاقها.

سقطت «الزوجة» فى السرير كأنها دجاجة عاجزة وأخذت تئن . تقدمت حسنية . وأمسكت بيدها المحمومة ، وقالت بغصة متقطعة فى حلقها :«ماذا تريدين يا أماه .. أترغبين فى مشاهدة وقت الغروب .هل أمشط لك شعرك ،وأجدله لك فى جديلة طويلة..

إلا أن الزوجة أطلقت صيحة من الألم وكأنها بقرة ،ولم تستطع الكلام . وثبت حسنية من مكانها بقدها المشوق لكى تخرج قرصا من البقجة المملوءة بالأقراص ،وتحضرها لها . وصل حيدر هو الآخر من طريقه. واتكأ على الحائط ماسكا بظهره من الألم ،وأخذ يحملق فى زوجته.

الآن وقد مر أحد عشر شهراً وزوجته طريحة فراش المرض تتألم فى أنفاسها .الأكثر من ذلك أنه مر عليها ربيع أسود بل وحتى الصيف قد انتهى هو الآخر على هذه الحال ، ودار الفلك دورته عاد بعدها إلى نقطة البداية ،وفقس بيض النحل للمرة الثانية بحديقة ميلانى كما أن هدايت قد تسلم حذاء وقبعة من الجندية أما زوجته فلم ترحل ولم تبق .ولونها يزداد شحوبا واصفرارا يوماً بعد يوم، وجسمها يزداد نحولاً ، كانت الأفكار قد تملكح يدر بينما استقر صوت حسنية الدافئ فى أذنيه ،وهى تقول :«بابا إن حالة أمى أصبحت اليوم أكثر سوءاً . أظن أن ألمها سوف يسكن فقد أعطيتها قرصا منوما».

صاح حيدر قائلا: «لقد نفد صبرى يا ابنتى ..انهضى واغلى لى كوبا من الشاى الخالى من العطور..»

سألت حسنية بينما كانت تنهض دون أن تستطيع توجيه نظرها إلى عينى أبيها : «من أي شئ نفدصبرك يا أبى .من أمى».

نظر حيدرس إلى ابنته نظرة غريبة ثم حول نظرته المتعبة إلى سرير «الزوجة» ولم يتفوه بكلمة .كان يرى أن زوجته قد حفرت لها حينما مظلما وباردا .والآن قد مر وقت طويل لم

يدر بينهما أى حوار . فزوجته دائما تنوه.. تنوح ليلاً.. وتنوح نهاراً وتنوح فى وسط الليل..وكأنها تماما قطة تقف عاجزة تحت الأمطار تذكر حيدر بالماضى ،وكيف أصبح صوتها كصوت الديك حتى إنه كاد ينسى مفارقاتها بينما كان يعرض شريط ذكرياته معها فى رأسه ،وضع رأيه بين كفيه ،وصرخ فجأة وبلا اختيار ..أما زوجته فقد غطت فى النوم شيئا فشيئا..

كان قد أخرج باقة من الورد الأحمر من وسط الكليم فى الحجرة.

«الزوجة» وبمجرد أن وقع نظرها عليه أحست من أعماق قلبها كأن الغدة السرطانية قد تبددت تماما . أرسلت إليهما نظرة شبابية ، ومفعمة بالحياة وتنسمت عبق المكان فما أطيب عطرها وكأن بيتهم هو حديقة الحاج اسفنديار ، وقاطفى زهور الربيع.

«الزوجة» أحبت أن تأخذ غصنا ،وتداعب وجهها بأوراق الورد والذى كان يبدو وكأنه وجه امرأة عجوز ومن هنا أدنت وردة من وجنتيها بلطف ، وأغمضت عينيها فجأة.

ثم ألقت بنظرة إلى أركان الحجرة .وكان صوت غطيط زوجها حيدر آوراه يزلزل الأشياء حتى المرآة فوق الرف. نادت «الزوجة» بما أوتيت من قوة قائلة: انهض ، وأضئ المصباح».

قفز حيدر من نومه فزعا ،وهو لا يصدق ،وجلس فى مكانه : «ماذا حدث يا امرأة ..هل صرعك جن..ن صوتكلا يشبه صوت من يشرف على الموت».

«الزوجة» أخذت المرأة تلاطفه مرة أخرى قائلة: «لا تكن قاسيا معى يا حيدر ، انهض ، وأضئ المصباح ..كان صوتها دافئا ولطيفاً».

استسلم حيدر للحيرة ،وتجمد فى مكانه ،ولم يستطيع الاتكاء.

«الزوجة» اضطرت للقيام من سريرها ورفعت خطوة فى خفة السحاب نحو الحائط ، ووضعت يدها على مفتاح المصباح ، إلا أنها مهما ضغطت على المفتاح لم يضأ المصباح ..أخذ الألم يصعد فى جسدها لحظة بعد أخرى ،ومن هنا فإنها سندت رأسها على المفتاح واجترت آهة مؤثرة.

وبعد لحظات قام حيدر نحوها وضغط على مفتاح المصباح وبإضاءة المصباح وقعت عيناه على زوجته ساقطة على الأرض بجوار الحائط تأبطها حيدر وفزع وأدار وجهها إليه .. بينما كانت عيناها شبه المفتوحتين متجهتين إلى لا مكان فلم تكن ترى شيئا بعدها.. كان حيدر يبكى متألما ،وغير متأكد مما إذا كانت قد ماتت ، أم لا..

رياح وأمطار

دقت ساعة الحائط الثانية بعد منتصف الليل، وكانت الأحوال تجرى على غير ما أرادت الطبيبة حيث كان أفراد النوبتجيات يتحدثون فى الردهة بلاحساب .كان الشتاء فى ذروته .حيث أخذ الجليد يتساقط بشدة.

تدحرجت المرأة ناحية النافذة ،وكان الألم قد سلبها النوم، كانت ستائر النافذة أحيانا مفتوحة ، وأحيانا أخرى مغلقة، لم تكن تعرف شيئا عن الجليد الذى يتساقط خلف الزجاج.

كانت تتفقد عقارب الساعة فى الحد الفاصل بين المعرفة ، والجهل حيث كان وجهها مغطى فى غالبه بماسك من الأكسجين ،وكانت فرصتها فى الراحة بين عودة الألم ،وسكونه عدة ثوان معدودة ، لكى يمكنها التفكير فى شئ بسيط ، وشئ دقيق كان يعبر من أمام خيالها اللحظة ،فقط لحظة . شئ بالغ الدقة من التفكير ، وذكرى فى حجم شعرة، ولو أن الموت كان بهذا الحجم لكان شيئا بسيطاً.

أخذ الجليد يتساقط على مهل ،أغلقت عينها فجأة، ،وبضربة من الألم الشديد الذى كان يحمل شيئا من داخلها يعاودها كل دقيقة ،ونصف ،كل شئ حولها كان يتهاوى . نهضت ،وفكرت لكى تخلص نفسها .نزعت من يدها سن الإبرة المتصلة بزجاجة الجلوكوز ،وأخذت تجرى ،كانت تجرى بين حوائط ،وحوائط تحيط بها من كل مكان حتى استطاعت أن تضغط على حائط فانقبض قلبها ،وتعثرت أنفسها.ليتها كانت تستطيع الخروج من هذه الغرفة، من هذا الفراغ الغريب الذى كانت تختنق برائحة الدم، والعرق ، ومخلفات الولادة داخله ،حتى إنها كانت تحسد كل مكان خارج هذا المكان.

ابتلت أرضية الحجرة فجأة ،حيث كانوا قد فضوا كيس ماء لطفل منذ ساعة ،وكلما رفعت خطوة تزحلقت فوقعت ،ونظرت حولها كم كانت وحيدة ، أربعة أسرة عليها أربع ملاحف جافة لم تمس ، أربعة أسرة فارغة من أربعة مواليد ، أين كانوا هم، هل كانوا قد استطاعوا الهرب إلى مكان آمن بعيداً عن الجميع ، بعيداً عن الناس الذين دائما يتعقبونهم ، يبحثون عن شئ داخلهم مثل مريم العذراء ، تحت سعف النخيل اليابس ، طرقت رأسها بالحائط ،وصرخت ، ولم يكن هناك أى شخص ،فلم يأتيها أحد أحنت ظهرها ،وهى متكأة على الحائط حتى خصرها .

وفجأة رأت الباب ، وأرادت أن تهجم ناحيته ، لكنها توقفت ،تحت ضربات سوط الألم، وأحنت ظهرها مرة أخرى ، على بقع الدماء الكثيرة التى كانت فوق الملحفة ،الملفوفة بها بخيطين ، أصبحت أوسع ، وسقط الدم تحت قدميها اسودت عيناها من الخوف ،كان

ينبغى أن تخبر أحداً.

كان ينبغى أن تذهب ،كان ينبغى أن تخرج من هذا المكان ..

رفعت عدة خطوات متعثرة ،أنا رياح ..أنا أمطار ..أنا شمس طاهرة ،وصرخت ، وسقطت على الأرض.

فجأة، وفى طرفة عين التفتت المرضات حولها ، واختلط صوت بكاؤها بضجة المرضات ، كانت آتية .. ،وظلت تتوسل إليهن قامت المرضات بحملها من فوق بلاط وجهها إلا جلد على عظم ، كان يبدو أنها تتألم لسنوات طوال تتألم فقط ، ولا تلد.

تأبطها إحدى المرضات ، وقالت لها سينتهى كل شئ ، فلماذا كل هذه الأفعال أطفلة أنت ، لم تجب المرأة عليها ، وقبل أن تعود بها المرضة إلى سريرها ، بدلت لها ملابسها ،وكذلك الملاحف استقلت المرأة يائسة فوق ملاحف جافة ، وأخذت تتفقد السقف بنظرها ،ولا تزال تتألم ،والمرضة منشغلة بقياس نبضها ، كان يبدو من صوتها انه متعب : قائلة «الطبيبة موجودة فى مكتبها اتصلت بنا هاتفيا تسأل عن حالتك ..أمرتنا بأن نقدم لها تقريرا عن حالتك أولا.. بأول .حتما هى تفكر فى الحالة ..لا تقلقى ، الطبيبة ماهرة ..فهى تعرف جيدا ماذا ستفعل ..

جاءت عاملة النظافة لتنظف الحجرة .كان وجهها يوشى بأنها ما زالت نائمة وعبوسة . ألقت المرضة نظرة على الحجرة ، وواصلت حديثها: «أنظرى ماذا فعلت هنا .. الوقوف ليس مناسبا لحالتك ،فما بالك بهذه التصرفات العجيبة ،والغريبة .،«ومالت عليها مرة أخرى لتواصل الكشف على المرأة .كان القلق يعلو وجهها .لم تكن تحس إحساسا طيبا .ألقت نظرة خارج الشرفة ،كان الجليد لا يزال يتساقط.

ياله من جليد ..المرأة ، تمنت المرأة وهى تقبض بشدة على يد المرضة أن لو استطاعت أن تنام للحظة واحدة فقط ..».

كانت قد جلست فوق سرير خشبى فى زاوية من زوايا الساحة، وأخذت تترنم بشعر حافظ ..ليل حالك.. وموج مخيف .. ودوامة هائلة.

كانت ساحة كبيرة تملؤها الأشجار .كان النسيم الذى يهب وكأنه يحدث حكيكاً فقط فى تلك الأشجار المعدومة من أشجار التين . نظرت المرأة إلى الساحة ، وخافت فجأة ، فلم تكن الساحة كما كانت دائما.

كان هناك شيئا ما قد تغير . شئ كان قد تغير فى كل الدنيا . شئ كان دائما ممتزج بالأسرار «كله من تحت راس هؤلاء الناس..

قد تغير كل شئ من أجلهم ..هؤلاء الناس الذين يمتزجون بالأسرار .تملأهم الأسرار ، تملكها الخوف .جمعت ملابسها الوردية اللون الطويلة داخل الجونلة أغلقت ديوان حافظ ، وسارت ..كان ينبغى أن ترحل .كان ينبغى أن تلجأس إلى ملابسها الصغيرة.

كان حافظ قد ألقى عباءة طويلة على كتفها وأخذت تترنم بالقرآن .كانت قد خلدت إلى النوم لفترة طويلة .أحست بحرارة عجيبة .كان أبوها قد وقف على رأسها ، وبدأ يذرف الدمع .وتبللت وجنتاه قال: «أحملها إلى الطبيب .حتى لا تضيع منى هذه المعصومة».

وارتدى بذلته الرمادية اللون وذهب الإثنان ، بينما كان فى طريق العودة ، أراد الأب أن ينزل من الأتوبيس قبلها ، ويسرع لعمله .فقال لها فى آخر الخط عندما ينزل كل الركاب ، تنزلين وتذهبين مباشرة إلى البيت : «من الأتوبيس الذى منه سترين مدرسة .من هناك ستعرفين أنت طريق البيت .خذ جانب مدرستك وسيرى على هذا النحوّ».

ونزل هو، وذهب . بقيت هى، ودنياها المخيفة هى، ودنياها المرعبة ..» بينما وضعت قدميها فى الشارع نفسه .اكتظ غيظها ،واضطربت . اضطرب ومهما نظرت حولها ، لم تر مدرستها .خافت وانخرطت فى البكاء.

من أى ناحية كان طريق البيت . أين كانت مدرستها .مهما تقدمت إلى الأمام ، كان كلاهما قد ابتعد . ابتلت علبة الدواء التى كانت فى يدها من العرق ، وكانت تحرق فى زصابعها .وكانت النار قد اندلعت فى عينيها الرقيقتين فهى تائهة وسط الشارع تبحث عن البيت تبحث عن المدرسة . انتهى الأمر بها إلى العثور على البيت .وكان الزمان قد قلب أوراقه فأصبحت عجوز .كانت قد ماتت .وبعد أن ماتت.وجدت البيت.

تجمعن كلهن فى الحجرة وضعت أدويتها فوق رف وبدأت تمشى فى الحجرة .ومع كل خطوة كانت ترفعها كانت تعود إلى شبابها .أكثر شبابا ، وأيضا..».

حسناً لقد نظرت فوجدت نفسها داخل غرفة الولادة ودقت ساعة الحائط تمام الثانية بعد منتصف الليل. والآن عادت ترى تساقط الجليد حيث كان يبدو لناظريها كالنور فكانت ترى كل شئ .كانت الطبيبة تقول لها باستمرار «عليك بالدعاء».

هى لم تكن تستطع نطق لفظ واحد ، ولم يكن الألم يسمح لها بالكلام . أخضرت العاملة ورقة صغيرة ، وأعطتها إياها كانت الورقة تشبه الذكرى .كانت متناهية فى الدقة .مالت الطبيبة عليها ، وأخذت الورقة منها لتقرأها لها« تحملى يا حبيبة قلبى ..عليك بالدعاء ..أنا بالخارج فى انتظارك.. زوجك حميد «حاولت أن تستحضر ملامح زوجها ، وتبتسم له.

أدخلت الطبيبة القفاز في يديها ،والمرأة تتوسل إليها، وتقول : لا ..ليس الآن.. انتظرت الطبيبة حتى يسكن الألم . بعد الكشف أصبحت متأكدة أكثر ، وكان ما تبقى هو كيف تبدأ ،ماذا تقول لها هل كان يمكن أن تتحمل شئ آخر بعد كل هذا الألم كانت تتوقع من أول الأمر أن هذا ما سوف يحدث . ومع كل هذا انتظرت ، وصبرت حتى تتحسن الحالة، والآن أصبحت لا حيلة لها إلا أن تتوجه إلى المرأة ، فنظرت إلى عينيها من بين خصلات شعرها المضطرب ، وكأنهما كانتا تعرفان كل شئ :«لقد أمرتهم بأن يجهزوا غرفة العمليات .لقد أقلقني صوت قلب الجنين .وهو طفلك الأول.. لا أستطيع الصبر أكثر من هذا».

فجأة أصبح قلب المرأة فارغا .وفاضت عيناها بالدموع شيئا فشيئاً ،وبهدوء تضاعفت قوة بصرها . وأحست أن الأرض قد هوت من تحتها.

ساعدتها الطبيبة حتى تتكئ في حالة بين الجلوس ، والنوم ، جاءت الممرضات ليحملنها ، ويعددنها للعملية .وكان ما تبقى هو ماذا تقول . كانت هناك حادثة غريبة في انتظارها . ربما كان كل شئ يتحرك في طريقه للنهاية رويدا رويدا .قالت الآن أذهب » ولم تتمكن من إنهاء جملتها.

التهم الزمن صمتاً مريراً ،ومؤلما ،واستمر هذا الصمت طوال الردهة ، هل كانت خائفة ..هل كانت تتألم ،فهي لم تكن تأن ، أو تصرخ وقع بصرها على زوجها بينما كانوا يذهبون بها نحو المصعد . تذكرت الورقة فتبسمت له. كم كان يبدو عليه الاضطراب ،وأصبح كالوردة الحمراء .. ياله من اضطراب.

كانت تحدق ببصرها على المصابيح الكثيرة المضيئة فوق رأسها كانت تنظر إلى الممرضات بملابسهن البيضاء ، ولم تكن تراهن ،كانت ينتابها إحساس عجيب .ومع أنها كانت منهكة إلا أنها كانت تتجلد ،وفجأة تغيرت تماما ، وأصبحت تجزع .الآن هي غير قلقة على نفسها ، ولا على وليدها .الآن أذهب .. ربما لا أعود مرة أخرى .ربما يكون هناك خلف هذا الحائط شخص ينتظرني ليحملني معه .. يجلسني على بساط الريح ، ويرحل بي من هذه الدنيا ..الآن أذهب فأنا لم أعد أتألم ..إنني بخير .. بخير ...لا يقلق على أحد فأنا سأرحل إلى مكان آمن مثلما فعلت مريم .. سأذهب لألد تحت سعف النخيل اليابسة في ممرات بستان الله... سأذهب الآن.

انقبض قلبها ،وفجأة تلاشت الأضواء الهائلة من أمام عينيها ، وتداخلت ألوانها ،وكان مصباحا ذا لون مختلف اقترب بضوء هائل منها غطى على الأضواء الأخرى.

انضمت شفتها .وكانت تتأهب لنطق كلمة .كانت كلمة الله . انفتحت الشفاه المغلقة ،

ودار فى فمها قوله: «الله يخركم من الظلمات إلى النور .. الله نور على نور..».

يا إلهى ماذا يحدث لماذا لم تخلصنى من هذا الألم: «وما الذى تعطله ..لماذا لا تنهى الأمر».ربطوا يديها فى زطراف السرير. وجاءت الطبيبة .فشدوا ستارة بينها ، وبين عينيها ستارة بينها وبين ما يجرى فى العملية .ستارة خضراء اللون. غليظة وخائفة .قد وجدها.

لم تكن طبيبة التخدير قد وصلت بعد. وكشفت الطبيبة عليها للمرة الأخيرة. كان الجنين قد تشبث بأمه ،ولم يرغب فى المجئ .احترق قلبها من أجل المرأة .احترق قلبها من أجل كل النساء.احترق قلبها من أجل نفسها .كانت امرأة قد تضاعف ألمها .فحياتها عبء عليها من ألم زوجها .عبء بسبب أبنائها، من أجلهم كلهم كانوا فى عذاب .البيت كله فى عذاب ،وكانت المرأة هى وحدها مصباح هذا البيت .كما كان عمزها طويلا .كانت تحترق لقرون .تحترق لقرون.

ذهبوا يبحثون عن طبيب التخدير بينما كان فى طريقه إليهم وفى النهاية وصل إليهم بينما كانت الحجرة تعج بالأصوات .وقف على رأس المرأة ،وأخذ يقوم بعمله ،وهو يتحدث معها .كان هو الرجل الوحيد داخل غرفة العمليات .كان رجلا شعره بنى اللون ،وملامحه ملتهبة من حرارة الشمس .كانت المرأة لا تزال تحدق بالغرفة ،وفجأة كأن النار قد أضرمت فيها ،رفعت جسدها من منطقة الخصر وطرقت به السرير . ودوى فى الحجرة صوت مرعب .نظرت الممرضات إليها بحيرة كانت المرأة تتحرك بشدة تحاول فك يديها كانت تحس أنها تنهار ، وتخرج كل ما بداخلها بكل ما يحويه ،لا ، لم تكن تريد أن تتلوث أمام كل هذه النظرات ،وتقول : «خلصونى .خلصونى » وعلى صراخها.

كانت أمها قد وضعت لها غلايا مملوءا بزهر نبات الثور (١) وليتها كانت تشرب منه بل ليتها شربته كله . ولكن كان ينبغى أولا أن تجد المدرسة أدنت شفتيها من الماء .وتحرك جانبى أنفها الملتهب .الماء لا يفضل بالنسبة لحالتك .زهرة لسان الثور هو وحده علاج لألك ..فكت يديها .وتناولت قليلا منه. أمها هى الأخرى كانت قد ولدت بزهرة لسان الثور.

لم تهبط حرارتها .وبكت :س لا أستطيع ..ارتكونى أخرج..

نظرت الطبيبة إليها نظرة سريعة «لماذا تخرجين ..أنت داخل غرفة العمليات»

صرخت المرأة صرخة يائسة ،وقالت :«أليس بغرفة العمليات حوض غسيل».

وكان هذا دليلا على أن الطبيبة كانت قد عجزت .فتجمدت لحظات فى مكانها حائرة .لم تكن الرأس قد أطلت بعد. يالها من حادثة عجيبة ،وفجأة أخذت تواصل عملها فلم تسمح

لها المرأة بالكشف .كانت تصرخ .وتضرب بيديها، ورجليها.

أوقفتها المرضات بصعوبة ، وسيطر الصمت على المكان كله الجميع كانوا ينتظرون ،وعيناها تحملقا فى فم الطبيبة .لم تكن تقاسيم الطبيبة توشى بشئ ،فكان حاجباها معقودين وعيناها بين الخوف ،والرجاء .«أوقف يديك».

الطفل آت.. أحدثت المرضات ضجة كان طبيب التخدير ينتظر ماذا يفعل . أسرعت المرضات فى فك يدى المرأة تبللت عينا طبيب التخدير ،وكأنه كاد يبكى شوقاً . أشارت إليه الطبيبة بأن يخرج من غرفة العمليات ،وكان طوال هذه الفترة قد رأى وجه المرأة فقط. وكان جبينه قد تبلل بقطرات العرق التى تحيط بقطعة القماش التى ربط بها رأسه .خرج من الغرفة وشدت المرضات الستارة الخضراء أمام عين المرأة ، وواصلت الطبيبة عملها قائلة: «تحرك بشدة .. اضغط على نفسك بكل قوتك ..» ،ولم يكن لدى المرأة حيلة أخرى . أحست أن شئ يسقط منها ،وشئ آخر يصعد إليها أحدهما يصعد، والآخر يهبط .قالت الطبيبة «لم يبق شئ.. تعرفين أى ليلة جميلة هذا الليلة إنها ليلة الثانى والعشرين من الشهر الحادى عشر». والمرأة قد أنهكها الألم. تقلصت فى نفسها وصرخت . وصرخت وصرخت صراخا دوى فى الغرفة.

أما الطبيبة التى كانت مشتاقة .كانت بين القلق، وعدمه .إنها كانت قد تعلمت أنه لا ينبغى أن تكون عجولة كان ينبغيس عليها أن تصبر صبر أيوب .كان ينبغى أن تسترخى على الأريكة فى ركن من الأركان وترتشف رشفة من الشاى. انشغلت بكل حالات الولادة العجيبة التى تتم كذلك كل واحدة حادثة لابد وأن تقع .نعم فسوف تضع كل واحدة وليداً وعلى كل حال فإن الأم سوف تتخلص مما تشعر به ..الطبيبة نفسها كانت أما .كانت قد وضعت وكانت تعرف أن هذا سوف يحدث /كانت ذات يدين خفيفتين ، وقويتين ، وعينين جادتين ، وحكيمتين تذكرت كيف استطعت المرأة التى كانت تتحرك بشدة أن تنام على سرير فى هذا المستشفى بمفردها ودون أن يكون معها أى رجل .جففت جبين المرأة بطرف الملحفة من قطرات العرق الكبيرة كم كانت تتحرك بشدة، وكانت تظهر قوية فى لحظة العجز ،وتقول :«حسناً ..حسنا جداً».

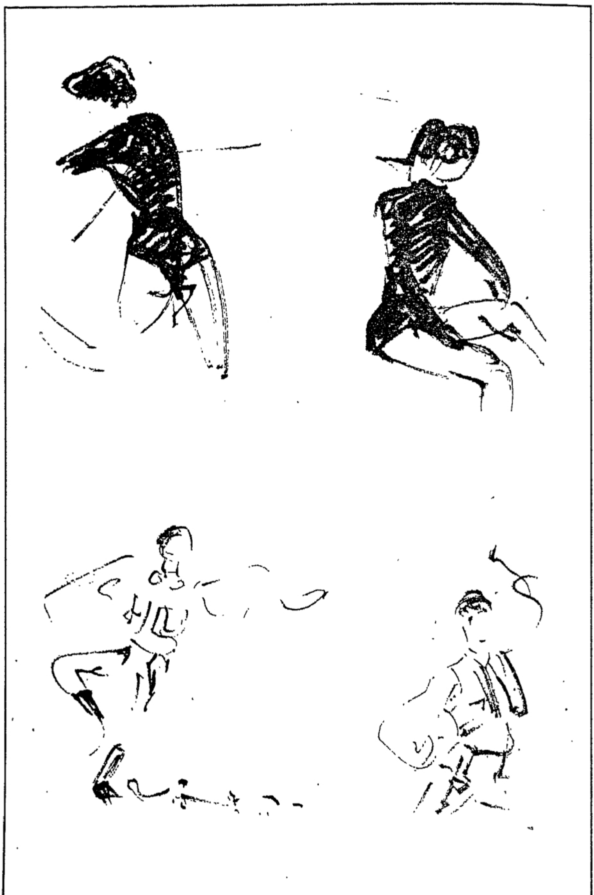
كان شعر الجنين يظهر شيئا فشيئا :«لا إله إنه لم يبق شئ..»خافت المرأة من هذا الخبر وقفزت من مكانها فجأة ،وتشبثت بملحفة الدم، وكان لديها وهم من الشخص الذى كان فى الطريق .كانت تريد اللجوء إلى مكان لا تخاف منه لأنها كانت تسير حتى تصبح أما، وتتحمل عبء شخص آخسر .كم كان للأمومة طعم جميل هل كان كل هذا الألم من

أجل موجود آخر فجأة تثاقلت المرأة. إنها كانت تتألم منذ عدة أيام، وحراراتها مرتفعة باستمرار ، ودائما كانت تبعد عن نفسها ،وتعثر على نفسها مرة أخرى كانت مقبلة على الوضع .كانت تريد أن تولد من جديد قبل أن تلد شخصا آخر. كانت الرغبة فى النوم ،والألم الشديد فى صراع شديد أقبل النوم وتوقف كل شئ ورجع الوليد الخلف رجع الخلف ،وتلوى من الألم فى ماء رحم أمه . صرخت الطبيبة فى المرأة خوفا :«أى جمال للنوم الآن يا ابنتى استيقظى قلت استيقظ وضربتها ضربة قوية فى وجهها بقفازها الملوث بالدماء ،فتناثر الدم حولها . أفاقت المرأة ،فتنفست الطبيبة الصعداء . الآن كان ينبغى أن تبدئين كل شئ من أوله ..أعرف أنك قد أرهقت ..إنه الأمر ثم نام.

بكت المرأة وضربت بقبضتها المنعقدتين أطراف السرير وبكت : «لا أستطيع ..لم أعد أستطيع .. فأضافوا حقنتين ضغط إلى زجاجة الجلوكوز الموصلة بيدها . صاحت الطبيبة فيها: لا يجدى أى شئ .ينبغى عليك أن تساعدين نفسك».

صرخت المرأة .كان هناك شئ يزحف من داخلها فى طريقه للخروج ،وكأن شخصا يرفع معها حملها ،ويواصل سيره . تشبثت بيديها فى طرفى السرير وأفرغت كل قوتها لكى تتخلص .ألم ..ألم .. ألم .تمزقت عيناها من الألم ، وبرز فى جبينها عرق أزرق. وكأن يداً كانت قد أمسكت بقبضة رئتها . وأخذت تضغط عليها فتورم وجهها ،وانحرف فمها .كأن الجنين قد أوشك على الخروج ،وكأن يدا كانت توجهه فأدارته قليلا لدرجة قليلا لدرجة أن الجنين استطاع أن يسحب كتفه للخلف ،واستعد للخروج برأسه . وبينما كان يخرج كانت عظام جمجمته الرقيقة تتداخل فى بعضها البعض. وحينئذ كانت تقوى .وكانت الرأس تصبح أكثر صغرا ويمكنها الخروج بسهولة .وبعد الخروج تعود العظام بسرعة فائقة فى تخليص بعضها من جديد، وكأنها زهرة فى لحظة تفتحها، ولا يرى أحد قط كيف تتفتح .وبعدها تعود الرأس كما كانت إلى حجمها المعتاد.

فى النهاية خرجت الرأس. زاغ إنسان عين المرأة تحت جفونها تماما. كانت كل عقد قد انفرطت، الواحدة تلو الأخرى ، إلا عقدة واحدة، عقدة عمياء ، العقدة التى لو انفرطت لأخذت معها الخيط الذى يربط حياة الإنسان بالدنيا .وهى تتألم .لم تكن تعرف بعد .وكانت تعتقد أنها ستموت لا محالة. وكانت تتوسل بأى واحدة تمر من جانب سريرها :«خلصونى خلصونى» .كانت الطبيبة منشغلة فى عملها ،ولم تكن ترمش بعينها .بينما كانت تمسك بالطفل .كانت إحدى الممرضات تجفف عرق جبينها ،وتقول :«أخيرا جئت ..هل كانت لديك حيلة أخرى».



ضحكت الممرضة وقالت : «ياله من ديك فى وزنه .قتل أمه المسكينة لكى يأتى».

تخلصت الأم المتعبة .وتركت ذيل قميصخها المغزول الطويل الذى كان لايزال بين قبضتها وكان وجهها يتلألأ فى ماء قطرات العرق .أخذت نفساً من أعماق قلبها. كان طعم زهرة لسان الثور الذى كانت أمها قد أعطتها إياه لا يزال فى فمها .كان ينبغى أن تغسل كل الدماء .كماكان ينبغى أن تغتسل وأن تتطهر ،وتنظف الأم التى كانت قد وضعت للتو.

قلبت الطبيبة الوليد وأخذت تربط سرته . ثم اتجهت للممرضات وقالت: «صدقن إنه لم يمر على طوال حياتى أى مولود يستغرق هذه الفترة ويكون عاقلا أثناء وضعه ، ويعرف ما ينبغى أن يفعل غير العاقل..»

.ثم تترك الوليد للممرضات .وتعمد هى بيدها على بطن وتضغت عليها. فتحت المرأة عينيها وكانت لا تزال تعيش .وكان الجليد لا يزال يتساقط .كانت عين الطبيبة تبرق .وكانت الممرضات يتحدثن معا بينما كن يجمعن البساط الذى أجريت فوقه العملية .وكانت المصابيح الرضافية فوق رأسها مطفأة جميعا .وكان صوت بكاء الوليد يملأ الحجرة .التفتت نحو الصوت . وعندما رأت الطفل ضحكت .. ضحكت من أعماق قلبها . ولكن لم يكن قد مر من الوقت كثيرا حتى تنسى آلامها.

علاج الألم

كان صبرى قد نفد ، ولم أكن أعرف ماذا بوسعى أن أفعل؟. فمهما كنت أكرر لهم ، وأقول لهم مالكم ، وهذا النوع من الكتابة كما لم يكن يجدى ، أو يفيد .وكأنى لم أكن أعلمهن الإنشاء من الأصل ولم أكن أرغب فى أن يكتبوا شيئا عن الحرب ، وكانت لدى الأسباب!.

ولم يكن يظهر واحد يقول لهم : ما هذا ! ما لكم ، وهذا النوع من موضوعات الإنشاء».

لم تكن نصائحى تجدى معهم . وياله من ألم على كل تلك الجهود التى بذلتها .والعجيب أننى لم أعثر بين طيات الكتب على علاج لهذا الألم . ألم يكن الأمر متفقا مع ما كنت أريده بسبب تلك الأشياء التى كنت قد تعلمتها بين طيات الكتب؟.

لم تكن الأمور على هذا النحو عندما بدأت عملى فى السنة الأولى .حيث كنت أحدد الموضوع عن فترة الصيف التى أمضيتموها.

أو لو أرتم تحدثوا عن أمانيكم عندما تكبرون . فكانوا يذهبوا يكتبون أولا يكتبون ، ويعرضون القضية بعدة أساليب . ويحصل كل واحد على الدرجة التى يستحقها .وبالطبع

كنت أقدم لهم ملحوظاتى ، وإلا لما أمكن أن تطلق كلمة إنشاء على ما كانوا يكتبون . فكانوا يكتبون أشياء لو أن دجاجة مطبوخة سمعتها لغلبها الضحك . ولكن على كل حال إننى لم أكن أحب أن يخرج التلاميذ عن عالمهم.

ولكن عندما بدأت الحرب . لم يكن بوسعى اختيار موضوع الإنشاء ! وهذا لا يعنى أننى لا أستطيع تكليفهم بالموضوع الذى أفضله ،ومع ذلك قد توصلت إلى نتيجة مفادها أن يلزمنى الإصرار على هذا الأمر ،مع أنه من الأفضل أن يتمسك التلاميذ برأيهم . وأن يكتبوا ما يحبون كتابته فكانوا يربطون كل موضوع بالحرب ،والقصف ، وأمور من هذا القبيل كنت أقول لهم اذهبوا ،والعبوا بأظرف الطلقات الفارغة التى جمعتموها بالقدرذى تريدون . ولا تقدموا لى هذا القدر من الموضوعات تلو الموضوعات عن الحرب فليس هذا الفصل هو مساحة الحرب. ولكن هل كان لهذا الكلام فائدة؟ إن كل ما كنت أذكره لهم لم يأخذه واحد منهم قط مأخذ التأمل ،حتى توصلت لقرارى فى يوم من الأيام.

عندما دخلت الفصل فى ذلك اليوم، ذهبت مباشرة نحو السبورة . وكتبت عنوان موضوع الإنشاء الذى أريده ،وهو :«صفوا المدرسة والفصل الذى تتعلمون فيه» ولكى أتأكد من أن التلاميذ سوف ينفذون كلامى هذه المرة ، صفيت صدرى ، وقلت : «هذا هو موضوع الإنشاء فى الأسبوع القادم ،. ولا يحث لأحدكم أن يكتب شيئا خلاف هذا الموضوع . وليكن فى معلومكم أن درجة هذا الموضوع سوف توضع فى أعمال الثلث الأول من السنة. على هذا أنصتوا جيدا لما أقول . وليكن فى معلومكم أنه من الضرورى أن تكتبوا عن المدرسة ،والفصل ، وليس عن شئ آخر».

وعندما أنهيت كلامى انتاب جسدى دفء عجيب . تحركت نحو شرفة الفصل ، وتمنيت من قلبى أن لو كانت ملاحظاتى ،وتوجيهاتى مؤثرة.

وفى النهاية مرت الأيام ،وجاء اليوم الذى كنت أنتظره ، ودخلت الفصل فى وقار، وتؤده وقبل أى شئ فتحت النوافذ ، وعدت إلى وسط الفصل . ونظرت إلى عين كل واحد منهم بسرعة ثم بدأت : «حسنا يا أبنائى! عن أى شئ كان موضوع الإنشاء؟ وهذا لا يعنى أنى كنت أسأل لأننى كنت قد نسيت كل شئ . ولكن كنت أذكر كل شئ ، وإنما كان ينبغى أن أتصرف معهم بهذا الشكل لكى أجذب انتباههم .فمن الذى كان قد قال إننى لا أستطيع السيطرة على عدة تلاميذ ؟علت همهمة التلاميذ فى أرجاء الفصل فرفرف قلبى من السعادة لأن هذه الهمهمة كانت تدل على أنهم كانوا يفكرون فى الموضوع ،وعندما كان

ينبغي على أن أختار الشخص الذى كنت أعرف أنه أكثر جرأة لقراءة موضوع الإنشاء لم يكن الأمر يحتاج إلى مزيد من التفكير كنت قد عرفت قاسمى نجاد(٣) جيدا .كان من خرمشهر(٤) وكان يعيش مع أبيه وأمه فى مدينتنا «الأهواز» كان يستطيع التعبير عن مشاعره، وأحاسيسه أكثر من غيره داخل الفصل .وكان يقرأ موضوعه بالإحساس الذى تفر به وأى موضوع كان! كاأن كان قد عاد من الجبهة مؤخراً .

فكانت لديه القدرة عن الحديث عن الحرب بحرارة. حينئذ كان الدم يتدفق فى وجه الأسود اللون . ليس هذا ، وحسب ولكى يبدو لكل سئ طبيعى فتحت دفتر أسماء الفصل .وناديت اسمه بين الأسماء الكثيرة.

–مرتضى قاسمى نجاد! .

–وسمعت صوته فى ضوضاء التلاميذ يقول:

–حاضر.

تعجبت قليلا . وقلت بعصبية : «أنا لا أنادى الغياب .والحضور يا ابنى ! قف وتعال لنقرأ موضوعك».

فخرج بجثته النحيفة من المقعد وجاء ناحيتى يحمل فى يده ورقات وعندما وصل إلى . وَسوست إلى نفسى بأن أخذ منه الورق الذى فى يده . ألق نظرة فاحصة عليه كم كنت مشتاقا للإطلاع على ما كتب .فأنتابنى إحساس مجهول بألا أطمئن إليه فنظرت نظره مفعمة باليأس فى عينيه الجاحظتين ، وقلت:

–أليس لديك دفتر للإنشاء.

–فأحنى رأسه قليلا .وكان قد وقف متردداً ، وتحدث بصوت منخفض .وكأنه عصفور صغير قد زصيب بنزلة برد:

–سامحنى .. سامحنى لأننى .ولكن سيدي..

–حسنا أبدا..

–بدأ فى قراءة موضوعه ، وهو متردد قليلا بعض الشئ .قرأ موضوع الإنشاء ، ومكث قليلا . ثم واصل بعد ذلك :تتكون مدرستى التى أتعلم فيها من عشرة فصول . أجمع أنا وزملائى فى واحد من هذه الفصول العشرة يوجد بفصلنا نافذتان .أنا .وزملائى ٤٧ تلميذاً. عندما يدخل معلمنا الفصل يذهب نحو النافذة قبل كل شئ..

كنت قد سعدت كثيرا ، وكدت أن أقرض شفتى من الشوق وحينئذ كانت قد وقعت

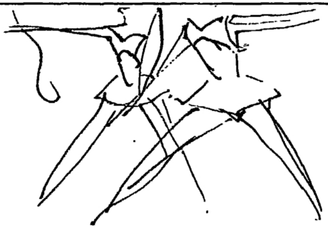
حادثة مروعة ،حيث سمع صوت مهيب ،وكأن السماء قد انطبقت على الأرض ! ولم تكن صرختي وصرخة تلامذتي قد جاوزت أنصاف حلاقيمنا حتى وقع السقف على رؤوسنا ،وحبسنا تحت أكوام من التراب ، والحجاز ،والخرسانة ،وفي هذه اللحظات بدا لي كل شئ على حقيقته فكل النظرات الحزينة التي كانت في عيني قاسمي نجاد الجاحظتين صرخت من الوحشة . وبعد لحظات أحسست أن يدى قد قيدت ، وانعقدت مثل الإسدال النسائي . تحركت بشدة حتى أحرك جسدي . ولكني عملت هذا العمل بلا جدوى لأول مرة . وكان الاختناق يواصل تأثيره . وشيئا فشيئا تفد صبري ،وقد كان مكتوبا : «ليتني كنت أستطيع أن أذهب إلى الحرب مع أخي المقاتل رضا أن أجمع أظرف الطلقات الفارغة من حواري الشوارع ، وأصنع منها إطارا لصورة مستديرة.

وذهبيا لمعلمي في مادة الأنشطة..

وقد أحدث تكرار هذه الجملة مرات ثورة في ذهني .كأن شخصا ما مجهولا قد أضرم النار بداخلي بمشعل .كنت أحس أنه لابد أن زصرخ ، وأخرج نفسي مرة واحدة من تحت الأنقاض .فأزيح التراب بيدي اليابستين . وأشرح الحرب لأعزائي واحدا واحدا .حينئذ تمنيت لو أني أنادي على قاسمي نجاد ،ولو لم يغمرني إحساس بالخجل لقلت له على استحياء ، وخجل : «يا عزيزي : من الآن ، وصاعدا اكتب ما شئت عن الحرب ! ملأ دفترك بالخواطر.. إن العدو يخاف من خواطرك الخالدة في دفتر ذهنك .. اكتب يا قاسمي نجاد .اكتبوا يا أطفال الفصل.

لقد ذهب رضا بالأمس إلى الجبهة .. واحترق دفتر مجيد اليوم تحت القذف .. وسيصل ظهر اليوم قطار مزدحم بالمقاتلين .«لا أنه من المؤسف أنني أحسست بانتهاء حياتي .فقد بدأ صراخ ، ونواح الأطفال يضعف ، وأصبح مبهما، ومختنق ،وكان ذهني تقرضه قطعان من النمل السمج . إنهم كانوا أبنائي أبناء فصلي العزيز! تمنيت من الله أن لو أموت أنا، وهم يعيشون . لا أعلن كم مر من تلك اللحظات المتأزمة حتى أفقت!.

كان أهالي المدينة قد أخروني من تحت الأنقاض ،وكانت نظراتهم تحكي وقائع حادثة مروعة قد وقعت .ألقيت بنظرة يائسة ، ومتعبة ، ومتلهفة حولي ،وكان أول شئ وقع عليه بصري. هو جثة قاسمي نجاد الغارقة في التراب ،والدماء ،وكان قد أغلق عينيه الجاحظتين في هدوء وكان الدم يحيط بشفته السفلى المغلقة. وكان يحمله مدير المدرسة ، وأنا أتألم فجاء إلي، وهو يبكي ، وجعلني أرى قاسمي نجاد حيث كانوا قد غطوه بقطعة القماش ..





نظرت أولاإلى عينيه الحزينتين ثم أدخلت يدى من تحت الغطاء حتى أوصلتها إلى يديه، وكنت أتوقع أن تكون الورقة التى كان يصف فيها الفصل لا تزال فى يده كى أخرجها من بين يديه ، وألق نظرة باستحياء على موضوعه ثم أمزقها قربا قربا ، وأنا أتجرع الألم . ولكن كل ما علمته هو أن يديه لم تكن فى كتفيه النحيلتين ـحتى إن قلبى كان يتحطم من الألم والحزن.

---

(١) الروضة هى أسلوب من أساليب الرثاء الخاص بالشيعة ، ولأن الشيعة يقرأون فى مراسم العزاء كتابا يسمى بالروضة فإن العزاء قد أطلق عليه .(قراءة الروضة).

(٢) تشير إلى السيدة مريم ابنة عمران التى قال القرآن عنها(فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فجأها المخاض إلى جزع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسياً).

(*) عشب طيب الرائحة ومقيد تبه أوراقه لسان الثور فى الشكل وهو يستخدم فى علاج السعال.

(٣) اسم علم ويكتب بالفارشية«نزاد» حيث تنظيف الزاى المثلثة كما ينظف صوت الجيم المعطشة فى العربية الفصحى.

(٤) اسم مدينة فى إيران.

خمس قصائد لمىّ

وليد الخشاب

شعر بالبطاريات
يضحك البنات،
لو كانت قصائدى تجلب ابتسامتك
لكتبت على النحاس والمكانس الكهربية
والصابون ونتيجة الحائط وفواتير
النور.

* * *

ساركز على أوراق النتيجة
وأنزعها برفق
ورقة لكل يوم
تتوالى بسرعة
تصاحبها موسيقى متوترة
وتستدير الصورة حتى تنغلق
كسرة إله من الخزف.

* * *

لوجهك الجدارية المديترانية المتوسطة.
اعقصى شعرك بتلك التوكة البلاستيكية
التى تشبه فكاً من تايوان
ليبدوَ جانبك الإغريقى
مثل قصائد الغرام الكلبية
وحداثة البولى سانتيتيك
والخلايا الإلكترونية.

* * *

أحبك
وأنا بالمقهى
منتظراً
أن ينشق الطريق السريع
عن صحراء شعرية
وهودج يحملك
فى دمقسك وأثوابك الأذربية
بينما أنا ابتسم لك
فى الصحراء المظلمة
بين صبارات المتفرجين
المتوحدين

* * *

الذى لما رآك
استدارت زوايا حجرته
كمحيط أجسام خرجت لتوها
من الشعر القديم

اختصر الحب
وأولج اللحم فى اللحم
ليتبدل الوهج تقززاً
ولتنتقم من كل الأحاسيس الجميلة

التى تشغل حيزاً غير مستقل
فى هذا العالم المكتوم.

الذى لما تذكرك
تحدبت كل زواياه
وتصلب أوسط لحمه
لأن كل شئ يذوى
حتى الجنس
أما صور الذاكرة
فخالدة مثل الطاقة
التى بعينيها
كست الكلمات لحماً
بين خفقة رمش وانبساطة
مثل ربة بابلية
بيسراها البرج
وبيمناها لبن عشتار

أنا
أبحث
بالكلمات
عما حدثنى به جلدى
لما مر عطرك قادماً من ماض تصنعه
أحاسيس لم تسمها بعد.

شعب كامل من البلاستيك
هب وأبى.
حضارة بأسرها من الفول
تسبح بتحاميد مجدك

لو كان الشعر رجلاً لقتلته

أما الحب فهيهات
كيف تشطب تاريخ السينما المصرية
برصاصة؟

لذلك وغيره
بشعوبى البلاستيكية
وحضاراتى
وتواريخى الوهمية
بجوانحى وملابسى وأعواد الثقاب فى
لحيتى
ومصاصات الأولاد والبلاستر وماريا
كالاس
أحلف
بعروبتى
أنى أحبك.

أنت الوطن الوحيد الممكن لمخلوق مثلى
أكتب لك الولاء والتاريخ
وأقرأ كتبك التى تصقل أخلاقى بالشمع
الملون
كأنها أحاديث الآلهة

أخون بلادى وجيشى
ولا أتأخر عن موعدنا
فى حفل السادسة

لاتفتحى الشباك
بين الرابعة والسابعة
لأن طلبة الكلية الحربية
قد نصبوا خيامهم البرتقالية



يا اسكندرية بحرك عجايب

- معنى هذه المدينة : مجدى توفيق
- المكتبة الأمس وغداً : فتحى سيد فرج
- أسطورة الأخوين وانلى : عصمت داوستاشى
- سيف وانلى يرسم حياة فان جوخ : ع . د
- اسكندرية نجيب محفوظ : عبد الله هاشم.
- اسكندرية : أحمد فؤاد نجم
- فى وضح النهار : قصة لقسطنطين كفافى
- الاسكندرانى التائه : محمد الباز



معنى هذه المدينة

مجدى أحمد توفيق

ياه .. سنوات بعيدة مضت فى يسر غريب منذ ذهبت مع والدى وابنة أختى ، فى السبعينيات، فى رحلة صيفية إلى الإسكندرية . يومها كانت الإسكندرية عندى مصيفاً أسمع عنه ولم أره بعد. كانت فى ذهنى عالماً غامضاً من السحر . كنت قد إعتدت أن اصطاف مع أبى سنوات متتاليات فى الإسماعيلية حيث كان أخى الأكبر يعمل فى مطار عسكرى . ولكن الإسكندرية كانت تبدو لى عالماً مختلفاً، لأنها المكان الذى أجمع الناس على وصفه بالمصيف . ما أروع الشاطئ العريض حين يكون قليل الازدحام ، لم يسرق النحر شيئاً من بساطته ، وألفته ، ورقيه . وما أروع الأمواج اللاعبة حين تخلو من لسعات قناديل البحر !.

لا أعرف كيف استجبنا لصديق والدى حين جرنا جراً إلى أن ندخل كازينو مفتوحاً . أدهشنى أن أجد نفسى فى كباريه لايكاد يختلف فى شئ عن الكباريهات التى كنت أراها فى الأفلام العربية يسكر فيها البطل الحزين حين تعرض عنه حبيبته ، ويدبر فيه استيفان روستى ، أو توفيق الدقن ، أو محمود المليجئ ، المكائد لأنور وجدى ، أو فريد شوقى ، أو رشدى أباظة . ولكن الكازينو كان مفتوحاً للسابلة لأن ليلة كانت مخصصة لفرح سكندرى جميل ، فيه من يرقص بثياب الصيادين واضعاً الكرسى على أنفه ، وفيه راقصة سمينة ، ومطرب مجهول . كأنى دخلت فيلماً.

هؤلاء العمال البسطاء الذين ضمتهم الرحلة من المصنع الذى كان أبى يعمل به كانوا يبدون سعداء كالمليونيرات الذين ينفقون عن سعة . كان المصيف بسيطاً يتسع للناس جميعاً قبل أن يصبح عبئاً على أى

أسرة محدودة الدخل تنوء بحمل مصاريف المدارس ، قبل أن تقع فى أيدى فرق ممن يحلبون جيوب المصطافين ، يؤجرون لهم شماسى ومقاعد ، أو يعدون شاياً أو قهوة أو شيشة أو يبيعون ثياباً صيفية خفيفة – تهلك عادة قبل نهاية الصيف – فى مباريات من المساومات الشاقة لاتخلو أحياناً من متعة ، يسعون فيها إلى إيهام الضحية بأنه بطل منتصر لايشق له غبار.

لم يكن بينى وبين الإسكندرية وسيط حتى قرأت إسكندرية نجيب محفوظ فى " ميرامار " و" الشحاذ " هى مدينة أخرى . ليست المصيف الذى أراده إحسان عبد القدوس فى " البنات والصيف " . وسرعان ماتكاثر على الوسطاء. وسرعان ماتلاشى المصيف . تلاشى لأنه تغير ولم يعد كما كان . وتلاشى لأنه لم يعد يهمنى . وتلاشى لأن الإسكندرية الأخرى قد بدأت تبرز لى من ثنايا قصص محمد حافظ رجب. إسكندرية من شوارع مزدحمة بالباعة الجائلين ، والحيوية الرائعة ، والآلام المكظومة . وسرعان مامنحنى إدوار الخراط اسكندرية عبر نصوصه . وقرأت طويلاً عن رباعية داريل ، وشعر كفافى ، قبل أن تحيط بى سلسلة طويلة من الوسطاء الذين يتحلقون حول الاسكندرية : عبد الفتاح رزق ، محمد جبريل ، سعيد سالم ، مصطفى نصر ، أحمد حميدة ، عبد الفتاح مرسى ، ابراهيم عبد المجيد ، شريف حتاته ، خالد السروجى ، وآخرين لا أحصيهم . ولم يكن الوسطاء أدباء فحسب فلقد أصر أسامة أنور عكاشة أن يكون من الوسطاء . وأصر يوسف شاهين على أن يمدنى باسكندرية ، وتداخلت صور من الدراما التليفزيونية والسينمائية بصور من شارع غربال ، والنبى دانيال ، والمكس ، والمنشية ، من صعايدة وموظفين وصيادين ، من حياة متنوعة مثيرة لاأحد فيها ينام كما يقول إبراهيم عبد المجيد . وانزوى فى ركن بعيد من الوعى صورة الإسكندرية التى رسمها أستاذ التاريخ يتحدث بحماسة رائعة، عن مدينة كالقلعة يكيد لها مالطى ، ويدكها الأسطول الإنجليزى بعنف ، ويقف خلف أسوارها أحمد عرابى ومحمد كريم مناضلين.

سنوات طويلة تربو على عقد من الزمان استسلمت فيها للوسطاء . لم يقطعها إلا شاب سكندرى شاركنا خيمة واحدة ، فى معسكر ، فى مكان قريب من القنطرة غرب ، لأيام قليلة ، قبل أن تنزعه منا " واسطة جامدة " . كان خفيف الدم فيه فهلوة ، وثأثأة حلوة . لا أنساه فى لحظة شجن يعرفها الجنود جيدا ، ظل يصف لنا طريق الكورنيش ، وهو يمشى مع فتاة حلوة كالقمر ، ويحس سعادة تسع الدنيا كلها ، ملأتنا شجناً ، حتى قطع سرده بنكته فجرت ضحكاتنا للأسف ، لا أستطيع روايتها الآن.

سنوات من الوسطاء جعلت الاسكندرية عندى حبيبة مشوقة أحبها عن بعد ولا أراها أبداً .

أخيراً قرر الأديب الروائى – والفنان التشكيلى – الأستاذ أمين ريان أن نسافر معاً إلى الاسكندرية – كنا نريد أن نقرأ شيئاً – لعله كتاب لهيدجر فيما أذكر – وكنا أيامها معتادين على أن نقرأ معاً كتباً مختارة ، وننخرط فى مناقشات طويلة لها ، فقرة فقرة . ومثلما بدأت بنسيون ميرامار ، نزلنا فى بنسيون قرب محطة مصر ، وكان الكورنيش ومقاهيه مجالسنا للقراءة . لم نسع طبعا للتجول فى أحياء الإسكندرية ، ولم نلق أحداً .

من أدبائها ، وظللنا مستغرقين في عملنا الجاد ، ولكن سحر المدينة كان يملأنا . كانت الإسكندرية تجديداً للروح ، وتحرراً من القاهرة.

مع النصف الثاني من التسعينيات بدأت أزور الإسكندرية من خلال المؤتمرات والندوات . بدأت أزورها مباشرة بغير وسطاء . ولكني أزورها لأجلهم . أعني أني أزورها لمناقشة قصاصي الإسكندرية. وعرفت قصر التذوق في سيدى جابر ، والأتيليه بشبابه الرائعين ، يشرف عليهم الدكتور رفيق باخلاص وأبوة وشجاعة . وعرفت أخيراً قصر الإبداع ببنائه الفخم ، وبتلك القاعة الصغيرة المدهشة التي تعرض رسوماً لأعمال معمارية – أو لأحلام معمارية – لشباب يحلمون بأن تكون الإسكندرية ، في كل ركن من أركانها ، جنة للإبداع والفتنة . وعرفت في الأمكنة المختلفة أجيالاً متنوعة من الكتاب المجيدين يستخدمون أشكالاً متنوعة من الكتابة المفعمة بالحيوية والصدق.

وأصبح لى في الإسكندرية صحبة كبيرة من الأصدقاء الأعزاء ، منهم القاص السيد نجم الذي شاركني بداياتي ، والذي يقيم بالإسكندرية منذ سنوات لدواعي العمل بها – وها أنا ذا في آخر زيارة لى لمدينة أمشي مع الناقد العزيز شوقي بدر ، ويشير لى ولأحمد أبو العلا – الصديق العزيز الذي رافقني الرحلة – إلى البيت الذي جرت فيه أحداث ميرامار لنجيب محفوظ ، فنلتقي في لحظة خاطفة البدايات البعيدة مع الحاضر الحي . ومضينا في جولتنا إلى كوم الدكة نتنسم عطر التاريخ الذي عاشه سيد درويش ليلتقي صور التاريخ مع الحاضر ، كما التقت معه صور الأدب.

من نافذة في الدور السابع لفندق من فنادق الكورنيش ، رأيت البحر العريض المهول بغير شاطئ واحد يمكن أن أحدق في رماله . وتذكرت الشواطئ الواسعة البديعة لمرسى مطروح ، حيث اعتدت أن أقيم كل صيف . وأدركت أن الإسكندرية المصيف لم يعد لها وجود في ذهني ، أو في عيني . وتذكرت اليوم الذي قضيته منذ سنة مع السيد نجم في زيارتي لناشر كتبي الذي اخترته سكندرياً كذلك .

في هذا اليوم من أيام الصيف لم أفكر لحظة واحدة في أن أرى شاطئاً ، أو مصطافين . ولم أشعر للحظة واحدة أنني في المصيف الشهير الذي يشكو أهله من ازدحامه صيفاً ومن غربتهم فيه أثناء الشهور الحارة – وفي اليوم التالي ركبت الأتوبيس متجهاً إلى مرسى مطروح – لقد أصبح المصيف آخر شئ يمكن أن يخطر على بالي حين تذكر كلمة الإسكندرية ، مع أني قد عرفت المدينة بداية بوصفها مصيفاً.

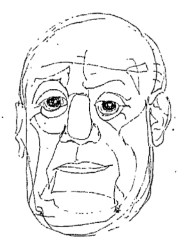
لقد أصبح اسم الإسكندرية عندي – وقبل أن تكتمل مكتبة الإسكندرية الحديثة – قرين كلمة لإبداع ، لا لأني فحسب أزورها لأقرأ نصوص أدبائها ، وإنما لأني قد رأيت المدينة في العهد الطويل الذي تولى فيها منصب المحافظ الجوسقي ، ورأيتها ، بانتظام ، في العهد الحالي الذي يترأس فيه المحافظة اللواء عبد السلام محجوب ، ورأيت خلال هذا كله المدينة تتحول في جد ومثابرة إلى مدينة للإبداع الجميل ، يمكن أن تصير في سنوات قليلة متحفاً مفتوحاً ضخماً لايأتي أحد على آخره.



شمس المدينة ، هواؤها ، بحرها ، إبداعات الطبيعة فيها ، قبل أن يبدع أدباؤها نصوصهم ، وقبل أن يبدع أهلها وإداريوها الظواهر المستحدثة فى شوارعها وميادينها.

كانت رسالتى للدكتوراه تدرس جماعة الديوان : عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعبد الرحمن شكرى . وكان شكرى بعد أزمته مع المازنى قد اعتزل الحياة الأدبية ، ولكن الإسكندرية ردت إليه حيوية الأدب والإبداع ، ففيها وجد مجتمعاً أدبياً مختلفاً ، وصارت له ندوة أدبية مثمرة فى حديقة الشلالات . ولاتزال حديقة الشلالات لاتناسب هذا المعنى الجديد الذى أثق أن شكرياً . قد أحس به إحساساً قوياً ، أعنى إمكان أن نبدع الحياة من جديد ، وهو معنى الإسكندرية عندى . وأرجو أن توفق الإسكندرية إلى أن تبدع حديقة الشلالات إبداعاً يناسب هذا المعنى العميق الذى أراه فى صفحة مهمة من صفحات تاريخنا الأدبى ، ومن حياة شاعر كبير عصف به الخلاف الجارح ، فأصاب نفسه المرهفة الرقيقة ، حتى احتضنته مدينة الجمال والإبداع.

ويبدو أنى قد أردت أن أؤكد لنفسى هذا المعنى لمدينة الإسكندرية عندى حين قررت أن يضم كتابى الأخير : " الأدب والحياة " - الذى صدر بالإسكندرية منذ شهرين - فصلين عن قصاصين سكندريين . أردت أن أؤكد أن الإسكندرية تعنى عندى أننا نستطيع أن نبدع حياتنا من جديد على نحو أفضل.



المكتبة الأمس وغداً

فتحى سيد فرج

الاسكندرية ، تلك المدينة العريقة التى تنبض بالتاريخ ، مدينة الأحلام والأساطير ، إنها حقا كما يقول فورستر المدينة غير المدفونة لأنه لاسبيل إلى نسيان الماضى ونحن فيها ،وكما يسميها داريل عاصمة الذكريات، ظلت عاصمة للدولة البطلمية المستقلة فى مصر على مدى ثلاثمائة سنة كانت خلالها قاعدة للحضارة الهلينية ،والمركز الثقافى لعالم البحر المتوسط المزدهر حضاريا حيث حفظت التراث المعرفى السابق على وجودها ووسعت من نطاق هذه المعرفة إلى درجة لم يعرفها العالم القديم، وبلغت أوج عظمتها فى المائة سنة الأولى من تاريخها ، أمر بتشييدها الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م ،وعمل على تنفيذها ملوك البطالمة الثلاثة الأوائل: بطليموس الأول(الذى حكم من ٣٠٤ إلى ٢٨٢ ق.م) وبطليموس الثانى فلادلفوس (الذى حكم من ٢٨٢ إلى ٢٤٦ ق.م) وبطليموس الثالث يورجيتيس (الذى حكم من ٢٤٦ إلى ٢٢١ ق.م) كانت أكبر مدينة عرفها العالم بعد قرن من تأسيسها ،تحفة معمارية بشوارعها المبلطة وميادينها المخططة ومبانيها الحجرية الجميلة التى مثلت القصور نحو ثلثها ،كان بها استاد ضخم ومسرح مدرج وحدائق عامة ومسلتان وبوابات فخمة ومعابد مهيبة ومتحف عظيم وحلبة للسباق ، تزدان بمعالمها العظيمة ، المنارة ، ودار الحكمة ، والقصور الملكية ، والتى يشع الضوء الناصع منها حيث يكسوها المرمر الأبيض.

المنارة أعظم إنجاز علمى للعقل السكندرى والتى كانت انتاجاً واضحاً للدراسات الرياضية التى كانت

تجرى فى الموسيون ، والتى اعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع ، ومصدر إشعاع ينشر النور والضياء فى ظلمات البحار يهتدى به الملاحون على متن السفن ويرشدهم إلى بر الأمان . ودار الحكمة التى كانت المركز العلمى والثقافى الذى ترك أثرا لا يمحى على الفكر الإنسانى ، كانت أيضا مصدر إشعاع لنور العلم الذى ساهم فى تقدم الإنسانية.

فى هذه المدينة ازدهرت الحياة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، فيها تم أول ترجمة للعهد القديم إلى اليونانية ، وفيها تم تجميع أدق نسخ الأدب الكلاسيكى ،كما تم جمع المعلومات التى كانت أساسا لواحدة من أقدم الخرائط فى العالم ، فيها تم وضع الهندسة على شكل نظريات ،ومنها خرج أول افتراض بأن الأرض تدور حول الشمس ،كما توصل باحثوها إلى معرفة دقيقة بتشريح الدماغ والقلب والعين ،وكما يقول د. عادل أبو زهرة« كان من أهم أسباب هذا الازدهار تنوع تركيبتها السكانية» ، وترجع أصول هذه التركيبة إلى ما يزيد على عشر قوميات مختلفة، عملوا بجد وتنافسوا وتعاونوا من أجل حياة أفضل وأسعد ،ومن خلال إدارة جادة وحازمة ودقيقة لموارد المدينة وشئونها ، إدارة كان لديها خيال وإيمان بدون تميز أو تعصب لأى قومية من هذه القوميات.

خلال هذه الفترة التى يعتبرها الكثيرون من أعظم فترات الحضارة ، اكتشف علماء الإسكندرية طبيعة الكون وتوصلوا إلى فهم الكثير من أسرار القوى الطبيعية ، وتقدمت المعرفة فى مجالات الجغرافيا والفلك والطب والرياضيات والهندسة ، وإنه لمن الغريب أن تنزلق الإنسانية مرة ثانية إلى عالم الأساطير والخرافات بعد أن يكون العلم قد حاز هذه الانتصارات.

المكتبة القديمة

هناك آراء متعددة حول مكتبة الاسكندرية القديمة– من الذى أنشأها وأين موقعها وإلى أى حضارة تنتمى؟ فبينما يعتبر أساتذة الدراسات الكلاسيكية وعلى رأسهم د. مصطفى العبادى أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة الاسكندرية ود. أحمد عتمان أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة القاهرة «أن القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد عندما حكمت مصر أسرة الملوك البطالمة وآخرهم كليوباترا ، تمثل عصرا يونانيا ،كما يذهبون إلى أن بطليموس الأول هو الذى أنشأ المكتبة بالمتحف (الموسيون) داخل قصره بالحى الملكى ، وأنه أوكل إلى ديمتريوس الفاليرى الإشراف على إنشاء المكتبة التى أقامها على أساس من المراجع اليونانية عندما أحضر مكتبة أرسطو أثينا ، وهو الذى تولى مشروع ترجمة كتب التوراة من العبرية إلى اليونانية . ولكن هناك من يخالف هؤلاء الرأى ،فأحمد عثمان الباحث فى التاريخ المصرى القديم يؤكد«أن الذى أنشأ المكتبة بطليموس الثانى داخل معبد(السيرابيوم) بحى راقودة المصرى عند عمود السوارى والذى عهد إلى الكاهن المصرى مانيتون مهمة إعداد المكتبة ، والذى قام اعتماداً على المصادر التى وجدها فى مكتبات معابد عين شمس ومنف بعمل نسخة من الكتب المصرية مترجمة إلى اليونانية ،كما قدم مانيتون ثلاثة مراجع رئيسية للمكتبة :الأول يتضمن ملخصا للتاريخ المصرى القديم

حتى بداية حكم البطالمة ، والثانى يتضمن الكتابات المقدسة والشروحات الفلسفية والفقهية لها، أما المرجع الثالث فيختص بقوانين العلوم الفيزيائية ، وأشرف كذلك على جمع وترجمة كتب التوراة إلى جانب جمع أشعار اليونان وتراثهم العلمى والمعارف الخاصة بالحضارات الشرقية من بابل وفارس وسورية ، ويرى أحمد عثمان أن الملوك البطالمة لم يكونوا حكاما أجانب يحكمون مصر لصالح بلادهم ، بل كانوا حكاما مصريين من أصل مقدونى ، تماما كما كانت أسرة محمد على فى مصر من أصل ألبانى وهو يؤكد كل ذلك بعديد من الأدلة التاريخية والوثائق الأثارية ويعتبر أن هذا الخلاف ليس مجرد خلاف أكاديمى بل له دلالات مهمة فى التعرف على أصل الحضارة الغربية الحديثة فلو صح أن مكتبة الاسكندرية كانت جزءا من المتحف فأن هذا يعنى أنها كانت تمثل الحضارة الهيلينية اليونانية، بينما لو ثبت قيامها فى السيرابيوم فهذا يعنى أنها تمثل حضارة مصر القديمة والحضارة الشرقية بشكل عام.

أما د. لطفى عبد الوهاب أستاذ الحضارة بجامعة الإسكندرية فله رأى خاص حيث يرى«أن مكتبة الاسكندرية القديمة قد استمدت اسمها وعظمتها من كونها كانت تجسيدا لحضارتين عظيمتين هما الحضارة المصرية الفرعونية والحضارة اليونانية الاغريقية ، وأنه حين تم تأسيسها حوالى ٢٨٠ ق.م فى عهد بطليموس الثانى كانت تجسد ثلاثة ملامح رئيسية ، أول هذه الملامح أنها كانت مكتبة عامة سواء من حيث إن الدولة هى التى كانت تتولى أمورها فيما يختص النفقات والإدارة والرعاية، أو من حيث إنها كانت تؤدى خدمة عامة ينتفع بها أعداد من القراء والباحثين بصفتهم العلمية فحسب ، وليس بصفتهم الشخصية كأفراد وملمح العمومية لم يكن معروفا فى التراث اليونانى ولكن المكتبة اكتسبته من التراث الحضارى المصرى، فقد كانت المكتبات أو دور الكتب «برومدجات» حسب التعبير المصرى القديم أما تابعة لمراكز البحوث أو دور الحياة وهى مراكز تابعة للدولة أو كانت ملحقة بالمعابد ، وهى مؤسسات عامة تتبع الدولة كذلك أو كانت قائمة بذاتها فى بعض الأحيان ، ولكن تتبع الدولة وهو أمر يظهر بوضوح من إدارة هذه المكتبات التى كانت تضم مفتشين ومفتشى أختام ومديرى إدارة . ومن أشهر المكتبات المصرية ، مكتبة ادفو وفيله ومنف ودندرة أما الملمح الثانى فهو أن مكتبة الاسكندرية القديمة حاولت بقدر المستطاع أن تغطى افرع التخصص العلمى والفكرى المعروفة آنذاك وفى هذا الصدد نجد أنها قد استفادت من التراثين المصرى واليونانى على السواء والملمح الثالث كان يتمثل فى الدور الحضارى الذى قامت به المكتبة وتهيئة الجو المناسب الذى يتجاوز مجرد النشر العلمى أو حتى اللقاء الثقافى إلى أفق أوسع وهو ما يمكن أن نسميه بالحوار الثقافى أو الحوار الحضارى . وبذلك فإنها كانت تمثل مركزا ثقافيا عالميا استوعبت النتائج العلمية والفكرية لمختلف حضارات العالم القديم وبالأخص حضارات حوض البحر المتوسط ، لم تكن مجرد خزانة لحفظ الكتب بل كانت تمثل اكاديمية علمية واعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع.

ورغم اختلاف الآراء حول نشأتها ومكانها وانتمائها الحضارى فإن هناك شبه إجماع على أنها كانت

تتكون من ٤ منشآت تحتل ربع مساحة الاسكندرية وهذه المنشآت هى:

* سما : مقبرة كانت تعد لدفن الاسكندر الأكبر.

* السرابيوم: وهو معبد فرعونى للآلهة أوزوريس المصرية والإلة هابى اليونانى والذين اشتق من اسميهما اسم الإله أوزيرابيس الذى حور إلى السرابيس . وكانت تكتب لوحات تأسيسة باللغتين المصرية واليونانية ،كما وضعت أمامه مسلتان وتمثالان لأبو الهول ،كان يوجد بالحى المصرى ، ويؤكد البعض أن المكتبة كانت بداخله وهناك من الأدلة الآثارية على ذلك.

* المكتبة : والتى ضمت نفائس الكتب وكنوز المعرفة وزخائر التراث للحضارات القديمة ،وكان يصل عدد المترددين عليها يوميا حوالى ٤٠٠ متردد ، وقد دعم ملوك البطالمة لاسيما بطليموس الثانى هذه المكتبة بكل طاقاتهم ،حتى وصل عدد المجلدات بها إلى أكثر من ٤٠٠ ألف مجلد وحوالى مليون لفة بردى، وكان يطلق على جانب هذه الزخائر كتب السفن لأنها نسخت عن الكتب الموجودة على السفن التى كانت تصل إلى الإسكندرية.

هذا وقد أحدث ظهور مكتبة الإسكندرية ثورة علمية فى تاريخ البشرية ، وطفرة نوعية فى المعرفة الإنسانية بصفة عامة ،حيث إنها المرة الأولى التى تجمعت فيها مصادر تراث الحضارات القديمة كلها فى مكان واحد وبلغة واحدة فبينما كان نظام التعليم فى السابق متوقفا على عدد قليل من القادرين على قضاء سنين طويلة فى التعرف على الغاز المعارف بعلامات مختلفة والمختفية داخل رموز لا يعرفها الا المؤهلون، جاءت الأبجدية اليونانية لتسهل للإنسان العادى تعلم القراءة والكتابة ، وهكذا صار فى وسع الطالب الاطلاع على معارف المصريين والبابليين والفرس واليونان، وجاء الدارسون من جميع أنحاء العالم القديم، من الهند وفارس وبابل وسورية وفينيقيا وبلاد الانباط وليبيا واليونان وآسيا الصغرى ، فتعاون العقل البشرى فى تكوين رؤية حضارية جديدة ، وبدلا من الاكتفاء بتلقى المعلومات عن الأساتذة ، أصبح فى وسع الدارس اللجوء إلى المراجع المختلفة فى كل مجالات العلوم، مما نتج عنه بداية البحث الذى يتطلب رجوع الباحث إلى النظريات المختلفة فى الموضوع الذى يبحث الذى يتطلب رجوع الباحث إلى النظريات المختلفة فى الموضوع الذى يبحث فيه ، ويصبح عليه التوصل إلى استنتاجه الخاص. وكان هذا بداية لظهور نظام التعليم الجامعى فى العالم كله ، فكان الباحثون يلتقون حول الأساتذة يناقشونهم ثم ينفضون عنهم للبحث، كل منهم يحاول إثبات نظرية عن طريق تجميع المعلومات من المخطوطات الموجودة بالمكتبة والاستدلال بها لإثبات قضيته . وهكذا مراكز الفكر والمعرفة تنجب العلم والعلماء.

* الموسيون : والذى يعتبره البعض أهم أجزاء المكتبة، وهناك من يرى أن المكتبة كانت جزءا ملحقا به حيث إنه كان يتكون من معبد لتسع من الآلهات الأغريق ، تنسب إليهن كل ألوان الفنون والآداب والعلوم والفنون. فى هذا الجو ازدهرت عبقريات مئات من العلماء الذين وضعو أسس علوم الرياضيات والفلك والطب والهندسة منهم:

اقليدس: (٣٣٠-٢٧٥ق.م) عالم الرياضيات الذى يعتبره البعض الأب الحقيقى لعلم الهندسة والذى توصل بالمنطق اعتمادا على بديهيات ومسلمات رياضية إلى وضع ٤٦٧ نظرية فى هندسة السطوح المستوية والهندسة الفراغية ، وضع كتاب« العناصر» الذى كان له أكبر تأثير على تقدم العلوم وهناك إجماع على أن التأثير الذى أحدثه فى الفكر العلمى أعظم من تأثير أى كتاب آخر، وقد ظل يدرس فى أنحاء العالم باعتباره أساسا للنظريات الهندسية إلى وقت قريب.

ارشميدس : (٢٨٧-٢١٢ق.م) تلميذ اقليدس الذى وضع أسس التكامل الرياضى ، اكتشف قوانين علمية وتوصل إلى ابتكارات واختراعات كثيرة ، مثل قانون الروافع ،وعلى أثر ذلك اخترع الطنبور الذى ما زال يستخدم حتى اليوم ،وقانون السوائل الساكنة وهو الذى يفسر عملية طفو الأجسام ،كما أضاف للعلوم الرياضية علامات أساسية .والذى يعتبر أحد أعظم ثلاثة علماء للرياضيات إلى جانب نيوتن وجاوس.

هيروفيلس :(٣١٠-٢٣٠ق.م) الذى أثبت أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس كما كان معروفا وقتذاك.

اريستاكوس:(٣١٠-٢٣٠ق.م) الذى أثبت أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس كما كان معروفا وقتذاك.

ايراتوسثنيس :(٢٧٥-١٩٥ق.م) الذى أعلن منذ ٢٣٠ سنة كروية الأرض ،وهو الذى تولى إدارة مكتبة الإسكندرية واكتسب خبرةس عظيمة فى هذا المجال ساعدته على وضع أسس علم المكتبات ،كما كتب أو كتاب فى التاريخ يخلو من الخرافات ، وذلك عن تاريخ اليونان منذ حروب طروادة وحتى الاسكندر الأكبر ، وهو صاحب أكثر إنجازات الاسكندرية العلمية اثارة إن لم تكن أهمها ،وهو تقديره لمحيط الكرة الأرضية. وقد استطاع أن يتوصل فى العملية الحسابية التى قام بها فى مرصد دار الحكمة إلى رقم لا يختلف عن الرقم الذى توصل إليه العلم الحديث بأكثر من خمسين ميلا، إنها معجزة علمية خارقة لعقل رياضى جبار.

ديونسيوس: (٦٨-٧ق.م) أبو اللغويات الذى حلل الكلام إلى مكوناته.

هيبارخوس: كان واحدا من أعظم علماء الفلك والرياضيات ، وضع أسس علم حساب المثلثات ،كان يعمل فى رودس ببجر أيجه حيث بنى مرصدا واجرى أبحاثا شاقة مستخدما أفضل ما أنتج العصر من أدوات وقيل إنه أول من حدد موقعا على سطح الأرض مستخدما لفظ خطوط الطول والعرض، وأول من لاحظ ظاهرة تسابق فصول الاعتدال ، ثم وضع كتيباً جديداً للنجوم يضم ما يقرب من ١٠٨- نجوم موزعة على ابراج ، وصنف هذه النجوم إلى مجموعات حسب درجة لمعان كل منها وهو نظام لا يزال متبعا حتى الآن مع بعض التعديل . بعد هيبارخوس بعدد من القرون جاء كلوديوس بطليموس فى القرن الثانى الميلادى ليرث ما تركه هيبارخومن كتالوجات ونظريات، ويستعين بها فى عمل كتاب سماه« التكوين

العظيم» كان بطليموس يعلم تلاميذه بأن الأرض كرة مثبتة فى مركز السماء بطريقة تحفظ توازنها وحولها تدور الشمس والقمر والنجوم فى دوائر ، وقد ظلت نظريات بطليموس مسيطرة على تفكير الناس حتى جاء كوبرنيكوس فى القرن السادس عشر ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أشهر عالم فى الطب وهو جالينوس الذى كتب خمسة عشر كتابا فى التشريح تشكل أهم ما تبقى من الطب القديم ، خصوصا فى تشريح الأوردة والشرايين والأعصاب «وكان كتابه المسمى «فن الطب هو الدليل العلاجى لعصره. والقائمة طويلة من العلماء والمفكرين والأدباء والفنانيون الذين انجبتهم هذه المكتبة.

وباختفاء مكتبة الاسكندرية القديمة تعرضت الحضارة الإنسانية لنوع من الانقطاع المعرفى «لقد فقد التاريخ ذاكرته ، وكان لابد من جهد كبير لإعادة ذاكرة التاريخ.

المكتبة الجديدة

المكتبة الجديدة صرح حضارى صممه مهندسون نرويجيون بعد أن فاز تصميمهم فى مسابقة دولية ليعيد أحياء مكتبتها القديمة «فعلى شاطئ البحر المتوسط وبعد غروب دام قرابة ٢١ قرنا من الزمان ، عادت مكتبة الإسكندرية لتسطع بنورها من جديد ، وهكذا يمكن لمدينة الإسكندرية أن تستعيد نورها الحضارى والتنويرى فى العالم ، وأول من فكر أحياء مكتبة الإسكندرية د. مصطفى العبادى أستاذ الدراسات اليونانية والرومانية بجامعة الإسكندرية وأبرز من كتب عن المكتبة القديمة ، تولدت الفكرة فى أروقة جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٤ أى بعد انتصارات أكتوبر عام ٧٣ ، وقامت الحكومة المصرية بالتعاون مع منظمة اليونسكو بوضع مشروع إحياء المكتبة أمام العالم ومن ثم تم تشكيل لجنة تحضيرية من كبار رجال الفكر لدراسة المشروع. وفى عام ١٩٨٨ تم وضع حجر الأساس ، وفى فبراير ١٩٩٠ عقد اجتماع اسوان تحت رعاية السيدة سوزان مبارك والذى يعتبر اعلاناً رسمياً عن بدء التنفيذ . وتضم المكتبة الجديدة ٣ مبانى رئيسية هى:

المبنى الأول: قاعة المؤتمرات الذى أهدته جامعة الاسكندرية للمكتبة ويتكون من قاعة رئيسية تسع ١٧٠٠ شخص وقاعة متوسطة تسع ٤٠٠ شخص بالإضافة إلى قاعتين صغيرتين تسع الواحدة ٢٠٠ شخص ومركز صحفى ، وهذه القاعة معدة للمؤتمرات وبها جميع التجهيزات الصوتية والضوئية والترجمة الفورية ، وقد تم تحديث وتطوير أجهزتها لتلائم التصميم المتكامل لمكتبة الإسكندرية الجديدة.

المبنى الثانى: القبة السماوية ، مبنى على شكل كرة قطرها ١٨ م، مخصصة لعرض أفلام عن الأجرام السماوية والتطورات الحديثة فى العلوم، بها شاشة مزودة بأجهزة سمعية وبصرية تعطى المشاهد انطباعا وإحساسا بأنه يسبح فى الفضاء ، وبها مدرج يسع ١٠٠ مشاهد.

المبنى الثالث: وهو المبنى الرئيسى والذى بنى على شكل دائرة غير مكتملة ومائلة فى مواجهة البحر على هيئة قرص الشمس الناقص دليلا عن أن المعرفة الإنسانية مفتوحة ولا تكتمل أبدا ، يحيط به جدار من الجرانيت الرمادى محفور عليه حروف الإبجدية بلغات العالم ، يسمح هذا التصميم بدخول ضوء

الشمس إلى قاعات المكتبة. وهذا المبنى بارتفاع ٣٢م ويتكون من ١١ دور، ٤ أدوار تحت الأرض ثم ٧ مستويات متدرجة عبارة عن قاعات للاطلاع والدراسة ،كما توجد بهذا المبنى مجموعة من المتاحف للآثار والعلوم والمخطوطات ، ومعارض لكنوز الأرض وخيال الكتاب وذاكرة الكتابة، وأرشيف للانترنت ، ومكتبة باسم طه حسين للمكفوفين ، والمكتبة السمعية البصرية متعددة الوسائط ، ومكتبة للموسيقى والفيديو، كما توجد مراكز علمية وثقافية مثل المعهد الدولى للدراسات المعلوماتية ومعهد الخطوط ومركز التوثيق والبحوث ومركز الحفاظ على الكتب والمخطوطات والوثائق وقد حصلت المكتبة بتصميمها الحديث على أربع جوائز عالمية :جائزة الجودة فى التنفيذ لعام ٢٠٠١ من مجلة الإنشاء البريطانية ، ودرجة الكمال فى التصميم من مجلة العمارة العالمية، والمشروع الأجمل على مستوى الشرق الأوسط وأفريقيا من المعهد الملكى للمعماريين البريطانى بالاشتراك مع مجلة العمارة العالمية ،وجائزة الامتياز والجدارة الدولية لعام ٢٠٠٢ فى الهندسة المدنية من جمعية المهندسين المدنيين الأمريكية.

وصاحب هذه الجوائز هو الدكتور ممدوح حمزة أستاذ ميكانيكا التربة والأساسات بكلية الهندسة ببور سعيد والمستشار الهندسى لجامعة قناة السويس . وإذا كانت المكتبة القديمة قد نشأت فى إطار مشروع حضارى يستهدف نشر المعرفة والثقافة والتبادل الفكرى والتواصل الحضارى بين الشرق والغرب من أجل توحيد العالم. فإن المكتبة الجديدة وبعد أن تم افتتاحها عليها أن تكون تحقيقا لنفس القيم والمبادئ .لذا فإن الأهداف المعلنة للمكتبة الجديدة تدور حول الحوار الثقافى من أجل تبادل المعرفة لتحقيق صالح التقدم الإنسانى ، وفقا لما أعلنه د. إسماعيل سراج الدين مدير المكتبة «فإنه قد تم رسم تصورات لتوجهات المستقبل عن دور المكتبة بصورة عامة وضعنا أمامنا تحديات أربعة هى:

١- أن تكون نافذة العالم على مصر: وكيف تتمكن المكتبة من أن تنقل إلى العالم الخارجى كل ما يريد أن يعرفه عن مصر ، ثقافتها وتاريخها كذلك مصر المعاصرة ،مشاكلها وتحدياتها مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى ظل العولمة ، أيضا ماذا نقبل منها؟ وماذا نقول عنها؟.

٢- أن تكون المكتبة فى نفس الوقت نافذة مصر على هذا العالم الفسيح : وكيفية تحقيق التوازن بين العديد من الاختلافات الجوهرية فى بعض الموضوعات ذات الاهتمام الخاص ، ولاسيما بين جيل الشباب الذين نهدف أن تستطيع المكتبة أن توفر لهم المادة العلمية المطلوبة سواء أكانت مكتوبة على صفحات كتاب أو عن طريق الصفحات الالكترونية من خلال القاعدة الرقمية الجديدة.

٣- محاولة تضييق الفجوة فى الهوة الرقمية الدائرة الآن بين الدول الصناعية المتقدمة ، والدول النامية:

٤- محاولة تطويع التقنيات العلمية الحديثة بحيث توفر لأبنائنا كل ما هو جديد فى هذا العالم الالكترونى الحديث.

من الواضح أن هذه الاهداف تعكس توجهاً عالمياً متعالياً فالمكتبة ليست سوى مرآه يرى العالم منها

مصر، وترى مصر العالم من خلالها ، وأن كل ما تحتاجه مصر ليس سوى تضييق الفجوة الرقمية ومحاولة تطويع التقنيات الحديثة،هذا مجرد تصور محايد لا يرى أى اختلاف أو تباين بين مصر وبقية العالم . وبالرغم من أننى حاولت أن أعرض بصورة واضحة الدور الذى قامت به مصر فى المكتبة القديمة وكيف أن حجم مساهمتها كان يدل على مستوى حيوية المجتمع وتقدم العلم فيها . ولكن الأمر غير ذلك الآن، فمصر تعانى من أزمة مستحكمة على جميع الأصعدة ، فالاقتصاد أصبح يعانى من اضمحلال شامل لقاعدته الانتاجية وأن هناك تدنياً فى مستوى الانتاج الصناعى والزراعى وارتفاع فى تكلفة السلع والخدمات مما يؤدى إلى عدم قدرتها على المنافسة حتى فى السوق المحلية وانخفاض حجم الصادرات ، واستمرار حالة الكساد التجارى ، وارتفاع معدلات البطالة خاصة بين الشباب المتعلم ، وإتساع التلوث البيئى ، وانخفاض الأداء فى الجهاز الإدارى، وتدنى مستوى الخدمات فى التعليم والصحة والنقل والمواصلات والإسكان وارتفاع نسبة الأمية . هذا ابالإضافة إلى أن المجتمع المصرى فى مجال الثقافة أصبح يعيش حالة حيرة شاملة وفقدان للقدرة على الابداع والحريات الفكرية ، وفى مجال السياسة فقدت الدولة القدرة على إدارة المجتمع وتخلت عن الكثير من أدوارها دون أن يستطيع القطاع الخاص القيام بما كان مقدرا له ، كل هذا والدولة غير راغبة فى إدارة شئون المجتمع من خلال صيغة ديمقراطية أو تسمح بالقدر الكافى من التعددية وتداول السلطة أو تأمين حقوق الإنسان وكرامة الفرد ، وبالتالى فإن الدولة والمجتمع فى حالة افتقاد للعمل الجاد وحسن المبادرة والقدرة على تجميع الأمة وراء هدف محدد ، وليس هناك تصور واحد لإطار استراتيجى للخروج من هذه الأزمات ، وليس أدل على ذلك من الموقع الذى تحتله مصر فى تقارير التنمية البشرية التى تصدر عن برنامج الأمم المتحدة الانمائى حيث تأتى فى ذيل الدول متوسطة النمو.

كنت أتصور أن يكون الاهتمام الأول للمكتبة هو دراسة الواقع المصرى ومحاولة وضع تصور استراتيجى للوصول إلى حل بعض مما تعانيه مصر والمنطقة العربية حتى تكون قادرة على المساهمة فى التقدم العلمى كما كانت عند إنشاء المكتبة القديمة ، وأن يكون هناك مركز علمى عن نهر النيل ومشكلات الزراعة المصرية وكيف نستطيع مواجهة ندرة المياه التى تعانى منها المنطقة العربية، ومركز علمى لدراسة الصحراء المصرية وكيفية الخروج من الوادى لإعادة توزيع السكان ، ومعهد علمى لدراسة إدارة شئون المجتمع وتقييم الأداء الفكرى والثقافى من أجل وضع تصور لمشروع نهضوى ، ومراكز علمية فى الفنون والآداب من أجل تطويرها ، فعلى سبيل المثال كيف نستفيد من سماع الموسيقى العالمية فى تطوير موسيقانا وجمع تراثنا من الفن الشعبى لإعادة صياغته علميا . وهذا لايعنى أن تكون هذه الاهداف بديلا عن الاهداف التى وضعتها المكتبة لنفسها بل استكمالا لها لتكتمل امكانية الاستفادة من هذا الصرح العلمى الفريد . وحتى تكون المكتبة الجديدة رمزا لإحياء الأولى يتعين أن تكون تعبيرا عن انجاز حضارى جديد يتناسب مع ظروف العصر.

ذلك أننى اتفق مع الكاتب الكبير محمد سيد أحمد فى تصوره لسياق التطور ودور المكتبة الجديدة والذى يرى «أن مكتبة الاسكندرية القديمة كانت معنى حضاريا كبيرا ، ولكن ينبغى لنا تحديدا ماذا نعنى باطلاق صفة حضارية على بروز المكتبة مرة أخرى ، فإذا كانت الأولى تتويجا لانجازات حضارية ، فيجب أن تكون الجديدة تعبيرا عن انجاز حضارى خارق هى الأخرى ، ومع أن المكتبة الأولى كانت أقرب إلى المتحف منها إلى المكتبة ذلك لأن كل مخطوط كان محدود العدد والقدرة على القراءة هى الأخرى كانت مقصورة على نخب معينة ، واقتصرت وظيفة هذه المكتبة على حفظ عصارة ما انجزته العصور القديمة وضمان تواصلها عبر التاريخ ، غير أن المحافظة على هذا التراث ظلت هشة وعرضة لما حدث لمكتبة الاسكندرية ، ما دام الكتاب مخطوطا محدود العدد .غير أنه حدثت طفرة فى القدرة على نشر المعرفة بعد اختراع آلة الطباعة عام ١٤٣٤ فى جوتنبرج بالمانيا ، بعد ذلك لم تعد القراءة صفة تقتصر على نسبة ضئيلة ومن ثم لم تعد المعرفة ملك نخبة قليلة العدد ، وكان اكتشاف الطباعة المدخل الضرورى لعصر النهضة ثم لعصر التنوير. والمكتبة المجددة لن تكون تجديدا لو تعاملت مع الكتاب كما جرى معه ما قبل جوتنبرج ، ولا بعد جوتنبرج بل أننا بصدد عصر لم يعد الكتاب فيه هو فقط الكتاب المنسوخ أو المطبوع وإنما أصبح الكتاب وسيلة لتداول المعلومة جنبا إلى جنب مع أدوات سمعية وبصرية أخرى، أننا بصدد كتاب عصر المعلوماتية ،كتاب نعرفه بالكتاب «المتفاعل» والقابل للتطوير حيث لا يتلقاه الإنسان سلبيا وإنما يشارك فى صنعه وهو يقرأه يضيف اليه تجربته .. وهكذا.. يطوره ، الكتاب الذى هو فى الوقت ذاته فاكس وتليفون وبريد الكترونى وتلفزيون .. الأمر الذى يجعل من المادة المقروءة حالة تفاعل ديناميكية متواصلة بين البشر .مؤلفا يجرى اثراؤه باستمرار .مؤلفا لا يعبر عن مؤلف بعينه وحسب وإنما عن نوع من التآلف الجماعى . وبهذا لا يكون الكتاب عرضة لأن يمنحى ابدا .. هذا هو الجديد الذى من المتصور أن ترمز له فكرة المكتبة الجديدة كى تكون تواصلا فى الحاضر وإلى المستقبل.

إن تحقيق ذلك انما يتطلب ثورة ثقافية كاملة، تعنى فى المقام الأول تجاوز الأمية ليس حيال القراءة والكتابة ، وإنما الأمية الالكترونية، والأمة ذات الحضارة العريقة تحمل فى طياتها امكانية التجدد والنهضة إذا ما توافرت لها الظروف الملائمة ، وإذا دشنت مكتبة الاسكندرية الجديدة الكتاب المتفاعل الذى هو إنتاج جهد جماعى فانها سوف تكون بذلك قد عبرت عن بلوغ مصر مرحلة متميزة من الوعى الحضارى.



أسـطورة الأخـوين وانلـى

عصمت داوستاشى

إن الكتابة عن الأخوين " وانلى" بمثابة رحلة توازى رحلة إبداعهما .. بانوراما تشمل التاريخ الحديث لمدينتهما الحبيبة الاسكندرية ، والتى إن لم يبنها الإسكندر الأكبر لبنيت بشكل أو بآخر .. وماكان لمدينة أخرى غيرها أن تنجب الأخوين " وانلى".

من صفحات " العين العاشقة " للدكتور نعيم عطيه نقرأ " عندما تسير فى شوارع الاسكندرية فتصادف رجلا طويل القامة ممتلئ الجسم قليلا ، أشعث الشعر ، تتدلى نصف سيجارة من شفتيه ، ويقال لك إنه سيف وانلى ، تغمرك سعادة عارمة تماما ، مثلما تلمح فى شوارع القاهرة توفيق الحكيم بعصاه فى يده والبيريه على رأسه وتلك النظرات اللامعة الشاردة فى عينيه.

لعل د. نعيم عطيه لم ير مثلى الأخوين وانلى معا ، كان أدهم على النقيض من سيف . ضئيل الجسم مفتول العضلات فقد كان ملاكما مرحاً ساخرا كثير الحركة ورغم أنه الأصغر فقد ولد فى ٢٥ فبراير ١٩٠٨ .. وسيف ولد فى ٣١ مارس ١٩٠٦ إلا أنه كان القائد والعقل المفكر والروح القلقة التى انطفأت مبكرا.

ماكان للإسكندرية أن تتوهج فنا وإبداعا فى الأربعينيات وحتى نهاية الخمسينيات إلا بوجود الأخوين وانلى ومجموعتهما ومرسمهما.

والحق يقال ، إنه مع رحيل أدهم وانلى فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٩ عن ٥١ عاما ثم وفاة أحمد فهمى بعده بعامين وكان ثالثهم ... ورحيل محمود بيومى مبكراً ، ثم انطواء سيف على نفسه لتستحوذ عليه تلميذته إحسان مختار وحتى وفاته فى استكهولم بالسويد فى ١٤ فبراير ١٩٧٩ عن ٧٣ عاما ، اختفت وتلاشت فترة من أهم وأكثر الفترات ثراء فى تاريخ الاسكندرية الفنى الحديث . لقد بدأت مرحلة جديدة وأجيال جديدة مع افتتاح كلية

الفنون الجميلة التى أنشأها أحمد عثمان عام ١٩٥٧ بمنطقة الرمل .. ومع خريجيها الشباب بدأت حقبة من التردى والهبوط ... ومع نهاية الستينيات واستمرت حتى وقتنا الراهن . ففقدت الاسكندرية بريقها الابداعى .. وعبثا نحاول استرجاعه بلا جدوى .. فكل الاصلاء قد رحلوا منذ زمن بعيد . والباقى معتزل بعيدا عن المهاترات اللا فنية السائدة الآن.

الحديث عن سيف وأدهم وانلى هو الحديث عن الاسكندرية التى كانت ومَازالت الباب الجنوبى لأوربا .. جامعة تموجات المتوسط والمنفتحة على حضارات العالم . مركز الشرقين الأقصىَ والأدنى ، مرورا بحضارة الاغريق وحضارة أفريقيا مع الجذور الخالدة للحضارة المصرية القديمة.

* البدايات

يصف رشدى اسكندر ، وكان صديقا للأخوين وانلى ، قصر جدهم عرفان باشا فى منطقة محرم بك والذى كان يطل على ترعة المحمودية المنطقة السكنية للطبقة الراقية فى بداية هذا القرن " القصر يوحى بالثراء والفن والجمال .. حديقة غناء بها أنواع مختلفة من الزهور وأشجار الفاكهة . ثم مكتبة كبيرة تضم مراجع الفن الإيرانى .. وعلى الجدران لوحات بالخط العربى الفارسى .. ثم لوحات ورسوم لملامح سهراب ورستم وغزوات تيمور لنك والسلطان سليم وغير ذلك من المخطوطات".

ولكن رشدى اسكندر ولا أحد غيره ممن كتبوا عن الأخوين وانلى قد وضح المتغيرات والظروف التى شاءت أن تتحول الأيام بهما من الثراء الذى أحاط ببداية نشأتهما فى قصر الأسرة بالاسكندرية إلى الفقر الذى لزمهما فيما بعد . فلم يكملا تعليمهما وأمكن بالوساطة الحاق سيف كاتبا بمصلحة المنائر بميناء الاسكندرية وأدهم كاتبا بمخازن وزارة المعارف. واستمرا فى عملهما هذا حتى حصلا على التفرغ من الدولة إبان إنشاء وزارة الثقافة المصرية وإرسالهما فى بعثة عام ١٩٥٩ لتسجيل معالم النوبة .. تلك الرحلة التاريخية التى توفى بعدها أدهم ليواصل سيف وحيدا طريق الإبداع فيحصد المجد والشهرة والثراء فى أواخر أيامه .

الموهبة والاستعداد كامنان بالفطرة عند الأخوين وانلى ، وقد ظهر استعدادهما للرسم مبكرا وعندما التحق أدهم بناد رياضى ليتعلم فنون الملاكمة اكتشف المدير الانجليزى للنادى اهتمام الشابين سيف وأدهم برسم وجوه زملائهما ، فشجعهما وطلب منهما لوحات لأبطال الرياضة العالميين وقدم ساعة يد هدية لكل منهما . مع ماكانا يشاهدانه على ترعة المحمودية لفنانين أغلبهم أجانب أمام حوامل الرسم يسجلون مناظر تلك المنطقة الساحرة وقتها .. ثم زيارتهما لمعرض جماعة الخيال التى أسسها محمود مختار مثال مصر العظيم بالقاهرة . اشتعل حماسهما لتعلم هذا الفن الجميل " الرسم والتصوير الزيتى".

كانت مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة التى أنشأها الأمير يوسف كمال عام ١٩٠٨ تستقبل الموهوبين للدراسة الأكاديمية .. فى الاسكندرية كانت المراسم الخاصة للفنانين الأجانب هى التى تستقبل الموهوبين لقاء أجر شهرى ، لم يكن فى مقدور الأخوين وانلى الوفاء به بعد تدهور ظروفهما المالية وهما حفيدان لأسرة من حكام وأمراء دولة الداغستان ، جدهما للوالد السنجق محمد وانلى وجدهما للوالدة محمد عرفان باشا الذى سمى حى عرفان بمنطقة محرم بك باسمه لم يكن معهما اجر درس الرسم فى أحد المراسم المنتشرة بالمدينة . وحين افتتح حسن كامل جمعية هواة الفنون الجميلة بأجر رمزى سرعان ما انضم إليها سيف وأدهم مع من انضم

إليها .. كانت الدروس تتم تحت رعاية وإشراف رواد الفن المصرى الحديث محمود سعيد – محمود مختار – محمد ناجي.

كانت تلك الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٤ بمثابة فترة التعلم والتدريب والتثقيف للفنانين ..اذ تعرفا خلالها على الفنان الايطالى " أتورينوبيكى ".

وفى ٩ أكتوبر من عام ١٩٣٠ كان الاخوان وانلى أول تلميذين ينتظمان فى مرسم بيكي وكانت علاقتهما بالفنان أقرب للصداقة منها التلمذة.. لموهبتهما وثقافتهما الرفيعة .. وانضم معهما صديقهما الفنان أحمد فهمى .. ترك بيكى مرسمه ورحل إلى إيطاليا عام ١٩٣٤. فكر الفرسان الثلاثة أن الأوان قد أن لإنشاء مرسم خاص بهم .. لتبدأ من هنا أسطورة سيف وأدهم وانلى كأبرز فنانى الاسكندرية وأحد معالمها وأكثر فنانى مصر فى هذه الحقبة حرية فى التعبير وقدرة على التجديد شاركهما فى تأجير المرسم وتأثيثه محمد بيومى رائد صناعة وفن السينما فى مصر وساعدهما كثيرا ابن عمهما سليمان نجيب مدير دار الأوبرا بالقاهرة والممثل المعروف بأدواره المرحة ، لقد فتح أمامهما أبواب مسرح محمد على بالاسكندرية ودار الأوبرا وعرفهما على فنانى الباليه والمسرح والأوبرا العالميين .

ووقف إلى جانبهما بالتشجيع حسين صبحى مدير بلدية الاسكندرية وراعى الفن بالمدينة وعرض أعمالهما بمتحف الفنون الجميلة وبينالى الاسكندرية .وجعل منهما كمال الملاخ الصحفى والأثرى والفنان المعروف خبرا يوميا فى صفحته بجريدة الأهرام .

كانت فترة مابين الحربين هى سنين النضج التى انطلقا منها مع بداية معارضهما الخاصة التى تركت أثرا قويا على مسار ومناخ الحركة الفنية المصرية بداية من منتصف الأربعينيات لقد تحول مرسمهما إلى صالون ثقافى ومدرسة ومركز حيوى للفن والفنانين ومزار لكل ضيوف الاسكندرية.

أصبح الاخوان وانلى ثم سيف فيما بعد .. رمزا للفنان العصامى الذى شق طريق الابداع بموهبته الأصيلة وكفاحه فى الحياة وثقافته واطلاعه الدائم على المتغيرات العالمية وعشقه وتضحيته من أجل الفن.

هذه الصفحات كانت تميز طلائع فنانى النصف الأول من هذا القرن بصفة عامة.

لقد أتيح لهما العرض لأول مرة فى صالون أتيليه الاسكندرية عام ١٩٣٢ حين رحب محمد ناجى بأعمالهما وأشاد بأعمال أدهم بصفة خاصة ووصفها بأنها تشبه أعمال الفنان المجرى " بالنت " الذى تتلمذ عليه ناجى بعض الوقت.

لقد دفعهما نجاح معرضهما الأول بالاسكندرية لشد الرحال إلى القاهرة ثم إلى باقى أنحاء العالم وكان معرضهما بمتحف الفن الحديث بالقاهرة عام ١٩٥٠ نقطة تحول رئيسية فى حياتهما لقد ترك هذا المعرض انطباعا قويا على تميز وتفرد وموهبة هذين الفنانين اللذين رسما كل شئ بالاسكندرية .. الناس والبحر .. والأماكن الحميمة المختلفة .. سجلا بريشتهما المتمكنة الحياة اليومية بالمدينة التى كان لمناخها أثره على ألوانهما من حيث الصفاء والشفافية والصراحة وعلى موضوعاتهما من حيث الانفتاح والشمول.

وجاءت مجموعة لوحات السيرك وراقصات الباليه وعروض الأوبرا العالمية قوية التعبير رسمت بأستاذية ومقدرة تكنيكية عالية وتلخيص راق لعناصرها يتفق والإيقاع الفنى العالمى فى ذلك الوقت .. حتى أن الناقد

الفرنسي لجريدة " لوموند " الباريسية كتب لم نكن نتوقع اطلاقا منذ وفاة " إدجار ديجا " مصور راقصات الباليه الشهير أن يفتح ميدان رسم الباليه .. وقد سد الاخوان وانلى هذا الفراغ فى اقتدار وتشهد أعمالهما فيما يتعلق بالمشاعر وترجمتها وتحليلهما للحركة والضوء المسرحى المعبر بموهبة فريدة عالمية ".

لقد ضحى سيف وانلى بكل شئ من أجل الفن بالحب والزواج والأسرة والعمل من أجل التفرغ للإنتاج الفنى بغير معوقات فى زمن كانت الظروف الحياتية قاسية .. ساعدهما مجتمع فنى راق يقدر الإبداع الأصيل ويضعه فى مكانته الراقية بعكس مجتمعنا الراهن الذى ساده الانحطاط الفنى وعزلة الموهوبين.

لقد توجت رحلة البداية للأخوين وانلى بمنحهما التفرغ مدى الحياة عند إنشاء وزارة الثقافة عام ١٩٥٩ وقد سافرا ضمن المجموعة الأولى من الفنانين المصريين إلى بلاد النوبة لتسجيل معالمها وآثارها ضمن مشروع المساهمة فى انقاذ النوبة قبل أن تغمرها مياه بحيرة السد العالى ، ذلك المشروع الذى نادى به عالميا الرائد محمد ناجى .. وأنجزا فى هذه الرحلة أهم ابداعاتهما الفنية ، وكان على وزارة الثقافة وقتها أن تقيم متحفا لإبداع كل الذين سجلوا النوبة وبناء السد العالى ..

لو تم هذا المشروع لأصبح نقلة مهمة فى مسيرة هؤلاء الفنانين والوطن فى آن.

ابراهيم أدهم وانلى
الفنان الساخر

كل ماأتذكره عن أدهم وانلى باستثناء لوحاته الرائعة .. فترة مرضه بمستشفى المواساة بالحجرة ٣٠٥ والتى كنا نتابعها يوما بيوم حتى أن وزير الثقافة ومدير بلدية الاسكندرية قاما بزيارة الفنان فى سرير مرضه قبل ذهابهما لافتتاح الدورة الثالثة من بينالى الاسكندرية وصورت هذه الزيارة فى شريط سينمائى ، نسأل أين هو الآن ...؟

وقد توفى أدهم بعد هذه الزيارة بثلاثة أيام فشيعت جنازته رسميا وشعبيا وتقدمها فنانو مصر وفنانو وقومسيرات دول حوض البحر المتوسط المشاركون فى البينالى الثالث.

ومنذ المعرض الشامل الذى افتتح فى ٣٠ مارس ١٩٦١ بمتحف الفنون الجميلة بعد وفاته بعام تقريبا وضم نماذج معظم ماتبقى من انتاجه الفنى فيما بين عامى ١٩٣٠ - ١٩٥٩ ويتكون من ١٨٦ لوحة زيتية لموضوعات مختلفة و١٢٣ لوحة للباليه والمسرح وعالم السيرك ومائة رسم لمصارعة الثيران والراقصات مع رسوم رحلته إلى إيطاليا ورسومه الكاريكاتيرية وقد عرض سيف ثلاث لوحات تحية إلى أخيه تمثل وجه الفنان فى مرسمه وخطابا لأدهم.

منذ هذا المعرض الشامل والوحيد لأدهم وانلى .. أسدل الستار بشكل أو بآخر على هذا الفنان الكبير .. صحيح أن احسان مختار تلميذته قد حولت مرسمه إلى معهد باسم أدهم وانلى وعلقت لوحاته واسكتشاته وكانت أيضاً نهمة فى بيع كل شئ . وهكذا اختفى معظم رصيد أدهم مع الأيام .. إن حصر ماتبقى منها فى متاحفنا يثير الحزن والحيرة .. فمتحف سيف وانلى الملحق عنوة بمتحف محمود سعيد بمنطقة جناكليس بالاسكندرية والذى لم يفتتح بعد يضم سبع لوحات لأدهم وانلى فقط ومتحف الفنون الجميلة بالاسكندرية والذى أطلق عليه اسم حسين صبحى يضم ١٢ عملا لأدهم مابين اسكتش ولوحة ولعل متحف الفن الحديث بالقاهرة يضم مثل

هذا العدد مع لوحات هنا وهناك فى مجموعات خاصة معروضة .. إلا أنه فى النهاية فان تراث هذا الفنان قد جرى تبديده.

الذى لاجدال فيه أن أدهم وانلى يعد من أبرع مصورينا المصريين .. بل تفوق على أخيه بألوانه الدافئة الفاخرة فى لوحات تمثل الواقع بسخرية تعبيرية قوية . ولعل سيف وانلى كان على حق حين نصح أدهم بالتوقف عن رسم الكاريكاتير وإن ترك ذلك أثره على لوحاته الزيتية ورسومه.

أدهم وانلى هو بفطرته مصور كلاسيكى .. ميزته مجموعة أعمال السيرك والباليه وحياة الراقصات ومجموعة النوبة ولوحاته واسكتشاته الايطالية فى رحلتيه عام ١٩٥٢ وفى أعماله الأخيرة نرى محاولاته التحويرية وتجاربه فى تقسيم اللوحة إلى مساحات فى نزعة تجريدية تكعيبية مغلفة بالواقع الذى لم يتخل عنه أبدا ولكنه لم يستطع أن يبارع " سيف " فى التجريب والتنقل بين الأساليب المختلفة.

وكان تأثر أدهم وأخيه سيف بالمدرسة الباريسية وخاصة أعمال ديجا ولوتريك وغيرهما هو تأثر المبدع الذى يضيف وليس تأثر الناقل الذى يقلد.

وتألق أدهم فى مرحلة لوحات النوبة – آخر ما أبدعه – وقد حول مناظر هذه المنطقة التى تلاشت الآن إلى مسرح حى نابض بالحركة اللونية والايقاعات الزخرفية وغنائية الخطوط الأفقية والرأسية ولعل لوحته (قراءة الصحف فى النوبة) تعد من احدى روائعه مع ما أبدعه من رسوم مصارعة الثيران وحياة لاعبى السيرك..

ومن مذكراته نلمس بعض ملامحه وأفكاره.

" ٢٨ مارس ١٩٤٩ القاهرة "

ذهبنا لمعرض الفن الإيطالى فوجدناه عاديا بالنسبة لنا وأعمالنا تقف معهم ووجدنا محمود بك سعيد فسلم علينا وتجاذبنا أطراف الحديث .. ذهبنا إلى متحف الفن الحديث وتعرفنا بمديره الأستاذ يوسف كمال وكان الرجل ظريفا .. ثم ذهبنا إلى جروبى لمقابلة حلمى بك الذى أخذنا إلى منزله بالمعادى للغداء وبعد الظهر ذهبنا إلى المعرض الإيطالى مرة أخرى فوجدنا " فانى" صديقة أدهم الروسية وكانت دهشة وفرحة .

٣١ مارس ١٩٤٩

عيد ميلاد سيف .. عدنا إلى الاسكندرية ومعنا " فانى" بلدنا أجمل بلد فى القطر – نور وشمس وبحر.

٢٧ أبريل ١٩٤٩

انتهيت من عمل لوحتين هما – سد برمبال – وملاحة رشيد – إنى أغبط نفسى .

٣٠ ابريل ١٩٤٩

حضرنا افتتاح معرض محمود بك سعيد .. معرض فخم لفنان عظيم .. كان حفل الافتتاح رائعا جدا .. وكان فيه شرب كؤوس وفن وشعر ونساء جميلات (رسم سيف لوحة للمعرض الذى أقيم فى متحف الفنون الجميلة بالاسكندرية وكتب عليها إهداء إلى محمود سعيد وقد رأيت هذه اللوحة ضمن متعلقات محمود سعيد فى متحفه ولاأدرى أين هى الآن).

أول مايو ١٩٤٩

ذهبت لاستلام مرتبي من المحافظة .. مبلغ زهيد يكفي لسد الرمق .. هذه هي الحياة .. دائما كفاح وأمل .. إلى أن ينتهي العمر.

وكتب أدهم وانلي وعمره على وشك أن ينتهي .. قبل وفاته مباشرة.

ديسمبر ١٩٥٩

منذ شهر كنت في المرسم أضع اللمسات الأخيرة في تابلوه الرقص في النوبة وكنت أتعجل كل شئ لكي أنتهي من ١٥٠ لوحة و٤٠٠ اسكتش أنا وأخي سيف بتكليف من وزير الثقافة ثروت عكاشة عن بلاد النوبة لعرضها في معرض لإنقاذ آثار النوبة.

كنت أنا وأخي نعمل ١٥ ساعة كل يوم وأحسست فجأة بمغص شديد ، انفتح فمي واندفع منه قئ حاد .. وعند الطبيب قال لي مرارتك ملتهبة وتعبانة .. لم أهتم وعدت إلى المرسم لأرسم.

والآن لا أدرى أين هذه المذكرات ولماذا لم تجمع في كتاب حتى الآن .. لقد كان أدهم وانلي فنانا أصيلا مرهف الحس والشعور .. لايرسم إلا عن إيمان واقتناع .. ولايتجه أبدا إلى اللاتشخيصية وكانت لوحاته تفيض بسحر التعبير الدافئ وقوة الأداء الصادق.

أرى أنه من الضروري جمع أعماله المتناثرة لتنضم إلى أعمال أخيه سيف وانلي في متحف واحد باسم " متحف الأخوين وانلي".

محمد سيف الدين وانلي

التقيت بسيف وانلي في أوائل الستينيات بعد وفاة أخيه أدهم في تلك الفترة الرمادية السوداء من حياته والتي أكسبته صمتا على صمت وانطواء على طبيعته الهادئة المنطوية أصلا .. ذهبت إليه في مرسمه ولم أكن قد التحقت بعد بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية وكان لي على الأقل خمس سنوات غارقا في رسم لوحات بتأثير فن سيف وأدهم .. ذهبت إليه لأتعلم منه أسرار هذا الفن .. وأخذت معي مجموعة من لوحاتي ومنها لوحة مرثية إلى أدهم

وقد صورت فيها وجه سيف على خلفية بيضاء ووجه أدهم على خلفية سوداء واستعرت بعض رموز سيف التي نعى بها أخاه مثل القمر الباكي وراء ستائر رمادية .. اثنى سيف على أعمالي ونصحني بمزيد من الدراسة وجلست وسط مجموعة من تلامذته ولكني لم أكمل رسم ثلاث أو أربع لوحات بالفحم لرأس أفروديت مصنوع من الجبس وضع وسط الحجرة كموديل .

كان ذلك في مرسم سيف بالجامعة الشعبية التي هي الآن قصر ثقافة الحرية بنادى محمد على سابقا .

كان سيف يحول خطوطي ويلمسه واحدة من أصابعه إلى إحدى لوحاته بأسلوبه المعروف تنتظر توقيعه عليها .

ساحر الألوان

لعل سيف الوحيد الذي لم يكن مهيأ لأن يكون مدرسا .. صاحب مدرسة فنية ، نعم .. لكن ترك وراءه تلامذة يقلدونه تماما ولكن لم يضف واحد منهم شيئا جديدا للحركة التشكيلية المعاصرة.

وقد تركت مرسمه فورا رغم حبي وتقديري ورغم أنه أعطاني أول جائزة أحصل عليها في معرض جماعي عام ١٩٦٢ .. وعلى كل الأحوال لقد تلاشت المراسم الحرة بافتتاح كلية الفنون الجميلة ورحيل آخر الفنانين

الأجانب .. نعم كنت مبهورا مثل غيرى من شباب فنانى فترة الستينيات بساحر الألوان سيف وانلى .. الفنان الذى أصبح أسطورة الاسكندرية .. ومازال والذى اقترن اسمه فى القمة مع روادها .. وقد رسم كمال الملاخ بقلمه صورة رائعة لسيف فى تقديمه لمعرضه الشامل الثانى بمتحف الفنون الجميلة عام ١٩٧٤ الذى أقيم تكريما لحصول الفنان الكبير على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون .. كتب الملاخ الذى لعب دورا كبيرا فى خلق أسطورة الأخوين " وانلى" عندما تغنى الألوان فى انسجام .. على شاطئ لوحة .. فأنت تتطلع إلى أحد أعمال فنان مصر الأكبر المعاصر م. سيف وانلى . الذى أهدته مصر الدولة جائزتها التقديرية الكبرى .. تكريما وتقديرا لإنسان وهب نفسه وذاته لمحراب الفن الذى استكان اليه فتى صغيرا .. ونسى كيانه وكأنه راهب متصوف أصر على أن يبقى متبتلا فى عالم من الألوان والخطوط والمساحات .. انفرد بها يحلق ويسرى بها إلى عوالم لايراها رؤية العين وإنما يحس بها إحساس الفنان الأصيل دون أن يلقد أحدا .. أو يتبع طريقا سار فيه وخطا عليه من قبل غيره من أهل الفن .. حتى أخوه الراحل أدهم وانلى: الذى تفرد بشخصيته عنه.

إن دراسة دور كمال الملاخ بالنسبة للأخوين وانلى ولمدينة الاسكندرية والبينالى الذى يقام بها منذ عام ١٩٥٥ يوضح أهمية وإيجابية دور الصحافة والإعلام فى نشر وتقديم الفنان وفنه وجعله جزءا من نسيج المجتمع.

لقد رسم سيف كل شئ يحيط به .. أينما كان .. وفى أى لحظة نهارا أو ليلا وفى ظلام قاعات المسارح .. أساسا كان ينفذ أعماله بالألوان الزيتية والجواش والأقلام السوداء والملونة ولكنه كان يرحب بأى وسيط آخر يجده أمامه ، بقايا فنجان قهوة .. رماد سيجارته التى لم تفارق شفتيه أبدا مثل ابتسامته الطيبة الصادقة.

ومن المدهش أن نجد له رسوما على علب السجائر وكروت الدعوة والمفارش البيضاء .. كل البطاقات البريدية التى أرسلها سيف فى رحلاته الأوروبية والتى كان يبعث بها لأصدقائه من رسمه .. كان سخيا ثريا فى عطائه الإبداعى .. لم يكن يعنيه كم مايرسم وهل سيؤثر ذلك على أسعار أعماله فيما بعد .. وهذا ماحدث فعلا فأعماله منتشرة وخاصة اسكتشاته وتباع بأبخس الأثمان .. كذلك لم يعته تنقله الدائم من أسلوب إلى أسلوب ومن مدرسة إلى مدرسة كان يشعر داخل ذاته بأنه فى النهاية لايقدم إلا نفسه .. فنه الخاص به .. أحاسيسه الداخلية وترجمته للواقع برؤية جمالية سكندرية بحتة .. وبين استعارته لاتجاه فنى أو تقنية غربية فانه كان يصيغها بروحه المستقلة .. لذلك جاءت أعماله واضحة بسيطة محبوبة وشعبية وأيضا بعيدة عن التسطح والارتجالية .. وعن انتقالاته الفنية هذه قال عز الدين نجيب فى كتابه " فجر التصوير المصرى المعاصر " لعل موهبة سيف وانلى كانت من نوع موهبة محمد ناجى ككاشف آفاق مفتون بابداعات الفن الغربى .. وكان فى دنياه وروحه القلقة .. كنحلة لاتكف عن التنقل من بستان إلى بستان لتلاحق منجزات الفن الحديث .. وتمتص رحيقه لتفرز عسلا ذا مذاق جديد إلا أنه كان أكثر اتساقا مع نفسه فى ذلك .. فلم يحاول أن يزوج هذه التيارات الغربية للمنجزات الحضارية فى فنوننا الموروثة .. لهذا فقد كان وهو يتنقل من التأثيرية الى الوحشية التعبيرية إلى التكعيبية والتجريدية سلسا وبسيطا ومتسقا مع المنابع التى نهل منها . وهذه السلاسة والبساطة كان مصدرها الصدق .. وهو ماجعل كثيرا من أعماله برغم ثيابها الغربية – مصرية الروح خاصة فى مجموعة أعماله عن النوبة.

سيف وانلى يمثل روح الاسكندرية الحديثة بحق.. المدينة التى لبست أثوابا من الحضارات واستوعبت ضروبا من المدنيات .. وظلت دائما مدينة البحر المتوسط .. وقد كثر الحديث فى فترة من الفترات حول سؤال مهم : هل للاسكندرية مدرسة فنية تميزها وتميز فنانيها عن فنانى القاهرة على سبيل المثال ؟ .. وكانت الاجابة حتى بعد رحيل سيف عن دنيانا .. بنعم فقد كانت ابداعاته وأخيه أدهم من أهم علامات هذه المدرسة السكندرية التشكيلية والتى اختفت الآن وتلاشت ملامحها مع رحيل أهم رموزها .. إلا أنها كامنة أصلا فى تاريخ وجود وعطاء هذه المدينة.

لقد آمن سيف بأن الفن لايعرف الكلمة الأخيرة منذ بدأ مع الانسان وأن حقيقته كامنة فى إضافته المستمرة مع مسيرة الحياة .. سألنى فى إحدى المرات : ماذا تفعل الآن ؟ وحين أخبرته بأننى تركت وظيفتى لأتفرغ للفن ابتسم ساخرا وقال :" هو انت فاكر نفسك فان جوخ " كان سيف عاشقا لملحمة فان جوخ وصديقه جوجان وأخيه ثيو ولم أكن أدرى وقتها أنه بعد حديثى هذا معه بعشرين عاما سأعثر على قصة حياة فان جوخ من مطبوعات سلسلة الألف كتاب ، النسخة الخاصة بسيف وقد رسمها كلها بريشته بين السطور نسخة وحيدة فريدة.

ولعل أجمل لوحات سيف على الإطلاق هى لوحة قصة حياته وشقيقه .. ولسوف يتجه الفكر دائما إلى الأخوين وانلى كلما تاقت الروح إلى الإنتشاء بالفن والإرتواء من ينبوع الابداع وأسطورة المبدعين.

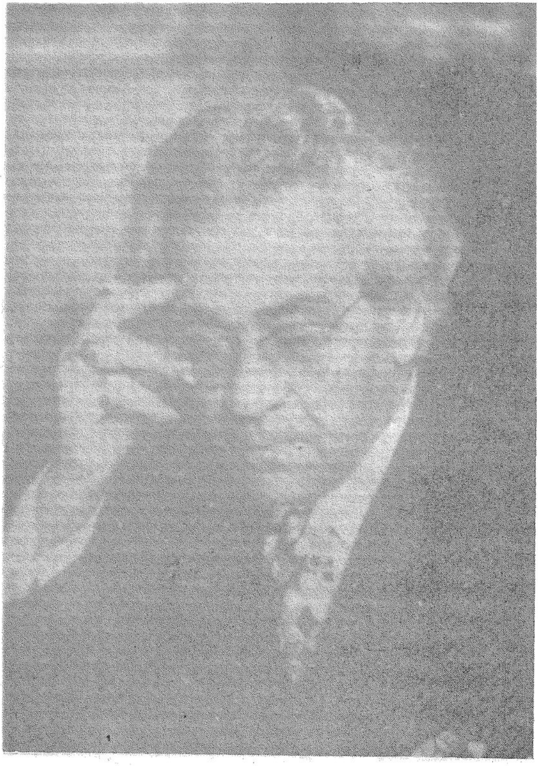
عندما سأل منير عامر فى روايته التسجيلية عن حياة الفنان سيف وانلى والتى نشرها عام ١٩٧١ " عناق الأزرق والأخضر " جاءه الرد وبقلمه :" إجابة سيف هى إجابة أدهم .. كل شئ فى الحياة يصعد سلما غير مرئى .. قيل أنها لرحلة الخروج من الجنة والعودة إليها .. يدق باب العصر عبقرى يكتشف روح المستقبل يأتى بعد العبقرى رجل مذهول بالاكتشاف تتسع عيناه ليؤكد الاكتشاف القديم .. لتتأكد الحركة الفنية .. أخيرا يأتى الناقد ليصدر حكما ما "

والحكم أن أسطورة الاسكندرية .. الأخوين وانلى .. ستظل متوهجة دائما وإلى الأبد.

هوامش :

أدهم وانلى ١٩٠٨ – ١٩٥٩

سيف وانلى ١٩٠٦ – ١٩٧٩



سيف وانلى

* يوقع لوحاته باسم سيف.

* اسمه الكامل : محمد سيف الدين.

* اسم والده : اسماعيل محمد وانلى .

* ولد بالاسكندرية في ٣١ مارس ١٩٠٦.

* توفى فجر يوم ١٥ فبراير ١٩٧٩ فى استكهولم.

* دفن بالاسكندرية يوم ٢٠ فبراير ١٩٧٩.

* درس الفن فى مرسم المصور الايطالى « أتورنيو بيكى» عام ١٩٢٥.

* قام بعدة رحلات فى البلاد الأوروبية المختلفة . كما اشترك فى سبعة عشر معرضا خاصا مع أخيه الفنان أدهم وانلى (٢٥ فبراير ١٩٠٨ - ٣٠ ديسمبر ١٩٥٩) واشترك بعد ذلك فى بينالى مدينة البندقية وسان باولو بالبرازيل وبينالى الاسكندرية وكثير من المعارض الدولية.

* حصل فى سنة ١٩٣٦ على جائزة مختار للتصوير وفى سنة ١٩٤٩ على جائزة « ريتشارد» وفى سنة ١٩٥٣ على ميدالية معرض الفنون الأسيوية الأفريقية وفى سنة ١٩٥٩ حصل على الجائزة الدولية فى بينالى الاسكندرية.

* كلفه السيد وزير الثقافة والارشاد القومى د. ثروت عكاشه القيام برحلة فى عام ١٩٥٧ الى بلاد النوبة ليسجل مناظر وملابس وأوضاع سكان هذه البلاد قبل تهجيرهم منها حيث غمرتها فيما بعد مياه السد العالى .. وقد صدر كتاب لهذه الرسوم وزع عالميا.

* عين أستاذا بكلية الفنون الجميلة منذ انشائها بالاسكندرية عام ١٩٥٧.

* حصل على منحة التفرغ من الدولة مدى الحياة عام ١٩٥٩.

* يقدر مارسمه سيف وانلى من اللوحات الزيتية بثلاثة آلاف لوحة وأكثر من ثمانين ألف رسم سريع مدى تاريخه الفنى.

* تنتشر أعماله الفنية فى جميع متاحف مصر للفن المعاصر وفى مجموعات خاصة بمصر وفرنسا وانجلترا وأمريكا وإيطاليا وأسبانيا والأرجنتين وألمانيا ويوغسلافيا وروسيا واليابان ولبنان وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وغيرها من البلاد.



* فى عام ١٩٦١ أقام متحف الفنون الجميلة بالاسكندرية معرضا شاملا لأعمال الفنان ضم نماذج من انتاجه فيما بين ١٩٥١ - ١٩٦١.

* صدر عن حياته رواية تسجيلية بقلم الأديب منير عامر بعنوان « عناق الأزرق والأخضر» عام ١٩٧١ طبعتها الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، كما أصدرت أقلام الصحوة كتاباً عام ١٩٧٨ عن الفنان سيف بعنوان فى صحن مصر للأديب محمود عوض عبد العال.

* أخرج الفنان نهاد بهجت فيلما سينمائيا (٢٠ دقيقة) عن سيف وانلى بعنوان « الجائزة » وذلك بعد فوزه بجائزة الدولة التقديرية فى الفنون عام ١٩٧٣ والميدالية الذهبية ووسام العلوم والفنون.

* فى عام ١٩٧٦ منح درجة الدكتوراه الفخرية فى الفنون من السيد رئيس الجمهورية.

* كانت أعماله ستعرض باستكهولم فى السويد ثم أوسلو عاصمة النرويج ثم كوبنهاجن عاصمة الدانمرك ... ولكنه توفى قبل افتتاح أول معرض فى بداية جولته بأوروبا بصحبة زوجته احسان مختار عام ١٩٧٩ عن ٧٣ عاما قدم خلالها نموذجا للفنان المصرى الذى ثبتت أقدامه ونال مكانته المرموقة فى مصر ثم فى العالم.

* افتتحت قاعة عرض باسم سيف وانلى بقصر ثقافة الحرية بالاسكندرية يوم السبت ١٢ ابريل ١٩٨٠ فى ذكرى وفاته الأولى بعرض لأعماله.

* فى سنة ١٩٨٢ اقتنت وزارة الثقافة من الورثة كل ماتبقى من لوحاته واسكتشاته وكتبه وأوراقه الخاصة ومكتبته الموسيقية ومقتنياته ومتعلقاته الشخصية تمهيدا لإقامة متحف خاص للفنان سيف وانلى وأخيه أدهم وانلى بجوار متحف الفنان « محمود سعيد ».



سيف وانلى يرسم حياة فان جوخ

ع . د

فى ربيع ١٩٦٨ قمت بزيارة الفنان الكبير سيف وانلى ، وكان يدرس وقتها لطلبة قسم التصوير بكلية الفنون الجميلة بالإسكندرية ، يرسمون موضوعاً جدارياً فوق سطح مبنى الكلية ، وسيف والسيجارة فى يده جالساً فى دفء شمس الربيع ، كانت علاقتى به تعود إلى عام ١٩٦١ قبل إلتحاقى بكلية الفنون وكنت وقتها تلميذاً بمرسمه لمدة ثلاثة دروس فقط ، ولم استمر خوفاً من أن أكون نسخة مكررة وباهتة من فنان أقدره وأحبه.

سألنى الفنان الكبير : ماذا تفعل الآن ؟

أخبرته بأنى قدمت استقالتى من التليفزيون وكنت أعمل به كمخرج مساعد منذ ستة شهور فقط عقب تخرجى .. وأخبرته أن العمل بالقاهرة وبالتليفزيون بالذات يتطلب منى تنازلات لست قادراً عليها .. كما انى أعشق رائحة البحر ومدينتى الجميلة الإسكندرية .. وسأتفرغ للفن، ورزقى على الله.

ابتسم سيف وانلى ، وهز رأسه رافضاً فكرتى هذه ، ونظر لأفق البحر التركوازى الممتد أمامنا فى بانوراما واسعة لكورنيش إسكندرية وقال :

– عايز تبقى يعنى فان جرخ .

..................*

كنا جميعاً نعرف قصة عذاب وطموح فان جوخ ، وحياته الدرامية ، وسعيه الدائم للخلاص الذى وجده أخيراً فى الفن تحديداً فى السنوات العشر الأخيرة من عمره القصير وبعد هذه السنوات أطلق على رأسه

الرصاص ومات لعل سيف يقصد بكلمته هذه ذلك التفرغ النهم إلى دراسة الإبداع دون التفكير فى أى شئ آخر ، وكان فان جوخ يعتمد على مساعدات أخيه ثيو لكى يواصل الرسم والحياة ، بعد أن ترك كل وظائفه التي كان يرتزق منها .. ولكن سيف كان يشفق علىّ، من طريق الفن الذى لايسد الجوع ، ولايفتح بيتاً لشاب مازال فى مقتبل الحياة .. يهجر وظيفته من أجل التفرغ للمجهول.

..............*

فى ربيع ١٩٨٨ وبعد عشرين عاماً من هذا اللقاء ، تمكنت من شراء نسخة نادرة وقيمة من كتاب " سلسلة الألف كتاب – التى تشرف على إصدارها الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية ، بوزارة التعليم العالى " .. وكان عبارة عن مجلدين بعنوان " حياة فان جوخ" تأليف ارفنج ستون وترجمة محمد محمود صفوت ، ومراجعة الدكتور عز الدين فريد.

أما ندرة وقيمة هذا الكتاب فلأنه أولا : يخص سيف وانلى ومن مكتبته الشخصية التى تسربت هى وأشياء أخرى من متعلقاته واسكتشاته واسطواناته إلى أرصفة الاسكندرية مع باعة الكتب القديمة وتجار العطارين المتخصصين فى الأنتيكات والمنهوبات.. ثانياً : لأن هذا الكتاب يضم فى صفحاته رسوماً بريشة سيف وانلى .. رسوم أصلية .. وليست رسوما مطبوعة ، تمثل حياة فان جوخ وقد رسمها بين الفصول وفى الفراغات، وقد استفاد سيف فى رسم حياة فان جوخ من رسوم لوحات الفنان التى تملأ كتب الفن ، رسمها سيف بحساسية وحب وتحية منه لهذا الفنان العالمى ، الذى لم يبع فى حياته إلا لوحة واحدة بخمسة فرنكات فرنسية قديمة . والذى وصلت أسعار لوحاته اليوم إلى أرقام فلكية كان آخرها مايزيد على ثمانية ملايين دولار فى لوحة واحدة وإن كانت رسوم سيف وانلى لحياة فان جوخ قد إتسمت بالفهم لعالم هذا الفنان ، فانه تقمص ضربات فرشاته العصبية السريعة المستقلة ، وخطوطه الملتهبة المتقطعة ، ولكن بعبق روح وبساطة ريشة سيف وانلى وأسلوبه المعروف عنه .

امتلأت صفحات الكتاب بالرسوم التى استعمل فيها سيف وانلى أقلام الحبر الأسود ، ليرسم كل شئ يتعلق بقصة فان جوخ فرسم والديه وأصدقائه وخاصة جوجان ، وأعمامه ، كما رسم الأماكن الخلوية والطبيعية التى كان يستلهم فان جوخ منها لوحاته والتى كان يلجأ إليها على الدوام ، وكانت آخر رسوم سيف وانلى فى هذا الكتاب ، تمثل حجرة فان جوخ وقد رسمها باللون الأزرق وكأنه لون الموت وكتب تحتها " الغرفة التى مات بها فينسنت "

وبجانب مارسمه سيف فى هذا الكتاب ، إنه وضع بعض الخطوط والأقواس على بعض الكلمات التى كان لها صدى فى نفسه ومنها هذا السطر.

" أنا فى دنيا تداركها الله ، غريب . فهب لى من لدنك رحمة "

فهل كان سيف وانلى يعنى نفسه هنا ، وهل تقمص حياة فان جوخ كما تقمصها العديد من الرومانسيين ..

الذى لاخلاف عليه هو افتتان فنان الإسكندرية بحياة الفنان الهولندى الذى كتبت عنه عشرات المؤلفات والعديد من المسرحيات والأفلام السينمائية المقتبسة من قصة حياته ولعل أشهرها ذلك الفيلم الأمريكى الذى قام ببطولته كيرك دوجلاس فى دور فان جوخ وأنتونى كوين فى دور زميله الفنان جوجان.

وقد لخص جورج فلانجان فى كتابه الشهير " حول الفن الحديث " والذى ترجمه كمال الملاخ ونشرته دار المعارف عام ١٩٦٢، لخص حياة فان جوخ قائلاً « لقد عاش فان جوخ حياة درامية تراجيدية بطولية ، وكانت تشبه كثيراً مأساة من مآسى شكسبير ، فى وقائعها وتسلسل حواراتها ، المؤدية إلى الخاتمة الصاخبة .. إن حياته قصة كاملة ، لتبدو وكأنها تنسيق بسيط يصلح للمسرح أو لرواية .. كانت حياته عاصفة مستمرة هائجة ، مفجعة ، كانت هى والفن شيئاً واحداً .. كانا الشئ نفسه .. كان يرسم بسرعة خارقة ، بدون تفاصيل ، ولا أى رؤية.

كانت ألوانه نحاسية فطرية حادة .. كانت حياة فان جوخ تعسة قصيرة واختتمت فى سنة ١٨٩٠ عندما كان فى السابعة والثلاثين ولو أنه عاش فشلاً بعد فشل ، فقد قدم للعالم فى مجال الفن هدية عظمى »

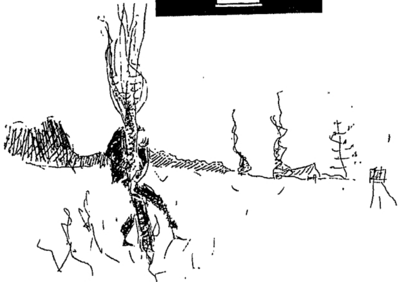
هذا عن فان جوخ .. أما فناننا الكبير سيف وانلى والذى عاش حياة فيها أيضاً الكثير من المعاناة هو وشقيقه أدهم وانلى ، لكن سيف نال الشهرة والمجد فى حياته التى استمرت هادئة ثرية بالإبداع حتى وفاته فى ١٥ فبراير ١٩٧٩ باستكهولم ، قريباً من دنيا فان جوخ وقد دفن سيف وانلى بمقابر الأسرة فى ٢٠ فبراير ١٩٧٩ عن ثلاثة وسبعين عاماً حافلة بالإبداع الفنى .

هذا الكشف أقدمه تحية لذكرى سيف وانلى الذى كتب عنه أستاذنا الكبير وصاحب القلب الرحب حسين بيكار الذى إحتفلنا ببلوغه التسعين فى يناير الماضى ورحل عنا أخيرا .. كتب عن سيف وانلى يقول :" سيف وانلى ، جيل كفاح ، لوحة من نور ، نموذج رائع من العصامية والإصرار وبناء الذات ، مدرسته الحياة ، وجامعته التجربة الشخصية ، ومعلمه العطاء الإنسانى كله ، موقعه ساحل الإسكندرية ، تربع فوق القمة صعوداً من القاع "

نعم إنها تحية إلى أحب فنانين عشقت إبداعهما وتعلمت من قصة حياتهما الكثير .. فان جوخ وسيف وانلى.

وفى الصفحات التالية يسعدنى أن أقدم قصة حياة الفنان الكبير سيف وانلى وأخيه أدهم وانلى وهى فى نفس الوقت قصة الفن بمدينة الإسكندرية فى القرن العشرين وهى التى سأبدأ بها مجلدى الضخم الثانى التوثيقى عن الشقيقين سيف وأدهم وانلى بعد المجلد الأول الذى قدمت فيه حياة وفن الرائد الكبير محمود سعيد والذى صدر عام ١٩٩٨ بمناسبة ذكرى مائة عام على ميلاده ومجلد سيف سيصدر أيضاً فى ذكرى مائة عام على ميلاده.

ملف



إسكندرية نجيب محفوظ!!

عبد الله هاشم

القاهرة عند نجيب محفوظ هى عالمه الأثير ..والقاهرة الشعبية التى صورها فى رواياته جزء مهم من مصر .. بل هى مصر فى فترات تاريخها الممتد ..لقد خلد القاهرة فى رواياته وحافظ على تاريخها الشعبى الجميل والصعب وإذا انتزعنا أحياء القاهرة من أعماله الروائية ستفقد الكثير والكثير.

رواياته :هل نستطيع أن نتصور رواية «ميرامار» بدون الاسكندرية؟ هل نستطيع أن نتصور «عيسى الدباغ» بعد أن فقد مجده وهيلمانه؟ أين كان سيذهب بدون الاسكندرية التى كانت لها دور خطير فى حياته ؟ هل كانت الاسكندرية دون غيرها هى التى خرج منها «صابر صابر الرحيمى» فى رواية «الطريق» ؟ كيف قدم نجيب محفوظ الاسكندرية فى رواياته الثلاث ..هذا ما سنحاول رصد جزء منه فى هذه العجالة لأن الاسكندرية فى أعماله تستحق كتابا كاملا .

الاسكندرية أخيرا ..

الاسكندرية قطر الندى ، نفثة السحابة البيضاء ،مهبط الشعاع المغسول بماء السماء ، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع».

هذه هى الاسكندرية كما قدمها نجيب محفوظ على لسان «عامر وجدى» بطل روايته «ميرامار» ، هذا الصحفى المخضرم الذى يرصد ويحلل ..أما« حسن علام» التى أممت الثورة أرضه فهو يرى الاسكندرية:

«وجه البحر أسود محتقن بزرقة . يتميز غيظاً . يكظم غيظه . تتلاطم أمواجه فى اختناق . يغلى

بغضب أبدى لا متنفس له . الكورنيش لا يرى من شرفة «سيسل» . إن لم أنحن فوق السور فلا سبيل لرؤيته . البحر يمتد تحتى مباشرة كأنما أراه من سفينة وهو يترامى حتى قلعة قايتباى محصوراً بين سياج الكورنيش وذراع حجرى يضرب فى الماء كالغول .. بينما يختنق البحر . يتلاطم فى تثاقل وهو كظيم . بوجه أسود ضارب للزرقة . منذر بالغضب .. يضطرم بباطن محشو بأسرار الموت ونفاياته» ص٨٧ ، ٨٨.

أما المذيع «منصور باهى» صاحب القضية السياسية التى قضى فى السجن أعواما من عمره بسببها ، فالاسكندرية عنده بعد خروجه من السجن:

«وقفت فى الشرفة وحيداً . ترامى البحر تحتى إلى غير نهاية . ينبسط فى زرقة صافية بديعة . وتلعب أمواجه الهادئة بلآلى الشمس. غمرتنى ريح فى ملاطفة متفرقة .كاد يغلبنى الحزن ولكن سمعت حركة خفيفة فى الحجرة فالتفت مستطلعاً .فرأيت زهرة وهى تفرش السرير بالملاءات والأغطية .عملت بهمة دون أن تنظر نحوى .فتمليتها على مهل . وسرعان ما أكبرت ملاحتها الريفية الباهرة» ص١٤٢.

أما «سرحان البحيرى» الانتهازى الذى ركب الثورة فكيف كانت الاسكندرية بالنسبة له:

«هاى لايف» ..معرض أشكال وألوان مثير للشغب ، شغب البطون والقلوب . موجة هادئة من الأنوار الباهرة تسبح فيها قدور فواتح الشهية ، الألبان الحريفة والمسكرة، اللحوم المقددة والمدخنة والطازجة ، الألبان ومستخرجاتها ، القوارير المضلعة والمنبسطة والمبططة والمربعة والمنبعجة المترعة بشتى الخمور من مختلف الجنسيات . لذلك تتوقف قدماى بطريقة أتوماتيكية أمام كل بقالة يونانية ، وهواء الخريف يلفحنى بدسامته الجنسية .وعيناى يرنوان إلى الفلاحة بين الزبائن أمام الطاولة»ص٢٠٢-٢٠٤.

إن نجيب محفوظ لا يستخدم الاسكندرية وبحرها وملاحتها كديكور ، بل كعامل أساسى فى تكوين نفسية الشخصية والتداخل فى احداثها ، فالبحر هنا يعبر عن داخل الشخصيات التى قدمها فى روايته «ميرامار» كل يعبر عن ما يهمه ، كما استشهدنا بمقاطع عن هذا.

السمان والخريف هى التى تلعب الاسكندرية دوراً حيوياً وأساسيا فى أحداثها .فعندما فقد عيسى الدباغ عمله وطموحه السياسى بقيام الثورة ، لم يجد بدا من الذهاب إلى الاسكندرية و«صارع التردد أشهراً ، ويوما قال لأمه» .أنى أفكر حقا فى السفر إلى الاسكندرية .وكانت الأم تزداد اعتيادا لغرابة أطواره وتحوله فقالت بهدوء:

-ولكن الصيف انتهى.

-أريد الإقامة لا التصييف.

فاختلج جفناها قلقا .فاستطرد قائلا:

-أعنى لفترة من الزمن

-ولكن لماذا؟.

-أود أن أقيم فى مكان لا يعرفنى فيه أحد ولا أعرف فيه أحدا» ص٧٩.

ولكن الأحداث تتطور ويتعرف على« ريرى» بل إنه ينجب بنتاً منها ، لتلعب الاسكندرية دوراً خطيرا

فى حياته والاستشهاد الذى يقدمه نجيب محفوظ ليس وصفا لشوارع الاسكندرية ، ولكنه يقدم عيسى الدباغ فى حياته «ورثى عيسى إلى ضحايا التاريخ من قلب متأوه . وأفرغ الثمالة ثم غادر المحل وسار على مهل فى شارع سعد زغلول . أحب شوارع الاسكندرية إلى نفسه وبخاصة بعد الثورة . إنه شارعه الخاص على وجه ما، ويحب كثيراً أن يقطعه ولو مرة كل يوم جيئة وذهاباً ، ليناجى فيض الذكريات. واقترب الوقت من نصف الليل ، وشاعت فى الجو برودة رقيقة منعشة. وبدا المجال كله ملفعا بالهجران . وألقى نظرة إلى ظهر التمثال المحدق فى البحر. وطوح برأسه على طريقة الباشا الذى حلا له قديما محاكاته . واستقل الترام إلى الإبراهيمية ، ثم ذهب إلى الكورنيش ليسلى أعصابه بالمشى الوئيد وفاقت ملاحة الجو خيال رأسه الدائر بالشراب .. وومضت النجوم فى الثغرات الواسعة بين السحاب ، واستكان البحر كالنائم تحت الظلام ، وعلى البعد امتد سياج من الأضواء الثابتة فوق مراكب الصيد . وخلا الطريق من الأحياء . فعادت تلح صورة الهجران . وجلس على أريكة حجرية ينعم بالصمت والحنان» ص٩٥-٩٦.

**

أما رواية «الطريق» فإن الاسكندرية هى البداية التى خرج منها «صابر الرحيمى» الإنسان الغارق فى التراب أو الغارق فى المادة . المادة أقوى منه والروح ضعيفة . اختيار الاسكندرية وحضارتها التى تأثرت بالحضارة الرومانية التى تعتمد على الحس والجسد الإنسانى النسوى وعبادته ، ثم القاهرة بمآذنها وروحانيتها التى تجمع بين إلهام «الروح» وكريمة «الجسد» .وتعلق بصره بالاسكندرية والقطار يرج الأرض مبتعداً . رآها مدينة من الأطياف مغروسة فى حلم الخريف تحت مظلة هائلة من السحب ، وهواء بارد معبق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الأنيقة شبه الخالية . وودعها وأمه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة وكيف يكون الحال لو أن من تبحث عنه قد خلفته وأنت لا تدرى فى ركن من الاسكندرية لم يبلغه مسعاك . ومن ضمن لك أن يكون حظك فى القاهرة خيرا منه فى الاسكندرية وكم فى البحر من أمواج . وكم فى السماء من نجوم» ص٢٥.

«بسيمة عمران» هى الأرض التى نبت وخرج منها« صابر الرحيمى» وكريمة هى الحياة بكل حسيتها وشهواتها .أما إلهام فهى الروح أو الوسط بين الروح والمادة .الإنسان الحائر بين المادة والروح «أين الله حقاً» هو عرف اسم الله ولكنه لم يشغل باله قط ولم تشده إلى الدين علاقة تذكر . ولا شهد النبى دانيال ممارسة عادة دينية واحدة فهو يعيش فى عصر ما قبل الدين »ص٤٧.

وينتهى هذا الإنسان الخاطئ إلى السجن والموت «فى السجن وحدك. لا يزار من ليس له أهل . وإلهام تخطر كالحلم غزواتك فى الاسكندرية .الحب الأعمى الذى رفعه إلى المشنقة»ص١٦٩.

**

هكذا كانت الاسكندرية فى روايات نجيب محفوظ ، لم تستخدم كديكور أو وصف سائح يزور الاسكندرية فى الصيف ولكن اسكندرية نجيب محفوظ هى العمق والتاريخ القديم والحديث. هى عمق الروايات وأحداثها وسر عبقرية هذا الكاتب العالمى.

اسكندرية

أحمد فؤاد نجم

يا اسكندرية بحرك عجايب
تحدفنى موجة على صدر موجة
أغسل هدومى وانشر هدومى
كأنى فلاح من جيش عرابى
كإنى نسمة فوق الروابى
كإنى كلمة من عقل بيرم
كإنى جوه المظاهرة طالب
كإنى صوت النديم فى ليلك
كإنى طوبة من بيت ف حارة
كإنى نجمة فوق الفنارة
يا اسكندرية يا مصراوية
البحر شباك ومشربية
يا اسكندرية عاشق وبدوى
يكون كلامى عربون غرامى
يا اسكندرية فيكى الغلابة
صبح صباحهم رجع مساهم
ياعينى ع اللى الزمن تعبهم
نزل شبكهم فى بحر طامى
وفيكى بين البشر ديابة
وفيكى ناس مغرمين صبابة
وفيكى خمرى سلمت أمرى

يا ريت ينو بنى من الحب نايب
والبحر هوجه والصيد مطايب
على شمسة طالعة وأنا فيها دايب
مات ع الطوابى وراح فى بحرك
م البحر جايه تغرق فى سحرك
كإنى غنوة من قلب سيد
هتف بإسمك ومات معيد
بيصحى ناسك يشدوا حيلك
كأنى دمعة فى عيون سهارى
تهدى الحيارى والبدر غايب
على سن باسم على ضحكة هالة
وأنت الأميرة ع الدنيا طاله
أرتاح فى حضنك والود ودى
وبالمحبة ناخد وندى
ع الرزق يسعوا ولاينامو‌ش
وزا شقاهم وما ارتاحوش
وضاع تعبهم ومالتاقوش
وطلع شبكم على فاشوش
وفيكى فوق البشر وحوش
لوخان زمنهم مابيخونوش
ما اقدرش أشوفه وماغنيلوش

ملف



فى وضح النهار

تأليف قسطنطين كفافى

نص مجهود اكتشفه: س. ستافيرس
ترجمها عن الفرنسية: أبو بكر العيادى

من هو قسطنطين كفافى؟.

قسطنطين بترو كافافيس ، هو الشاعر اليونانى السكندرى المعروف فى العالم كله «قسطنطين كفافى» . ولد هذا الشاعر فى ١٧ أبريل ١٨٦٣ ،وعاش عمره فى مدينة الاسكندرية ، وتوفى بها فى ٢٩ أبريل ١٩٩٣ . واستطاع –من مدينة الاسكندرية –أن يصل بشعره إلى قراء العالم كله، إذ ترجمت قصائده إلى مختلف لغات العالم ، قبل ، وبعد وفاته .

كان ثقافى يعشق الأدب الانجليزى ،والأدب الفرنسى ، بمثل ما عشق اقامته الدائمة على شاطئ البحر الأبيض فى مدينة الاسكندرية ،وكان يتحدث الانجليزية بطلاقة ،حتى أن لغته اليونانية –وهى اللغة الأم– تأثرت على لسانه باللكنة الانجليزية.

إن قصائد «كفافى» المهمة ، التى قدمته إلى قراء العالم ،كتبها بعد أن تجاوز عامه الأربعين . وجميعها تميزت بعمق وشفافية الرؤية إلى الإنسان ،والحياة ، والموت . ولذا كان يطلق على نفسه «شاعر العمر المتقدم». أما ما نشر من قصائد «كفافى» بالرغم من عديد القصائد التى كتبها خلال إقامته فى الحياة، فلا يتجاوز مائتى قصيدة ، وهى تلك القصائد التى طارت بأجنحة لغات

العالم إلى ملايين القراء.

ومن الجدير بالذكر ، أن «كفافى» لم يعرف عنه أنه كتب نثرا، باستثناء رسائله ويومياته، التى ترجمت هى الأخرى إلى عديد من اللغات ، ليس من بينها اللغة العربية.

غير أن القارئ اليونانى فوجئ فى مطلع الثمانينيات بنشر هذه القصة القصيرة بقلم قسطنطين كفافى ، على صفحات الجريدة اليومية اليونانية «توفيما» .وقد عرف فيما بعد ، أن الشاعر اليونانى المعروف س. ستافيريس ، هو الذى اكتشف هذه القصة ، التى يرجع تاريخ كتابتها إلى شتاء عام ١٨٩٥ ، أى أن «كفافى كتبها وعمره اثنان وثلاثون عاما. عندئذ، قام ستافيريس بنشرها فى الصحيفة اليونانية «توفيما» ، ثم ترجمها إلى اللغة الفرنسية ، ونشرت منذ عامين فى باريس بمجلة «نوتابينى» التى يرأس تحريرها الناقد والشاعر الفرنسى آلان بوسكيه وهى الترجمة التى نقل عنها الكاتب والأديب التونسى -المقيم فى فرنسا- أبو بكر العيادى ..النص العربى المنشور على هذه الصفحات.

بقى أن نعرف أن القارئ الانجليزى يعرف عن قسطنطين كفافى ، أكثر مما يعرف قراء العالم أجمع ، نظراً لأن الشاعر والكاتب والروائى الانجليزى المعروف لورنس داريل ، قد تناوله فى عمله الروائى الكبير« رباعية الاسكندرية» كواحد من شخصيات المجتمع السكندرى ، فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، إذ عاشا معا تلك الفترة وعاصرا أحداث المجتمع القديم فى مدينة الاسكندرية.

فى وضح النهار

كنت جالسا ذات ليلة بعد العشاء فى كازينو «سان ستيفانو» بالرمل ، فقد دعانى صديقى الاسكندرانى الذى يسكن الكازينو وصديقى شاب ودود إلى تناول العشاء معه . لم تكن هناك سهرة موسيقية والحاضرون قلة فجلسنا بكامل حريتنا .

تحدثنا فى أمور كثيرة ، وبما أننا لم نكن أغنياء تطرقنا للحديث عن المال وعن الاستقلال الذى يوفره والمتع التى يولدها.

قال أحد صديقىّ إنه يريد أن يكسب ثلاثة ملايين من الفرنكات وأخذ يصف كل ما ينوى أن يفعل بها وخاصة ما سوف يقلع عن فعله إذا قدر له أن يمتلك ذلك المبلغ.

قلت بدورى إن إيرادا سنويا قدره عشررن ألف فرنك يكفينى.

أما الاسكندرانى فقال:

-لو شئت لصرت الآن مليونيرا ولكنى لم أجرؤ.

بدت لنا هذه الكلمات غريبة ، فنحن نعرف جيدا حياة صديقنا الاسكندراني ولا نذكر إطلاقا أن فرصة ما اتيحت له لكى يصبح مليونيرا، لذلك ظننا أنه لم يكن جاداً فيما يقول وأن مرحلة ما سوف تعقب ذلك ، ولكن وجه صديقنا ظل رصينا ،حينئذ طلبنا منه أن يبين لنا ما تخفيه جملته الغامضة تردد قليلا ثم قال:

– لو كنت برفقة جماعة أخرى ، كتلك التى تضم أناسا «تقدميين» كما يقال ، لما فسرت قولى لأنهم لاشك سوف يسخرون منى. لكننا اليوم اليوم في مستوى غير ذاك الذى يدعيه أولئك «التقدميون» ،فقد أتممنا تطورنا الفكرى بحيث صرنا من جديد بسطاء ، بسطاء دونما جهل .لقد أكملنا الدورة كلها وعدنا إلى نقطة البداية .أما الآخرون فظلوا فى منتصف الطريق، لا يعلمون أين ينتهى ولا يدركون موضعهم.

هذه الكلمات لم تفاجئنا ، فلكل واحد منا فكرة شاملة عن نفسه وعن صديقيه.

أردف الاسكندراني:

–أجل . لو جرؤت لكنت مليونيرا ولكنى خفت حدث ذلك منذ عشر سنين . لم يكن لى فى ذلك الوقت مال كثير–مثل اليوم– وبالأحرى لم يكن لى مال إطلاقا ، ولكنى كنت بطريقة أو بأخرى أتقدم ، ولم أكن أشعر بالضيق ،كنت أقطن منزلا بشارع شريف باشا تملكه أرملة إيطالية كان لى ثلاث غرف مؤثثة أثاثا مقبولا ، وخادم خاص بالاضافة إلى خدمات صاحبة المنزل ذات مساء ذهبت إلى« روسينى» وبعد أن نلت نصيبى من الحماقات قررت العودة قبل موعد النوم لأنه كان يجب على أن أنهض من الغد باكرا للقيام برحلة إلى« أبو قير» كنت مدعوا إليها.

ولما وصلت أخذت أذرع الغرفة طولا وعرضا كالعادة وأنا أفكر فى أحداث اليوم . وبما أنها كانت خالية من أية أهمية فقد غلبنى النعاس فنمت .

نمت ساعة ونصفا أو ساعتين دون أن أحلم لأننى إذا كنت أذكر أننى استيقظت فى حدود الساعة الواحدة صباحا على ضجيج فى الشارع فاننى لا أذكر أننى حلمت . عدت إلى النوم فى حدود الواحدة والنصف حينئذ بدا لى أن رجلا دخل غرفتى . رجل متوسط القامة لا يتجاوز عمره أربعين عاما .كان يرتدى ملابس سوداء قديمة وقبعة من القش ،وفى يده اليسرى خاتم مرصع بزمردة كبيرة ، أثار استغرابى لأنه يناقض لباسه .كانت له لحية سوداء غزتها شعيرات بيض كثيرة ، وشئ غريب فى عينيه ، نظرات ساخرة وحزينة فى الآن نفسه. ولكنه كان بصفة عامة شخصا عاديا جدا . من أولئك الناس الذين نصادفهم كل يوم . سألته عن حاجته ، فلم يجبنى فى الحين وظل دقائق ينظر إلى نظرة متشككة أو متفحصة كأنما يريد أن يتأكد أنه لم يخطئ . ثم قال بصوت فيه نوع من التواضع وحتى الذلة : .

-أنت فقير ، أعلم ذلك، جئت أمنحك وسيلة لكي تضبح غنيا أعرف مكانا قرب« مسلة بومباى» يحتوى على كنز عظيم مخفي .أنا لا أريد من هذا الكنز سوى علبة حديدية صغيرة توجد فى الأعماق .كل ما تبقى سوف يكون لك.

سألته:

-ومم يتكون هذا الكنز؟.

فقال لى:

-من قطع ذهبية و من حجارة كريمة على وجه الخصوص .هناك عشر علب أو اثنتا عشرة علبة من الذهب الخالص مملوءة جواهر ولآلئ ، وهناك أيضا فيما أظن -بدا كأنه يتذكر -ياقوت أزرق.

قلت فى نفسى لماذا لا يذهب بنفسه إذن فينال ما يريد ، وما حاجته إلى. ولكنه سبق سؤالى:

-أدرك ما تفكر فيه . أنت تتساءل لماذا لا أذهب بنفسى فآخذ ما أريد؟ هناك ما يمنعنى ولكنى لا أستطيع أن أقول لك ما هو . هنالك أشياء لا يمكن أن آتيها بنفسى.

حين قال «بنفسى» لاح بريق فى عينيه ، وفى لمح البصر عبرت وجهه عظمة رهيبة ، ولكنه سرعان ما أستأنف كلامه بنبرته المتواضعة:

-وبذلك تسدى لى معروفا . أنا فى حاجة ماسة إلى شخص ما وقد اخترتك أنت لاننى أريد لك الخير . تعال غدا .سأنتظرك من الزوال حتى الساعة الرابعة فى« الميدان الصغير» فى المقهى المحاذى لسوق الحدادين.

على هذه الكلمات اختفى

من الغد، حينما أفقت لم أذكر فى البداية شيئا من الحلم . وبعد أن غسلت وجهى وجلست لتناول فطور الصباح خطر ببالى وبدا لى غريبا ودعوت فى سرى أن يكون حقيقة ، ثم نسيته.

قمت بالرحلة وتسليت كثيراً.

كان عندنا مرتفعا .كنا ثلاثين تقريبا ، رجالا ونساء . فى بهجة نادرة. لن أضيف أكثر من هذا لأنه خارج عن موضوعنا.

هنا لاحظ صديقى د:

-لاجدوى من ذلك، فأنا ، على الأقل ، على علم بما جرى . إن لم تخنى الذاكرة .أنا أيضا شاركت فى تلك الرحلة.

-كنت معنا ؟ لا أتذكرك.

-أليست الرحلة التى نظمها ماركوس ج. قبل أن ينتقل نهائيا إلى انجلتره؟.

-بالضبط . تذكر إذن تلك الأوقات الممتعة التى قضيناها معا . الزمن الجميل . الزمن الضائع . سيان لنعد إلى موضوع حديثنا . قلت إذن اننى عدت من الحفل مرهقا فى وقت متأخر . لم يكن أمامى إلا قليل من الوقت لأغير ثيابى وأتناول شيئا من الطعام ، ثم أقصد عائلة صديقه حيث تقام سهرة للعب الورق . بقيت ألعب حتى الساعة الثانية والنصف صباحا ، وربحت مائة وخمسين فرنكا وعدت فرحا . تمددت فى فراشى جذلان وسرعان ما غلبنى النعاس والارهاق.

لم يكد النوم يكحل جفونى حتى حدث شئ غريب . رأيت نورا فى الغرفة فتعجبت كيف لم أطفئه حينما هممت بالنوم ،ولكنى لمحت رجلا قادما من آخر الغرفة- كانت غرفتى كبيرة- حيث الباب. عرفته فى الحين . كان يرتدى الملابس السوداء نفسها وقبعة القش العتيقة ذاتها . بدا غير راض حين قال لى:-انتظرتك من الزوال حتى الرابعة فى المقهى .لماذا لم تأت ؟ أعرض عليك ثروة ولا تقبل؟ سأترقبك من جديد هذا اليوم فى المقهى بين الزوال والرابعة لا تتأخر.

ثم اختفى مثل المرة السابقة.

أما أنا فقد استيقظت مذعوراً . كانت الغرفة مظلمة . أنرتها . كان الحلم حقيقيا وحيا بشكل جعلنى أبقى مبهورا ومرهقا . لم أستطع أن أمنع نفسى من التأكد إن كان الباب لا يزال مغلقا بالمفتاح .كان الباب موصدا كالعادة .كانت الساعة الحائطية تشير إلى الثالثة والنصف .لقد نمت عند الساعة الثالثة.

لا أخفى عليكما . لا أشعر بالخجل حين أعترف أننى كنت فى غاية الارتباك .لم أعد أجرؤ على اغماض عينى مخافة أن يأخذنى النوم فأرى من جديد زائرى العجيب .جلست على كرسى وقد استبد بى التوتر .فى حدود الساعة الخامسة بدأ النهار يطلع . فتحت النافذة ونظرت إلى الشارع وهو يفيق شيئا فشيئا . بعض الأبواب انفتحت ، باعة اللبن المبكرون مروا ، وكذلك أوائل عربات الخبازين .هدأنى ضوء النهار قليلا فعدت إلى فراشى ونمت حتى الساعة التاسعة.

حين أفقت بدأ الاحساس الذى تركته ذكرى اضطرابى الليلى يفقد كثيرا من توهجه ، بل اننى تعجبت كيف انفعلت ذلك الانفعال .فكل إنسان يرى كوابيس كثيرة .أنا نفسى رأيت كثيرا من الكوابيس فى حياتى . وما رأيته لم يكن كابوسا بأتم معنى الكلمة . صحيح اننى رأيت الحلم نفسه مرتين ، ولكن ماذا يعنى ذلك، ثم هل هناك ما يؤكد أننى رأيته مرتين ، ألا أكون قد حلمت أننى رأيت الرجل نفسه من قبل؟ بحثت كثيرا فى ذاكرتى ثم تخليت عن هذه الفكرة . المؤكد أننى رأيت هذا الحلم أول البارحة .وما وجه الغرابة حتى فى هذه الحالة؟ يبدو أن الحلم الأول كان حيا وأثر فى كثيرا بشكل جعلنى أراه مرة ثانية .هنا صار منطقى الاستدلالى يفقد تماسكه . ذلك اننى استغربت عدم احتفاظى بذكرى حلمى الأول ، فهو لم يجل بخلدى فى أية لحظة طوال اليوم

الموالى . إذا كنت أثناء الرحلة أو خلال السهرة افكر فى شئ مغاير تماما للحلم ، فماذا يعنى ذلك؟ ألا يحدث غالبا أن نحلم بأشخاص لم نرهم منذ سنوات عديدة ولم نعد نفكر فيهم إطلاقا منذ مدة طويلة؟ يبدو أن ذكراهم تظل محفورة فى ناحية ما من الذهن فتظهر فجأة فى الحلم. لذلك ما الغرابة ان حلمت بالشئ نفسه فى ظرف أربع وعشرين ساعة وحتى وإن لم يخطر ببالى أثناء النهار . علاوة على ذلك قلت فى نفسى أننى ربما قرأت فى مكان ما حكاية كنز مخفى فعلق فعلها فى ذاكرتى دون وعى منى، ولكن عبثا فتشت عن هذه القراءة.

فى النهاية سئمت التفكير فارتديت ثيابى .كنت مدعوا لحضور حفل زفاف ، وسرعان ما طرد اختيار البدلة والعجلة ذلك الحلم من بالى .جلست لتناول فطور الصباح ورحت أقرأ دورية منشورة فى ألمانيا –المساء ،فيما أظن– حتى أقضى ساعة.

ذهبت إلى حفل الزفاف حيث تجمع أعيان البلاد .كانت لى فى ذلك الوقت علاقات كثيرة ، ولذلك كان على أن أكرر مرارا عديدة أن العروس جميلة جدا وإن كانت شاحبة قليلا وأن العريس شاب ذو قيمة كبيرة وأن له مالاً ، وأشياء أخرى من هذا القبيل. فى حدود الساعة الحادية عشرة والنصف أسدل الستار على حفل الزفاف فقصدت محطة ترام «بولكى» لأعاين منزلا نصحونى به قصد اكترائه لعائلة المانية من القاهرة كانت ترغب فى قضاء الصيف بالاسكندرية .كان المنزل فى الواقع مشبعا بالهواء ، مرتب الاثاث ، إلا أنه لم يكن كبيرا مثلما قيل لى . وبالرغم من ذلك وعدت صاحبته بأننى سأقول أنه منزل مقبول . شكرتنى المرأة شكراً مفرطا وأخذت تحدثنى عن كل المصائب التى ألمت بها لاستعطافى :كيف ومتى توفى زوجها المسكين ،وكيف زارت أوروبا ، وأنها لم تتعود تأجير منزلها ، وأن والدها كان طبيبا لست أدرى لأى باشا ..إلخ.. أنهيت هذا الواجب عدت إلى المدينة. وصلت إلى بيتى الساعة الواحدة فأفطرت بشهية بعد الغداء والقهوة خرجت لزيارة صديق يقيم بفندق قريب من «مقهى الفردوس» لنتفق على شئ نقوم به بعد الظهر .كنا وقتئذ فى شهر أغسطس وكانت الشمس محرقة. نزلت شارع شريف باشا بخطوات بطيئة حتى لا أعرق .كان الشارع فى مثل هذا الوقت خاليا .لم يصادفنى سوى محام كانت لى به صلة من أجل بيع قطعة أرض صغيرة كنت أملكها فى« محرم بيه» .كان آخر جزء من قطعة كبيرة بعتها شيئا فشيئا لتغطية جانب من مصاريفى .كان المحامى رجلا شريفا ولذلك تعاقدت معه ، ولكنه كان ثرثارا ، وكم كنت أفضل لو سرقنى قليلا عوض أن يزعجنى بهذره .تذرع بشئ لا معنى له لينطلق فى خطبة لا تنتهى وأخذ يتحدث عن القانون التجارى والقانون الرومانى مستشهداً بجوستنيوس ومذكرا بقضايا سابقة تولى الدفاع عنها فى «سميرنا» مادحا نفسه بنفسه ،وكان يشرح لى ألف مسألة ومسألة ، ماسكاً بثيابى ،وهو ما يقرفنى غاية القرف. كان على أن تحمل هذر ذلك

الشخص البليد وأن أغتنم فرصة خفوت حماسه لأسأل عن عملية البيع فهي بالنسبة إلى مسألة حيوية ،مما جعلني أحيد عن طريقي وأتبعه . سرنا على« رصيف البورصة» في« ميدان القناصلة» ثم دخلنا ممرا صغيرا يربط «الميدان الكبير» بـ« الميدان الصغير» ولما وصلنا أخيرا إلى« وسط «الميدان الصغير» كانت كل المعلومات التى أرغب فيها بحوزتي . ودعني المحامي بعد أن تذكر أنه سيزور أحد عملائه الذين يسكنون في هذه المنطقة . تابعته بنظرى لحظات ولعنت ثرثرته التى أبعدتني في هذا الحر، وتحت هذه الشمس عن طريقي.

كنت على وشك الرجوع لأتجه إلى الشارع الذى يوجد به« مقهى الفردوس» حين انتبهت فجأة أنني موجود في« الميدان الصغير» تساءلت في البداية عن وجه الغرابة في ذلك ثم تذكرت الحلم«هنا موعد ذلك الرجل صاحب الكنز» قلت ذلك في نفسي وأنا ابتسم وألتفت بصورة آلية إلى المكان الذى يوجد به بعض الحدادين.

ياللهول ! كان ثمة فعلا مقهى صغير،وكان يجلس فيه ذلك الرجل نفسه . أحسست بدوار وخلت أنني ساقع على الأرض . استندت إلى تخشيبة ونظرت إليه مرة أخرى . الملابس السود نفسها ، وقبعة القش عينها ،والسحنة ذاتها والنظرة هي هي .كان هو أيضا يراقبني بشكل متعال . أحسست بنوع من التوتر العصبي حتى أنني خلت أن حديدا انصهر داخلي .لقد اقعدني أن أرى الناس في وضح النهار يمرون دون أن يبال بأى شئ،وأنى أنا ،أنا وحدى الذى يعلم بالأمر الرهيب الذى يحدث ، وأن هناك يجلس شبح لست أدرى أى قدرات له ومن أى كوكب مجهول ، من أى جحيم ، أتي . وصرت أرتعد . لم يكف الشبح عن النظر إلى .خشيت أن ينهض ويقترب مني ، وأية قوة آدمية يمكن حينئذ أن تساعدني؟.

قفزت في عربة خيل وأعطيت الحوذى عنوانا بعيدا لم أعد أذكره.

حينما ثبت إلى رشدى لاحظت أنني كدت أصل إلى«سيدى بشر» ،ملكت أعصابي وأعدت النظر في أمرى . أمرت الحوذى بالرجوع إلى المدينة وقلت في نفسي «لقد جننت» . لا شك أنني أخطأت قد يكون شخصا يشبه رجل الحلم . يجب أن أعود لكي أتأكد . ربما انصرف وهذا دليل على كونه شخصا آخر، لأن الرجل قال انه سوف ينتظرني حتى الساعة الرابعة» .

غصت في أفكارى حتى أشرفت على مسرح «زيزينيا» هناك استجمعت كل شجاعتي وأمرت الحوذى بأن يقودني إلى« الميدان الصغير» كان قلبي يدق بعنف كلما اقتربت من المقهى . أوقفت الحوذى على مسافة غير بعيدة .جذبته من يده بقوة حتى كدت أوقعه من مقعده لأنني رأيته يزداد اقترابا من المقهى مثلما رأيت الشبح لا يزال جالسا هنا .

عندئذ أخذت اتفحصه مليا عسى أن أجد شبها بينه وبين رجل الحلم ،وكأن ذلك غير كاف

لاقناعي ،فأى إنسان غريب لا يحتمل أن يجلس شخص مليا، ولابد أن يستجلي الأمر . أما هو فقد ثبت عينيه في عيني بقوة وكانت سحنته تشي بالقلق الناجم عن القرار الذى سوف أتخذه . بدا أنه سبر أفكارى مثلما سبرها خلال الحلم ، ولكي يزيل عنى كل نوع من الشك في هويته أدار نحوى يده اليسرى وأوراني خاتم الزمرد الذى أثار انتباهى أثناء حلمي الأول، بشكل واضح حتى أنني خشيت أن يلمحه الحوذي.

أطلقت صيحة فزع وقلت للحوذى الذى بدأ يشك في مداركى أن يقودني إلى«شارع الرمل» .لم يكن لدى سوى فكرة واحدة، أن ابتعد .في شارع «الرمل» أردت أن أواصل طريقى إلى سان ستيفانو» ولكنى رأيت الحوذى يتردد ويتمم فدفعت له أجره ونزلت . أوقفت عربة أخرى قادتنى إلى« سان ستيفانو».

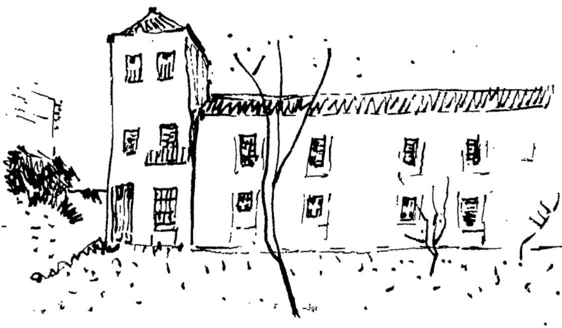
وصلت هنا في حالة يرثى لها دخلت قاعة الكازينو واستولى على الرعب حين شاهدت وجهى في المرآة .كنت شاحبا مثل جثة. من حسن حظى أن القاعة كانت خالية. تهالكت على كنبة لأفكر فيما ينبغى القيام به .كان أمرا مستحيلا أن أعود إلى بيتى ، أن أعود إلى تلك الغرفة التى دخلها ليلا مثل طيف وهمى ذلك الذى رأيته منذ قليل جالسا بمقهى ، في هيئة رجل عادى ، فهذا ليس وراداً إطلاقا . لم يكن الأمر منطقيا إذ هو قادر أن يلقانى في أى مكان . لقد صرت أفكر بطريقة مشوشة وفي النهاية قررت أن ألتجئ إلى صديقي. ب الذى كان يسكن في« محرم بيه»

سألته:

–أى ج. ب ؟ أتعنى ذلك الشخص غريب الأطوار الذى يتعاطى دراسة السحر؟.

–هو نفسه . وقد اعتبرت ذلك عند اختيارى . لا أذكر كيف ركبت القطار وكيف وصلت إلى« محرم بيه» وأنا أقلب النظر يمينا وشمالا كالمجنون مخافة أن يظهر الشبح من جديد إلى جانبى ولا كيف انهرت اخيرا في بيت ج.ب لم احتفظ من ذلك الا بذكرى مبهمة ومشوشة .أذكر فقط أننى جعلت أبكى بهيستريا وأختبص بكامل جسدى وأروى له مغامرتى المرعبة. هدأ ج. ب روعى وقال لى بمزيج من الجد والهزل لا داعى للخوف ،فالشبح لن يتجاسر على اقتحام بيته ،وإذا جاء فإنه سوف يطرده في الحال.

قال إنه يعرف هذا النوع من التجليات الخارقة ويعرف أيضا طرق التخلص منها . وألح على أن أقتنع بأنه لم يعد هناك داع للخوف لأن الشبح جاءنى لغاية معينة وهى أن آتيه بعلبة الحديد التى لم يكن باستطاعته فيما يبدو استرجاعها دون مساعدة رجل ما. هذه الغاية لم يحققها ، ولا شك أن فزعى قد جعله يدرك أنه لم يعد ثمة أمل في تحقيقها . ربما يذهب لاقناع شخص آخر. ب تأسف فقط لأننى لم أعلمه في الوقت المناسب حتى يذهب لرؤية الشبح والتحدث إليه، ففى مسألة



الاشبـاح-كمـا قـال-من النادر جـدا أن تظهـر الأرواح أو الجن فى وضـح النهـار . ورغـم ذلك لم أطمئن وقضيت ليلة مضطربة وأفقت من الغد وأنا اتقد من الحمى .وقد أحدث جهل الطبيب من جهة وتفاقم حالة جهازى العصبى احتقانا فى المخ كاد يودى بحياتى . ولما تماثلت للشفاء أردت أن أسـأل عن تاريخ اليوم الذى أنا فيـه .لقد مرضت يوم الثالث من أغسطس وكنت أعـتقد أن اليوم هو السابع أو الثامن من الشهر نفسه ولكن اتضح أننا فى الثانى من سبتمبر.

رحلة قصيرة إلى جزيرة بيجر ايجه عجلت بشفائى .خلال المدة التى استغرقها مرضى بقيت عند صـديقى ب. الذى تولى علاجى والعناية بى. كان يتذمر فى سره من شئ واحد: لم تكن لديه الجرأة لطرد الطبيب ومعالجتى بالسحر الذى يعتقد أنه يشفينى- وهو ما أعتقدته أنا أيضـا- أسرع من الطبيب . هى ذى الفرصـة التى سنحت لى لكى أصـبح مليونيرا ولكنى لم أجرؤ . لم أجرؤ ولم أندم على ذلك.

هنا سكت الاسكندرانى لقد كانت حكايته على درجة من اليقين والبساطة بحيث لم يعد ثمة موجب للتعليق . ثم أن السـاعة جاوزت منتصف الليل بسبع وعشرين دقيقة ،وبما أن آخر قطار ينطلق فى منتصف الليل والنصف فقد ودعناه وانصرفنا مسرعين.



الاسكندرانى التائه

محمد الباز

إذا كنت معتزا بنفسك فلا تصادق إسكندرانيا ولا تعطه سرك، فهو لا يرى فى مرآة الحياة إلا نفسه ، يفهم كل شئ ، يجيد كل شئ، يعتقد أنه قادر على تحقيق المعجزات ، ويتصور أنه لا يمنعه شئ عن تحقيق ما يريد ،حتى الموت يسخر منه ، يتوعده فى سره وينتظره بلا خوف ظانا أنه سيتعامل معه بطريقته عندما يأتيه.

إنسان يحمل هذه السمات لن تنجح علاقتك به إذا كنت متفوقا ، فهو يكره الآخر المتفوق عليه حتى لو كان اسكندرانيا مثله ، ولذلك ستجده مبالغا فى إثبات أنه الأكثر أهمية فى أى مكان يكون فيه ، هذا على اعتبار أنه الأعلم والأفقه والأذكى ، الذى يعرف كل شئ عن أى شئ ،وجرب نفسك مع الاسكندرانية على اختلاف ثقافتهم ، لن تذكر أمامهم شيئا مررت به إلا حدثوك عنه بحكايات طويلة وروايات متقنة ومواقف محكمة ، لا تستطيع أن تفرق فيما بين الأكاذيب والحقائق ، فالاسكندرانى حتى لو كان أميا فهو حكاء عظيم.

لا يفعل الاسكندرانى ذلك لخلل نفسى يعانى منه ، أو الاحباط يلم به، فليس سهلاً أن تعثر على اسكندرانى محبط ، يحدث ذلك لسببين ،الأول علاقته بالبحر التى تمنحه قوة هائلة وتمنحه طاقة أسطورية تجعله يرى نفسه إلها أو على الأقل نصف إله ، والثانى ما يحمله على كتفيه من تراث حضارى هائل ،

جعله يتأكد أنه الأحق بالريادة والصدارة وإمامة الصفوف ،حتى لو كان لا يملك من مقومات ذلك ما يغنيه ويقويه ويدعمه.

لم يسعدنى زمانى بالإقامة فى الاسكندرية لا مصيفا ولا عابراً ..لكننى عايشت أطيافا من بعض أهلها ..أساتذة جامعة وصعاليك ..صحفيون وباعة جائلون.. مثقفون وصنايعيه قابلتهم خارج حدود سيطرتهم .. بعيدا عن أسوار مدينتهم ..أول ما تراه فى الاسكندرانى خارج أرضه أنه متوتر للغاية ..حائر –غير مستقر– لكن ولأنه يحب الحياة فإنه يبحث عن الاستقرار والصياغة المناسبة لواقع جديد نزل عليه.

يحدث هذا تحديداً فى القاهرة ، المدينة التى لاتهش فى وجوه الغرباء حين يدقون بابها، ولا تحنو عليهم عندما يحاولون أن يأخذوها قراراً ، يستسلم الفلاح لشروط القاهرة يقبل الإهانة يتحمل الذل كى يعيش ، الصعيدى يبحث عن عزوته ، يذهب إليهم ويولى وجهه شطرهم حتى يعينوه على المرأة اللعوب، الاسكندرانى مختلف تماما ، يأتى القاهرة وهو يعرف شرورها ..يقرر من البداية أن يعاركها– .ويطمئن نفسه أنه فى النهاية سيصرعها–ليس لأن القاهرة سهلة.. ولكن لأنه هو القوى.

يدخل الاسكندرانى القاهرة فى جلبة تليق به .. يتحدث لن يعرف ومن لا يعرف بحكايات عن أمجاده وبطولاته وفتوحاته ، مع أنه فى اللحظة ذاتها قد يكون على فيض الكريم، ،لا يعرف أين سينام ليلته .ولا ماذا سيكون عشاؤه، قد لا يكون الاسكندرانى كذويا بطبعه لكن مؤكد أنه يبالغ فى كل شئ يفعله ويقوله ويقدم عليه ، يفعل ذلك طلبا للحماية المفقودة ، فطالما هو يعرف .. يحكى .. يفتى .. يفصل فى الأمور.. فلابد أن يحتاج الآخرون إليه .وقد فطر الناس على أن قيمتهم فى الحياة تحددها حاجة الآخرين لهم.

واحد من أبناء الاسكندرية حاول أن يبرر لى مبالغة أبناء مدينته فى الحكى وإظهار أنفسهم كأبطال خارجين لتوهم من روايات أسطورية ، بأنهم يفعلون ذلك حبا فى الحياة فهم يعشقونها يهيمون بها.. وما حكاياتهم وأحاديثهم المتواصلة حتى فيما لا يعلمون إلا تأكيدا لحيويتهم وقدرتهم على بعث الروح فى أى مكان يجلسون فيه ولو دقائق .فهم لا يحبون الهدوء ..لأن الحياة ليست هادئة .ولا يركنون إلى الدعة ..لأن الحياة صاخبة ومجنونة ، ولكى تثبت أنك تحبها فلابد أن تكون أجن منها وأصخب.

التبرير لا يقف على قدمين ،فكلنا نحب الحياة.. لكننا لا نفعل مثل الاسكندرانية الذين لا يكفون عن الكلام بالصدق والكذب .. بالحقيقى والمزيف ..بالواقعى والخيالى ما يفعله الاسكندرانى فى نهايته حيلة دفاعية عن النفس –فهو يحاول أن يبدو أكبر من حجمه .ولذلك يكذب– يريد أن يعتقد فيه الآخرون فيحكى لهم عن أحداث ووقائع عاشها بنفسه وكان فيها هو مركز الدائرة التى يدور الجميع على محيطها ، يرغب أن يجمع الناس حوله فيجذب إنتباههم بكلمات يستخدمها كمفاتيح تجده يقول لك ..أنا فى الموضوع ده أقدر أفيدك .. إنت مش واخد بالك ..صدقنى أن-عارف بأقول إيه ..الموضوع ده بالتحديد عملت فيه بحث مهم جدا ..أنا الوحيد فى مصر اللى يفهم فى الموضوع ده.. ،وقبل أن تعبر عن إندهاشك تجده يهاجمك

بحكايات لا أول لها ولا آخر ، لأنه يعلم أنه إذا توقف لحظة واحدة فسوف تنصرف عنه وتتركه لحكاياته التى إذا فكرت فيها تجدها هزلية للغاية. للغاية.

يظل الاسكندرانى آمنا فى أرضه .ولكنه يتوه خارجها –ولأنه ذكي وناضج– أنضجه البحر الذى بلا حدود برائحة يوده وحيوية فسفوره .فإنه يحدد طريقه بسرعة ..يتعامل مع إحساسه بالخوف من الآخرين ..في تقتحمهم قبل أن يقتحموه ..ولا مانع لديه من أن يدخل فى شجار عنيف حتى يلتفت الآخرون له .. لا يعمل لذلك حساباً ولا يقدر له عواقب .وكان سهلاً على بيرم التونسى الشاعر المعجون بطين الاسكندرية أن يلتقط هذا المعنى الكامن فى شخصية أهله ..

الاسكندرانى إذا تحمس

يفقد صوابه ويتطمس

لحد ما يروح متكريس

فى نقرة إبليس يخشاها

فهم يلقون أنفسهم فى النار فاردين فى الهواء قلوعهم ، وعندما يخرجون محترقين يقولون لك ببساطة ..لقد أكلناها!.

ما يحببك فى الاسكندرانى رغم ضوضائه أنه فى داخله طيب للغاية ، تغلف شخصيته مسحة حنان تجدها فى نبرة صوته ونظرة عينيه ، ولعل هذه المسحة رد فعل عكسى على قسوة البحر الطاغية ، التى تقذفهم إلى جوار الخير والرزق بأخبار الموت والدمار والغرق ، هذا الحنان تعثر إلى جواره على عاطفة جياشة تسيطر وتحكم علاقة الاسكندرانى بمدينته التى يعتبرها ظهره ومكمن إبداعه ، فالفلاح الذى يستقر فى القاهرة يمكن أن ينسى قريته والصعيدى يظل عاما أو عامين حتى يزور أرضه وأهله ، لكن الاسكندرانى لا يصبر على الفراق –يشتاق سريعا إلى رائحة البحر وصوت أمواجه ، فتجده لا يغيب عنها.. بل يظل الاسكندرانى متوتراً حتى يزور شارعه وحارته فيستعيد توازنه النفسى.

تودع الاسكندرية أبناءها سرها وتألقها فيبدعون ، شعب كله يبدع شعراء وكتاب وصحفيين ، مخرجين وممثلين وراقصات ، كل هؤلاء لا يحتاجون شهادة تؤكد تفوقهم والتاريخ طويل وممتد من عبد الله النديم إلى يوسف شاهين ، وكثرة الأسماء تغنينا عن ذكرها ، لأن حصرها يرهقنا ويعجزنا ويظهرنا مقصرين ، لكن ما يخلص ضمائرنا أن نقول أن الاسكندرانية فطروا على الإبداع ، لا فرق فى ذلك بين العالم الذى قضى حياته فى معمل ، والبائع الجوال الذى يبيع التسالى فى محطة الرمل.

إن المدينة الرائعة لا تغمر أبناءها بعبقريتها فقط، بل تتجاوزهم إلى غيرهم من أبناء المحافظات الأخرى ، حتى تكاد تحسبهم أنهم من أهلها ، يتحدثون عنها كأنهم ولدوا فيها وتربوا على نسيمها ، أسامة أنور عكاشة الكاتب الفذ وقع فى غرامها ، توافق مزاجه مع مزاجها ،فأصبح بعضا من كيانها ،



ورغم أنه من كفر الشيخ لكنه لا يكتب إلا فى حب الاسكندرية الجميلة.. راجع رائعته «الراية البيضا» ..علاقة أسامة بالاسكندرية تؤكد أن المدينة الساحرة مثل النداهة التى لا يستطيع أحد أن يرد لها طلبا ، يرحل إليها الجميع حتى ولو لم يعرفوها بحثا عن معنى مفقود، لا يجدونه بسهولة ، لكنهم لا يترددون فى العودة والإقامة والتغنى بالسحر الغامض الذى يبثه بحر الاسكندرية الكبير.

النداهة تشعر صغارها بالفخر، فلا يوجد من لا يحب الاسكندرية ، حتى الذين يكرهونها لا يستطيعون أن يجاهروا بذلك، ولذلك لا يتردد الاسكندرانى أن يعلن هويته ، الآن اسم مدينته له فعل السحر، الذين يستمعون له ستتفرق أحاسيسهم ..منهم من سيحبه إكراما لمدينته ، ومنهم من سيحسب له حسابا لأنه فهلوى ، ومنهم من سيتحاشاه حتى لا يتورط معه فى معركة فى النهاية ليست جادة فالاسكندرانى يرفع شعار «خناقة ولا سب دين» ، ومنهم من سيتركه ويرحل لأنه لا يملك شيئا يتفاخر به.

هى مدينته استثنائية.

وهو مواطن استثنائى ..

ورغم أنك قد ترفض ضخبه ..تغضب من ضجيجه -تندهش من قدرته على الحكى الحقيقى والمزيف .. تتعجب من خياله -تفزع من طول لسانه -لكنك لن تمنع نفسك من الإشفاق عليه ..فهو يبحث عن التحقق حتى ولو بالكذب .وشخص مثل هذا لا تملك أن تكرهه ..كل ما ستفعله تبتسم فى وجهه وتدهش له وتواصل استماعك لحكاياته التى تعرف إنها ليست حقيقية.!.



الشخصية المسيحية

فى رحلتها على الشاشة الفضية

انتصار بدر

بين مايقرب من ثلاثة آلاف فيلم أنتجتها السينما المصرية على مدار تاريخها ، ظلت الشخصية المسيحية تظهر على استحياء على الشاشة الفضية وأحياناً كضيف شرف، بينما لم تصل إلى البطولة المطلقة سوى ٢٣ مرة فقط !!

تلك الندرة المفرطة فى الاقتراب من الشخصية المسيحية جعلتها من المسائل الشائكة لدى صناع السينما وأجهزة الرقابة والهيئات الدينية المختلفة وحتى الجمهور وأيا ماكانت الأسباب فان الضحية هو الإنسان المصرى المسيحى الذى تخلت السينما عن همومه وتفاصيله الحميمة وعندما حاولت الاقتراب منه فى أحسن الأحوال لم تقدمه كانسان من لحم ودم.

هذا مايؤكده أرشيف السينما المصرية الذى تجولنا فى أوراقه لعلنا نعرف الأسباب.

الغريب فى الأمر أن البدايات الأولى لصناعة السينما فى مصر تشير لعدم وجود تلك الحساسية المفرطة على الإطلاق ، فبعد تجاوز السينما لمرحلة الإسهامات العشوائية للمخرجين الأجانب سواء العابرين أو المقيمين وانتقالها إلى مرحلة الصناعة الحقيقية على أيدى سينمائيين مصريين ، تحديداً فى

عام ١٩٢٣ الذى شهد عرض أول فيلم مصرى روائى قصير تحت عنوان « برسوم يبحث عن وظيفة » للمخرج المصرى محمد بيومى هذا التاريخ يؤكد أن أول بطولة مطلقة فى السينما المصرية كانت لشخصية مسيحية . وقيل وقتها إن الفيلم بداية لسلسلة أفلام تحمل اسم البطل ورغم عدم اكتمال تصوير الفيلم لا لأسباب تتعلق بالرقابة أو دواعى الأمن وإنما لوفاة الطفل محمد يوسف ابن المخرج أثناء التصوير ، مع ذلك أمكن عرض الفيلم لمدة ١٢ دقيقة باحدى دور العرض السينمائى بالإسكندرية ، تلك البداية غير المنحازة عقائديا كانت السمة المميزة للمجتمع المصرى حتى أواخر الأربعينيات.

المثير للدهشة أنه بعد هذا التاريخ المبكر بدأ احتكار الشخصية المسلمة لأدوار البطولة بينما انحسرت البطولة المسيحية لتظهر فى الأدوار النسائية فقط.

فمع بداية عام ١٩٢٨ قدمت السينما فى مصر مجموعة من الأفلام تدور أحداثها حول علاقة الزواج بين شاب مصرى (مسلم) وفتاة أجنبية(مسيحية) وكانت أحداثها تدور حول مشاكل هذه العلاقة لا من منظور دينى ولكن من منظور اجتماعى يبرز التناقض الحاد بين العادات والتقاليد الشرقية والغربية وينحاز فى ذات الوقت لتقاليد المجتمع الشرقى ، وهى أفلام « قبلة فى الصحراء» عام ١٩٢٨ إخراج وسيناريو وتمثيل ابراهيم لاما وايفون جوين وفيلم " وخز الضمير" عام ١٩٣١ ، وفيلم " أولاد الذوات" عام ١٩٣٢ وفيلم " الخطيب رقم ١٣" عام ١٩٣٣ ثم فيلم " ياقوت " عام (   ).

ولاندرى هل كان اختيار الإسلام الهوية الدينية للبطل – الذى يمثل المجتمع المصرى الشرقى – فى تلك الأفلام مقصوداً أم جاء مصادفة . على أية حال فان تنوع البناء الاجتماعى فى ذلك الوقت واختلاف انتماءاته العقائدية والجنسية حتى أواخر الأربعينيات يجعلنا نستبعد فكرة القصدية ، خاصة وأن السينما قدمت فى عام ١٩٣٧ أى بعد أكثر من عشر سنوات من عرض فيلم " برسوم يبحث عن وظيفة" سلسلة أخرى من الأفلام تحمل اسم البطل ولكنه فى هذه المرة يهودى الديانة ، هذه الأفلام هى " شالوم الترجمان" و" شالوم الرياضى " و" العز بهدله" من إنتاج وإخراج توجو مزراحى وتصوير عبد الحليم نصر وتدور أحداثها فى شكل كوميدى محبب جماهيرياً وقد حرصت الأفلام الثلاثة على إظهار الأسرة اليهودية مجاورة للأسرة المسلمة وربطت بين أفرادها بعلاقات صداقة وطيدة فى إطار من تفاصيل الحياة اليومية المتشابكة.

اللافت للنظر هو غياب الشخصية المسيحية أكثر من عشرين عاماً واختفاؤها عن الكادر السينمائى تماماً قبل أن تعود للظهور على شاشة السينما فى فيلم " حسن ومرقص وكوهين " اخراج فؤاد الجزايرلى فى بطولة جماعية إلى جوار البطل المسلم والبطل اليهودى والفيلم مأخوذ عن مسرحية لنجيب الريحانى ولعب أدوار البطولة فيه عبد الفتاح القصرى (حسن) ومحمد كمال المصرى (شرفنطح) فى دور (مرقص) واستيفان روستى فى دور (كوهين) ورغم تأكيد الفيلم على مفهوم الوحدة الوطنية بين

الأبطال الثلاثة إذ قدمهم الفيلم باعتبارهم شركاء فى المال والمصلحة وأصدقاء فى الحياة وجعلهم يرددون فى آخر الفيلم جملة (كلنا إيد واحدة) إلا أنه وضع صفات محددة لكل شخصية تمثل الديانة التى تنتمى لها مستعينا بالموروث الشعبى السلبى تجاه تلك الشريحة وهى للأسف الصورة التى ترسخت فى أذهان المصريين حتى وقتنا هذا ، فقد وصف كل شريك من الشركاء الثلاثة فى كتالوج الدعاية كما يلى (حسن) المسلم الذى يتميز بالسماحة والإندفاع وسرعة الغضب والرضا وسهولة الانقياد لشريكيه ثم وصف (مرقص) المسيحى بالمكر والدهاء والتظاهر بالطيبة وحدد البلدة التى ينتمى إليها فى صعيد مصر (أسيوط) ومن العجائب أنها ذات البلدة التى كانت بؤرة للجماعات الدينية وشهدت أعنف حوادث العنف ضد الأقباط فى الربع الأخير من القرن الماضى ، أما اليهودى فقد وصفه بالخبث والذكاء ولصق به أحط الصفات مثل قوى على الضعيف وضعيف أمام القوى، ويؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة وهى صفات أيضا ظلت لصيقة باليهودى فى الوجدان المصرى حتى الآن.

كما جاء وصفهم بكتالوج الدعاية من حيث الترتيب على النحو التالى المسلم أولاً ثم المسيحى ثم اليهودى وان كنا نستبعد القصدية فى هذه المسألة لارتباط ترتيب أسماء الممثلين بدرجة النجومية وقيمة الأجر وهو عرف فى الوسط الفنى.

ويتأكد التنميط السابق ذكره فى الطبعة النسائية من الفيلم الذى عرض عام ١٩٤٩ تحت عنوان " فاطمة وماريكا وراشيل " انتاج وإخراج حلمى رفله ويأتى التنميط هذه المرة مع درجة من الانحياز الدينى الغير صريح ، فالبطل الأول مسلم والبطولة النسائية (المسيحية) جاءت من الدرجة الثانية على عكس الفيلم السابق الذى جاءت فيه البطولة جماعية وبالتساوى ثم جاءت أحداث الفيلم فى نفس الإتجاه حيث تدور الأحداث حول شاب مستهتر يحاول الإيقاع بأى فتاة مهما كانت جنسيتها أو ديانتها بالتحايل على أسرة كل فتاة تنتمى إلى دين معين مدعياً انتماءه لهذا الدين وإلى نفس الأصول التى جاءت منها ومقلداً كل صفاتها التى جاءت تكريساً لنفس صفات كل ديانة فى فيلم (حسن ومرقص وكوهين) ثم فى النهاية يرتبط الشاب المسلم بالفتاة المسلمة (فاطمة) لنبل أخلاقها وقوة شخصيتها وعزة نفسها على عكس الأخريين وحتى لايقع الفيلم فى دائرة الاستهجان جعل كلا من الشخصية المسيحية واليهودية من أصول أجنبية وفى إطار مواقف كوميدية تعتمد على المفارقات الصارخة طوال أحداث الفيلم.

فى ٣ مارس عام ١٩٥٢ ظهر الإنحياز العقائدى واضحاً فى فيلم " ليلة القدر " مما أثار حوله جدلا شديدا حيث تعرض الفيلم لعلاقة زواج بين شاب مسلم يتمسك بتعاليم الاسلام ويدعو إليها من فتاة مسيحية بعد إشهار إسلامها وسط معارضة شديدة من أسرتها وإصرار هذه الأسرة على منع زواج ابنتها عن طريق إفساد أخلاقها بالحفلات الخلاعية التى يفهم منها أنها عادات مسيحية.

ويعتبر هذا الفيلم بداية لتدخل المؤسسة الدينية وفرض سلطتها في منع وعرض الأفلام السينمائية فيما بعد ، حيث استفز الفيلم جميع رؤساء الطوائف الدينية المسيحية وذهب مندوبهم للإجتماع بمدير الرقابة على الأفلام بوزارة الداخلية ، كما أرسل رئيس لجنة تقدير الفيلم الأدبية للأفلام في المركز الكاثوليكي رسالة إلى الأنبا يوساب بابا الكرازة المرقسية في ٦ مايو ١٩٥٢ يطالبه فيها باتخاذ كافة الإجراءات المناسبة لمنع عرض الفيلم وبعد أن تحققت إدارة الأمن العام من أن عرض الفيلم كان سبباً في بعض الاحتكاكات داخل صالات العرض قررت الرقابة على المصنفات الفنية منعه وقيل وقتها أن الجماهير أحرقت دور العرض بالأقاليم.

وبعد قيام ثورة يوليو أسرع حسين صدقي – مخرج الفيلم وبطله – بتقديم الفيلم إلى الرقابة ووافقت على عرضه وقدم حسين صدقي الفيلم باعتباره فيلم الاتحاد المقدس بين عناصر الشعب المصرى وجاءت الأفيشات مليئة بعبارات من نوعية " وغداً يفرح الأحرار أنصار العدل عن فيلم الروح والوطن والانسانية، ووصفت الدعاية حسين صدقي باعتباره فناناً مؤمناً بربه وبفنه ورسالته ، ومع إعادة عرض الفيلم ثارت الأزمة من جديد فأرسل رئيس المركز الكاثوليكي المصرى للسينما رسالتين لرئيس الجمهورية محمد نجيب طالبه بمنع العرض ووافقه محمد نجيب حرصاً على الشعور العام لكن حسين صدقي يعود في عام ١٩٥٤ لمحاولة لعرض الفيلم بعد تغيير اسمه إلى (الشيخ حسن) ونجح بالفعل في عرضه وقدمه له بعبارة (اليوم يتحقق مبدأ الفن في خدمة الاسلام) وكتب على الأفيش (إيراد الحفلة الأولى تم تخصيصه للمؤتمر الاسلامي) وهكذا أفلت الفيلم بعد أن وافق الرئيس جمال عبد الناصر حتى لا يتعرض الوفد المصرى المشارك في المؤتمر الاسلامي للحرج.

هذا الفيلم بما أثير حوله من صدامات فعلية ونتيجة للأثر السيئ الذى أحدثه في نفوس المسيحيين والكنيسة المصرية سبب قلقاً بالغاً للمخرجين من تقديم أفلام تقترب من الشخصية المسيحية في صورتها الإنسانية وجعلهم يكتفون بتقديمها في شكل هامشى خطى وحصرها في أدوار الصراف ، وموظف الحسابات ، ناظر العزبة .. الخ باعتبارها وريثاً للشخصية اليهودية التى كانت تتولى تلك الأعمال قبل رحيلها عن مصر ولكن في صورتها الإيجابية ودائما ، هذا في الوقت الذى تم فيه تناول الشخصية المسلمة في كافة صورها وفي جانبيها السلبى والإيجابى على حد سواء حتى شخصية رجل الدين المسلم لم يتردد المخرجون في تقديمها على الشاشة دون حرج ورأيناه في صورة الفاسد الداعم للسلطة في الزوجة الثانية والجبان في فيلم شئ من الخوف (المأذون) والرجل الهلس في فيلم الأرض.

وعبر رحلة البطولة للشخصية المسيحية في السينما نصل إلى فيلم (حسن وماريكا) عرض عام ١٩٥٩ للمخرج حسن الصيفي وقام ببطولته مها صبرى / اسماعيل يس / عبد السلام النابلسى و ينتمى الفيلم إلى سينما اللامصفوف وتدور أحداثه حول تنافس شابين مسلمين على حب فتاة مسيحية

من أصل يونانى وعلى طريقة النهايات السعيدة حل المخرج المأزق بأن الفتاة طلعت بنت رجل مسلم ، ولاندرى هل نستثنى هذا الدور من أدوار البطولة للشخصية المسيحية أم نعتبره زيادة عدد ، المهم أنه منذ فيلم وخز الضمير حتى الفيلم السابق نستثنى فقط فيلم (حسن ومرقص وكوهين) كانت البطولة المسيحية دائما أجنبية أو من أصول أجنبية والشخصية المسيحية المصرية الحقيقية مختفية .

الأهم من ذلك كله أن هذه الأفلام جميعا أكدت على استبعاد الآخر وجعلت المشاهد فى صالات العرض نصفين الأول مسلم يضحك إلى حد البقاء والآخر مسيحى يبقى حتى الموت.

بداية من عام ١٩٦٣ تتجاوز السينما حاجز النمطية والسطحية وأيضا التهميش فى التعامل مع الشخصية المسيحية وتقدمها فى ثوب البطولة مرتين فى عام واحد شخصية عيسى بن العوام فى فيلم الناصر صلاح الدين أداها الفنان صلاح ذو الفقار وشفيقة القبطية ولعبت الدور الفنانة هند رستم وقد نجح كلا الفيلمين فى تقديم الشخصية المسيحية حية وثرية بالمعانى الإنسانية ، ففى الفيلم الأول استطاع يوسف شاهين أن يقدم الشخصية المسيحية الوطنية ، الواعية لحقيقة الغزو الأوروبى رغم تستره تحت راية الصليب ، كما قدمها فى عمقها الانسانى واحتفظ لها بتفاصيلها المسيحية الخاصة وفى حالة إنسجام مع الآخر المسلم دون افتعال ، على الجانب الآخر تألق حسن الإمام فى رسم شخصية شفيقة المرأة ورصدها بشكل دقيق فى رحلة صعودها إلى عالم الشهرة وفى سقوطها ، فى جبروتها وعظمتها وفى ضعفها وإنسحاقها وقد استطاع الإمساك بأدق مشاعرها كامرأة إلا أن الحساسية المفرطة التى كانت قد تشكلت لدى المسيحيين جعلت الفيلم يتعرض لانتقاداتهم الشديدة بسبب أحد أفيشات الفيلم جاء فيه شفيقة الغانية التى حكمت مصر بحيث إعتبرها البعض منهم إساءة للمرأة المسيحية وكأنها امرأة غير كل البشر ، تلك الحساسية التى دفعت حسن الإمام لاستشارة رجال الدين فى الفاتيكان قبل أن يبدأ تصوير فيلمه التالى (الراهبة) الذى عرض عام ١٩٦٥ ولعبت بطولته أيضا هند رستم وقد نجح حسن الإمام فى تقديمها أيضا كشخصية من لحم ودم والفيلم يحكى قصة فتاة مسيحية تفشل فى الحب فتتجه إلى الدير ولأنها لم تكن مؤهلة لذلك تعود إلى الحياة خارج الدير وتدفعها الصدمات للحياة الأكثر صخبا حتى تتعرض لصدمة أشد فتعود مرة أخرى للدير ، والفيلم بذلك يناقش قضية فى حد ذاتها مهمة للغاية وهى علاقة الرهبنة واختيار حياة العزلة بعد الصدمة التى يتعرض لها الإنسان وإن لم يركز الفيلم على هذه القضية كثيراً وقد تعرض الفيلم لانتقاد الكنيسة التى رأت أن الفيلم كان من الواجب أن يجعل الفتاة تدخل الدير عن إقتناع وهى رؤية تتعارض مع المنطق الفنى وتحد من جرأة الفنان على تعرية الواقع وتناقضاته.

والملاحظ فى هذا الأمر أن السينما عندما تتعرض لقضايا الوحدة والانتماء الوطنى لاتتعرض للنقد على عكس ذلك تجد الكثير من النقد والاعتراض عندما تتعرض للحياة والواقع والقضايا الإنسانية

وهذا مادفع السيناريست " صبرى موسى" ودنيا البابا لتعديل سيناريو فيلم (البوسطجى) المأخوذ عن رواية (دماء وطين) للكاتب يحيى حقى الذى تعرضت لقضية غاية فى الخطورة تمس المجتمع المسيحى وهى العلاقة بين مسيحيين من طوائف مختلفة ، فلم يجرؤ كاتبا السيناريو على ذكر هذا طوال الفيلم بل أن المخرج حسين كمال آثر عدم الإعلان عن الهوية الدينية لأبطال فيلمه واكتفى بالتعبير عنها بوضع سعاف النخيل وصورة العذراء فى بيت البطلة معتمداً فى ذلك على ذكاء المشاهد وربما لهذا السبب وحده أفلت الفيلم من عواقب غير محمودة وتم عرضه عام ١٩٦٨.

يختفى البطل المسيحى من الكادر السينمائى بضع سنوات قبل أن يعود عام ١٩٧٥ فى فيلم (لقاء هناك) اخراج أحمد ضياء بطولة نور الشريف وسهير رمزى وتدور أحداثه حول علاقة حب بين شاب مسلم وفتاة مسيحية وفشلهما فى الارتباط نتيجة للتقاليد الاجتماعية والدينية التى تؤدى فى النهاية لزواج الشاب من ابنة خالته المسلمة ودخول حبيبته المسيحية الى الدير وباعتبار الفيلم يناقش نوعاً من العلاقات الشائكة لدى المسيحيين رفضت الرقابة التصريح بعرضه قبل الرجوع للأزهر والبابا وذهب المخرج بالسيناريو لكليهما فاعترضت الكنيسة على هروب الفتاة للدير بسبب قصة حب فاشلة وطلبت أن يكون دخولها الدير عن اقتناع وبعد أن أبدى كل منهما ملاحظاته والتزم بها مخرج الفيلم تم التصريح بالموافقة وفى اليوم الأول للعرض حضر البطريرك مكسيموس الخامس حكيم بطريرك الروم الكاثوليك وسكرتير المكتب الكاثوليكى وعدد من رجال الكنيسة للتأكد من هذا الالتزام تم احراق احدى الكنائس أثناء فترة العرض واضطررت الرقابة لمنع الفيلم وفشلت كل محاولات عرضه بعد ذلك.

تعد الأفلام الثلاثة لسلسلة السيرة الذاتية ليوسف شاهين والتى بدأها بفيلم (اسكندرية ليه) عام ١٩٧٩ وتبعها بفيلم (حدوته مصرية) عام ١٩٨٢ ثم فيلم (اسكندرية كمان وكمان) عام ١٩٩٠ وكان البطل فيها مسيحى – يوسف شاهين نفسه – لقد كان هذا البطل حالة خاصة جداً ومنبع خصوصيتها جرأة شاهين فى التمرد على المألوف والثابت واصراره على مراجعة كل شئ وتعرية كل شئ حتى نفسه متجاوزاً كل إشارات المرور خاصة فى تصويره الأسرة المسيحية فى أخص خصوصيتها وتعامله معها باعتبارها شريحة اجتماعية تمثل الطبقة المتوسطة بكل عيوبها وفضائلها.

وقد لعب أدوار البطولة فى الأفلام الثلاثة على التوالى محسن محيى الدين (اسكندرية ليه) ، نور الشريف (حدوتة مصرية) يوسف شاهين مناصفة مع (عمرو عبد الجليل) (اسكندرية كمان وكمان)

شهدت التسعينيات إقبالاً متزايداً على تقديم الشخصية المسيحية فى أفلام تطرح رؤية سينمائية جديدة وجريئة رغم المتغيرات التى طرأت على الساحة السينمائية وبالأخص سوق توزيع الفيلم التى هددت صناع السينما بعدم توزيع أفلامهم فى بعض الأسواق العربية مثل السعودية إذا كان البطل مسيحيا وكان أكثر تلك المحاولات جرأة لمخرجين شبان.

ففى عام ١٩٩٣ قدم المخرج يسرى نصر الله فيلم (مرسيدس) وهى التجربة الثانية له فى الإخراج بعد فيلمه الأول سرقات صيفية تدور أحداث الفيلم حول شاب مسيحى غريب الأطوار (نوبى) يحاول البحث عن ذاته وفق أحداث تبدو منطقية والفيلم فى مجمله يناقش ازدواجية الرؤية فى الأحداث والأشخاص الذين يتناولهم منذ معركة ٥٦ وحتى أحداث الخليج عام ٩١ ، الجدير بالذكر أن الفيلم علاوة على جرأته فى الطرح السينمائى الذى يقدمه فى ذات الوقت ممثلاً جديداً فى دور البطولة المطلقة هو زكى فطين عبد الوهاب المخرج بعد ذلك.

وفى عام ١٩٩٦ يقوم المخرج أمالى بهنسى بتقديم أول أفلامه (التحويلة) قصة مصطفى أبو ذكرى والفيلم يتعرض لماهية العلاقة بين المسلم والمسيحى وماطرأ عليها من تغيرات عصفت بالمجتمع بعيداً عن الرسائل السطحية الموجهة عن الوحدة الوطنية فى عدد من أفلام تلك الفترة وتدور أحداثه حول شاب مسيحى يساق إلى السجن بدلاً من آخر مسلم وفشله فى إثبات هويته نتيجة لفاشية الضابط الذى قاده إلى ذلك ويتعاطف مع الشاب ضابط مسلم مما يؤدى لاعتقاله وينتهى الفيلم بتصفية كل من الشاب المسيحى والضابط الذى تعاطف معه على يد الضابط الفاشى وتمتزج دماؤهما معا فى مياه النيل قام بالبطولة نجاح الموجى (الشاب المسيحى) ، أحمد عبد العزيز (الضابط الفاشى) فاروق الفيشاوى (الضابط المسلم المتعاطف) لكن الفيلم الذى تجرأ واقترب من حقل الألغام المسمى (مسلم ومسيحى) كان قد تجرأ واقترب من حقل ألغام آخر هو (أجهزة الأمن) التى رأت أن الفيلم يسئ إليها فقررت منعه ولم تفلح محاولات المخرج والممثل نجاح الموجى فى اقناعها بعرض الفيلم.

وفى عام ٢٠٠٠ ينجح فيلم (الكلام فى الممنوع) إخراج عمر عبد العزيز ، سيناريو وحوار ناجى جورج فى الوصول إلى صالات العرض بعد أن ظل حبيساً بالأدراج لمدة ثلاث سنوات بسبب الرقابة وظروف الانتاج والتوزيع والكلام فى الممنوع ذاته.

والفيلم يقدم إضافة جديدة فى التعامل مع الشخصية القبطية حيث أنه خرج عن صمت السينما المصرية وخوفها الدائم من تقديم صورة المسيحى كمجرم أو تاجر مخدرات بشكل أكثر جرأة وأقل حساسية فهو يقدم الدكتور رياض المسيحى (ماجد المصرى) فى دور مجرم هارب من العدالة بعد الحكم عليه بالإعدام فى جريمة قتل لم يرتكبها ، ويقتنع ببراءته الضابط المسلم المكلف بالبحث عنه (نور الشريف) ويقرر إثبات براءته فيدخل إلى عش الدبابير (الممنوع) بمستشفى الأمراض العقلية حيث تجرى ممارسة أبشع أنواع الإتجار فى المخدرات من خلال شبكة فساد يتورط فيها أطباء وشخصيات لها وزنها وثقلها فى المجتمع وتتواطأ معهم خطيبة الدكتور رياض (منى عبد الغنى) التى دفعها الجشع للزج بخطيبها فى جريمة لم يرتكبها تقوده إلى غرفة الإعدام.

والفيلم الثانى الذى أفلت من أزمة السينما بعد قيام بطله محمود حميده بانتاجه (جثة الشياطين)

إخراج أسامة فوزى وشارك فى بطولته ليلبة ومجموعة من الممثلين الشبان والفيلم مأخوذ عن رواية للكاتب البرازيلى لجورج أمادو وتدور أحداثه حول (طبل) الذى يموت فى أول لقطة فى الفيلم نتيجة جرعة زائدة من المخدرات ويظل كذلك طوال أحداث الفيلم وهى جرأة من محمود حميدة تحسب له الذى قام بدور الميت الحى فى أروع مايكون أما أصدقاؤه الذين شاركوه حياة الصعلكة فيرفضون تصديق فكرة موته ويقررون ممارسة حياتهم اليومية وهو فى صحبتهم رغم موته حتى تأتى ابنته من أجل مراسم دفنه حسب التقاليد المرسومة فتتكشف هويته المجهولة لدى أصدقائه تلك الهوية التى تعلن عن اسمه الحقيقى وعائلته وطبيعة الحياة التى رفض أن يعيشها قبل أن يلتقى بهم وهى نفس اللحظة التى نكتشف فيها نحن المشاهدين أنه مسيحى من خلال طقوس الدفن والفيلم من خلال تداعيات الأحداث يناقش معنى الحياة ومعنى الموت ويطرح سؤالاً فلسفياً عن من يموتون وهم أحياء ومن منا يحيا رغم موته.

وأخيراً نصل فى رحلتنا مع الشخصية المسيحية إلى المحطة الأخيرة ففى عام ٢٠٠١ قدمت السينما المصرية بالاشتراك مع السينما اللبنانية فيلما تحت عنوان " بطل من الجنوب – عزيز عينى " إخراج محمد سيف ، سيناريو وحوار أشرف محمد والفيلم مأخوذ عن القصة القصيرة (الشيخ عبد الله) لشريف الشوباشى وتدور أحداثه حول الحرب الطائفية والتعصب الدينى أثناء الحرب الأهلية فى لبنان من خلال أم مصرية مسيحية لعبت دورها (نجلاء فتحى) تفقد ابنها عزيز ،قام بدوره (جوزيف بونصار) أثناء زيارتها للبنان خلال الحرب وتعثر عليه أسرة لبنانية مسلمة ويصبح ابنا لها وتقوم الأم اللبنانية المسلمة (كارمن لبس) بتنشئة مسلمة وتتوالى الأحداث معبرة عن صراع الأم المصرية واللبنانية على الابن من ناحية وبين الابن الذى أحب جارته مريم المسيحية وأخيها من ناحية أخرى وعلاقة كل منها بأطراف النزاع الطائفى فى لبنان من ناحية ثالثة وتأثيرها على شخصيات الفيلم الذى ينتهى بموت مريم وانضمام الابن إلى كشوف المتطوعين فى المقاومة ضد إسرائيل العدو الحقيقى تحت اسم (عبد الله عزيز) إشارة لاختيار الديانتين أبناء الوطن الواحد ضد المحتل

ولايفوتنا الإشارة إلى أنه جارى الآن إعداد فيلمين البطولة فيهما لشخصية مسيحية كاستمرار لصحوة السينمائيين المصريين فى العشر سنوات الأخيرة وتمردهم على الأوضاع السائدة وإصرارهم على رد الاعتبار للشخصية المسيحية ووضعها فى مكانها الصحيح أما الفيلم الأول هو (فيلم هندى) وقد تعذر البدء فى تصويره لأكثر من خمس سنوات لإحجام بعض نجوم الشباك الجدد عن القيام بدور شخصية مسيحية خوفاً من هبوط جماهيريتهم وفقدان بعض أسواق التوزيع فى الدول العربية أما الفيلم الثانى(باحب السينما) انتاج وبطولة محمود حميده فى ثانى تجربة سينمائية جريئة له بعد فيلم جنة الشياطين مما يدعونا لرفع القبعة له ولكل المبدعين المهمومين بفن السينما وقضايا الإنسان فى بلدهم وعرض قضاياها الحقيقية فنيا.

في الصفحات القادمة

وقائع ندوتين

من ندوات

أدب ونقد

ناقشت فيهما

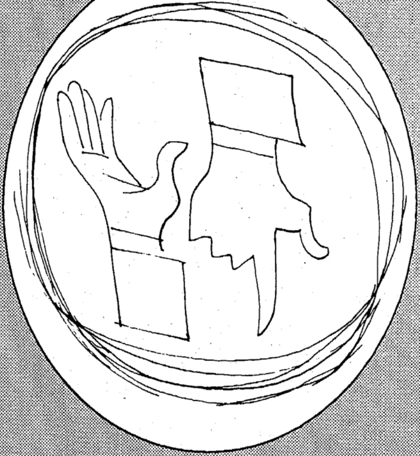
عملين جديدين

لشاعر واعد هو

عيد عبد الحليم

ورواية للمبدع

عصام راسم فهمي



ظل العائلة .. ولغة الحنين

الحكروب أوراق المكان والألم

ظل العائلة .. لغة الحنين

متابعة: صفاء النجار

استضافت الندوة الأدبية لمجلة« أدب ونقد» الشاعر عيد عبد الحليم لمناقشة ديوانه الثاني« ظل العائلة» شارك في المناقشة الناقد والروائي د. بهاء عبد المجيد والشعراء غادة نبيل وكريم عبد السلام وخالد حريب والقاص السوداني عبد الحميد البرنس ، وادارتها القاصة والإذاعية صفاء النجار

في البداية أكد الناقد د. بهاء عبد المجيد أن الديوان حالة إنفعالية خاصة تنم عن روح خاصة لشاعر صاحب حساسية مختلفة ولغة خاصة به -تماماً- هذا إلى جانب قدرته الفائقة على بناء التشبيهات المعقدة والمرتكزة على وعى عقلى بالعملية الشعورية ، بهدف توصيل المعنى بأقل عدد من الكلمات ، فالديوان متعدد التيمات ، كل قصيدة تحمل تيمة معينة تصلح لأن تكون كتابا كاملا حيث الانطلاق من الذات إلى موضوعات كونية ذات أبعاد إنسانية ، مع ترك مساحة للتأثير الانفعالي للقصائد على ذهنية القارئ ، كما أن للشاعر قدرة على رسم صور تعبيرية تأخذ المتلقى إلى مناطق شعورية وانفعالية عميقة ،

وإن بدت -للوهلة الأولى -سلسة وتلقائية لكنها- في الحقيقة تتميز بعمق نفسي وفلسفي مراوغ، ويتجلى ذلك في احدى القصائد الأولى في الديوان وهي قصيدة «سيناريو قديم» حيث يقول عيد عبد الحليم:

الجثة هامدة
في أول المنزل
فمن الذى أشعل النسيان
على الحوائط
وترك دمى
بين أصابع العائلة

فنجد في هذه القصيدة الاستفادة من ذكريات الماضى والطفولة في طرح تيمة «الاغتراب» أو «الوحدة» وهي تيمة بدأت منذ فترة كبيرة في الآداب العالمية خاصة الأدب الانجليزى ، وهي تعبر عن فكرة صدمة المدينة وصدمة العلاقات الاجتماعية والانفصال عن العائلة ، لكن عيد عبد الحليم يتميز بعدم صراخه في تعبيره عن هذه الصدمة التى يعبر عنها بشكل يصل إلى عدم جرح إحساس الآخر / ساكن المدينة، معتمداً في كتابته على

النوستولجيا» حيث يمتد الخط الانفعالي -بلانتوءات -داخل النص الشعري والذي يجئ بشكل أقرب إلى الإكتمال في قصيدة على مقعد قريب» التي يقول فيها عيد:

هبطوا من قراهم
-بدهشة-
وصعدوا للمقاهي
بيد لم تكتمل أصابعها
،ارتبكوا في« المصاعد»
أزاحوا الغبار عن الهواء
ثم بكوا-كثيرا-
حين شاهدوا الملائكة
تبصق في وجوههم الجديدة

حالة الفانتازيا

وأضاف د. بهاء عبد المجيد أن معظم القصائد مرتبطة بذات الشاعر تصل إلى حالة اعترافية حيث الذات هي نقطة الانطلاق الأولى والمشكل الخيالي الذي تبنى عليه قيم شعرية لانهائية مولدة من حالة ذاتية بسيطة لها القدرة على بناء صرح كبير قادر على الولوج إلى عالم متسع يصل إلى حالة من الفانتازيا واللامعقول في كثير من الأحيان .

وأشار د. بهاء إلى احدى التيمات الرئيسية في تجربة عيد عبد الحليم وهي الانفعال المؤسس» كثله في ذلك مثل« إليوت» و«كتيس» الذي «أكد أن القصيدة إذا لم يوجد بها الإنسان وإن لم تنبع من شعوره كما تنبت الورقة من الشجرة لن تكون هناك قصيدة».

ولعل التيمة المشكلة للنص الكلي هي «العلاقات الفرويدية الأسرية» فالعائلة هي المعادل الموضوعي للاغتراب المتأصل بداخل الشاعر بسبب عوامل عديدة منها ضياع الأحلام وتسرب الأماني وانهيار الفعل الجمعي.

وفي الديوان استدعاءات لدال «الأم» التي تفرض استدعاءات كثيرة لأعمال أدبية خالدة سواء ما كان منها إيجابيا أو سلبياً مضفرة بايحاءات دينية وفلكلورية.

ويتجلى ذلك منذ بداية الديوان حيث يقول الشاعر في صفحة الاهداء «إلى أمي .. زهرة الحنين في زمن القسوة ، وإلى كل من زرع المحبة في أحراش الآخرين ونام في أحضان اليوتوبيا».

لكن احتضان الأم يقابله صورة أخرى هي نبذ الأسرة والأب لهذا الكائن يقول الشاعر في قصيدة «عزلة الحواس»

«سيطردنا الأب من حقله
في الظهيرة»

وتظهر صورة الأب أكثر في قصيدة «صلاة خاصة لمحارب قديم» والتي تمثل مركزية النص، بما تتميز به من لعبة الاحلال والإبدال وإن كانت كلماتها جاءت بصورة مألوفة إلا أن الروح الشعرية لعيد عبد الحليم أكسبتها معان جديدة.

صياغة حلزونية

أما الشاعرة غادة نبيل فقد أشارت إلى أن

الديوان «ظل العائلة» به لغة تحاول أن تعرض ألمها الخاص بعيداً عن الحزن الأعرج حيث يوازن الشاعر بين تراكيب الصور والمواقف المحسوسة من ناحية والصور المتصلة بالتشكيل والتخيل من ناحية أخرى ، ويوظف سخريته بداخل طبقة من الهدوء الظاهرى فى لغة الوصف أو السرد الشعرى.

وتدليلا على السخرية يقول فى إحدى مقاطع الديوان :

لن تجلس– بعد الآن–معى

لن اسميك صديقاً

بعد أن أعترفت باخلاصك لى

بالاضافة إلى وجود صياغات حلزونية أو عنقودية داخل القصائد الأطول نسبياً ويحق للشاعر أن يسمى ديوانه «ظل العائلة» حيث هاجس الانتماء العائلى والريفى والانتزاع القسرى من البيئة أو القرية، أى صدمة المدينة ، ويرتبط هذا بالتأكيد بعدم الفطام العاطفى عن الأم التى يمكن أن تحل الحبيبة مكانها ومما يدل على ذلك استخدام الشاعر لتعبيرات مثل« عشب العائلة» و«بين أصابع العائلة» و «دخان العائلة» وغيرها .

وأضافت غادة أرجح أن منطق الحزن هو ما يحفظ لغة«عيد عبد الحليم» من جموح التجريب القصدى حيث أنه لا يفتعل لغة قد تكون معاكسة للحالة التى تتلبسه وأحيانا يستخدم «عيد عبد الحليم» ذلك الجناس الموظف ليقدم معنى وسياقا جديدا ، وأدلل على هذا بقوله:

جسدى عار– تماما–

وبطاقتى تخلو من أسماء من رحلوا فهل تقدر أمى

أن تعيدنى إلى الغربال –ثانية

كى أسمع كلام الغرباء

كما أن عيد عبد الحليم يمتلك معجماً نفسياً تتوارد فيه كلمات مثل «الأصابع، السماء ، البحر ، أطفالنا» وإلى غير ذلك من مفردات ، لكنه ينجح فى ألا يقع فى فخ التأسى على الذات كثيراً فى هذا الديوان رفيع الحزن.

العنوية والأسئلة

أما الشاعر كريم عبد السلام فقد وصف الديوان بالعنوية الشعرية وأشار إلى أن قراءة ديوان عذب تعد مشكلة كبرى ، فالعنوبة هنا تعنى السعى إلى الاقتراب الحميم من الأشياء.

لكن يتبادر إلى الذهن سؤال مهم ، كيف تتحقق العنوبة هنا؟. إنها تتحقق بالسعى البناء لعيد عبد الحليم فى بناء قصائده ويتضح ذلك من لجوئه إلى العناوين المقطعة، بالاضافة إلى إتكائه إلى ما يعرفه بالتأكيد– وما علق بذهنه من ممارسات وأفعال وذكريات عن العائلة حيث يقترب الديوان من الذاكرة فى عالم أصبحت فيه كلمة «الاغتراب» كلمة هينة ، فنحن بحاجة إلى كلمة تقترب من الوحشية لتعبر عما يعانيه المثقف فى تلك اللحظة، وأظن أن «عيد عبد الحليم» أقترب من هذا الإدراك وإن كان لم



عيد عبد الحليم

ظل العائلة

غرر

يتمثل هذا المعجم الوحشى ، فى محاولته للدفاع عن نفسه ، فالشاعر لم يعد له -الآن-سوى ذاته بحثا عن أسئلة لا إجابات لها.

وأضاف كريم- أشعر أن الديوان نص طويل ممتد باستثناء قصيدة «بعد الحرب» وجزء« الحطابون» من قصيدة «صلاة خاصة لمحارب قديم» ويمكن أن يلحق بهما قصيدة «عود ثقاب قد يضئ الممر» حيث الدخول لعالم غرائبى فالديوان حالة واحدة أثقلتها -نسبيا -بعض العناوين.

وأكد القاص عبد الحميد البرنس- فى مداخلته -إلى أن «ظل العائلة» كعنوان يمثل تيمة دالة، بمعنى أن ظل العائلة قد يبدو معناه السريع «الحماية» ، لكن المعنى الحقيقى يبدأ من التناغم بين الصورة السمعية والصورة الذهنية والتى يتم تدعيمها من خلال الإهداء نفسه من تفعيله رمزية «الحنين».

وأضاف البرنس : المنطقة التى يتحرك فيها الشاعر تتمثل فى دعامتين أساسيتين هما الحكمة والسؤال كتقنية مستخدمة لإعادة صياغة الماضى بصورة أفضل إنطلاقا من اليومى بإتجاه الأسئلة الكبرى.

وأوضح الشاعر خالد حريب- فى مداخلته -إلى أن الفترة الزمنية بين صدور الديوان الأول لعيد عبد الحليم وهو «سماوات واطئة» وديوانه الثانى «ظل العائلة» فترة زمنية قصيرة لم تتجاوز العامين مما يجعل من الديوانيين حالة واحدة.

وأضاف حريب أن عيد عبد الحليم يجتهد فى أن يكون صوتا شاردا ونغمة مختلفة عن الضجيج الذى يثيره عشرات الشعراء -الآن- الذين استسلهوا النص فأصبحوا يكتبون قصائد تشبه غسيل الوجه ، فعيد يحاول أن يقبض على براءته ، دون أن يخضع لإرهاب النص الموجود فى الدوريات والمجلات والمقاهى.

الحكروب .. أوراق المكان والألم

متابعة: نجوى على

عقدت مجلة «أدب ونقد» ندوة لمناقشة رواية« الحكروب» للروائي الأسواني عصام راسم فهمي.. تحدث فيها د. رمضان بسطاويسى ود. مصطفى الضبع والقاص أحمد الشريف مع مداخلة من الناقدة غادة نبيل.

تحدثت مقدمة الندوة نجوى شعبان فأشارت إلى أنه عادة ما تأتى الدرر واللآلى الفنية من الجنوب وأن رواية «الحكروب» للكاتب الأسواني عصام راسم فهمى هى الأولى له، غير أن نضجها يشى بأنه قد سبقتها محاولات كثيرة للكتابة ، بل ربما كانت الكتابات السابقة إبداعاً وليس محاولات «الحكروب» رواية تمس حياتنا ليس فى الفترة الراهنة فقط ، بل لخمسة عقود قادمة، فلا يزال الجدب الروحى كما جبل« الحكروب» فى شكله الجغرافى، جدب التضاريس وقفزها وتعرجاتها ، كل ذلك اناخ على نفسية ناس هم أيضا يعانون الجدب الروحى فيما عدا شخصية أو أثنين «وهما شخصية خال الراوى والأم، والرواية مكتوبة بلغة شاعرية عالية، قد تصل إلى الغنائية أحيانا وصولا إلى درجة رثاء الذات الشئ الذى لا يتعلق بالراوى وحده بل بغالبية الشخصيات التى يقول لسان حالها (ليس باليد حيلة).

تنهل الرواية من تاريخ مصر فى أدق مراحلها ، فالخال الذى قدم من جسده وأعضائه قربانا لتحرير الوطن، قد أصيب فى جسده وفى نفسيته ، لكنه ظل أبداً حتى اللحظة الأخيرة صلب الروح ، هذه الصلابة هى الايجابية الرائعة والنور الأخير فى نفق مظلم، ضمن شخصيات تتصارع طوال الوقت مع نفسها ومع احتياجاتها ، والراوى نفسه متعطل أغلب الوقت، وقد لجأ المؤلف عصام راسم فهمى إلى حيلة ذكية بتقديم تذاكر للكشف الطبى أو طلب لمأمورية الضرائب أو غيره كنوع من الوثيقة هى تذاكر طبية تخص الراوى وخطيبته وأبيه ، وطلب لجهة حكومية تفيد بأنه قد يعمل بالتجارة الحرة ، ثم طلب وقف الترخيص ليعود للعمل بمصنع الثلج هروبا من تعطله ،كأنما هى دائرة شريرة احكمت حلقاتها حول الشخصيات ،فليس ثمة طريق للخلاص.

سطوة المكان

وتحدث القاص أحمد الشريف عن الحكروب وسطوة المكان فأشار إلى أن المكان فى هذه

الرواية هو بمثابة البؤرة الرئيسية من خلالها تنطلق الأحداث وتتحرك الشخصيات متفاعلة مع بعضها البعض ومتأثرة بهذا المكان (الحكروب) الذى يعتبر سيفا مسلطاً على الجميع ومحاصرا لقاطنيه . فالجبل يمتلئ بالأزقة الرفيعة الطويلة التى تنفصل وتتشابك فجأة، عندما يثور يرمى على قاطنيه السيول الجارفة وتخرج من بين شقوقه العقارب القاتلة ويفتح بوابات القيظ والعرق فى الصيف ،والبرد والرطوبة الموجعة في الشتاء ، ولكن فى لحظات الصفاء(نغطيه صخب الحياة ونخرجه من جموده الأزلى ، وهو يمنحنا حضنه الصخرى الواسع ليحمينا من مؤامرت الغيب) ص٢٨ والجبل هو أيضا امرأة كبيرة أسطورية ،خلقها الله لرجل كبير وحكت الجدة إنه لمامات زوجها حزنت المرأة وييست وتسربت دماء كثيرة من عروقها وتحولت إلى جبل كبير بغير روح.

ويمكن القول أن رسوخ المكان وجبروته تسرب للراوى وجعله يقوم بعملية تجسيم مكانى ، ووضعه موضع الأسطورة أو اللغز الكبير غير المجدى فضه أو حتى التحرر من قيوده فهو« دنيا صغيرة) نعيشها ونتحايل عليها ومع ذلك لا طائل من المقاومة أو محاولة الهروب .فالهروب من المكان أفضى بصديقه (صلاح محمد إسماعيل) إلى الموت ، التمرد عليه أصاب البعض بالأمراض، ألا يوجد من يقوم بعملية توازن واتساق لجعل الحياة أكثر احتمالا؟ أنه «النيل» سيدنا وسيد المكان ص١٦٦ ،هو من يجعل الأماكن ترضى وتليق كى يعتاد البشر عليها ويعتاد عليهم ويحدث الاتفاق .وهذه رؤية الكاتب وقدرته على جعل الحكروب /النيل أو الجدب/ النماء ثنائية رغم تناقضها الظاهرى لكنها فى وحدة داخل هذا العمل الساخن وتظل خصوصية المكان وثنائياته من الركائز المهمة لرؤية الكاتب لعمله الفنى.. محاولا القيام بعملية اتزان درامى وحياتى لهذا النص.

من الشخصيات النسائية التى احتفظت بصلابتها الداخلية وقدرتها على مواجهة الأحداث وإدارة دفة البيت بأمانة ، وفى ظل غياب الابن ومرض الأب واحتياج الفتيات لأم بجوارهن . إنها (الأم) صاحبة القسوة التى لا تطاق عندما تغضب والقادرة على الغفران والتسامح .هى وحدها من يستطيع إصلاح ما أصاب علاقة الابن بالأب من صدوع وشروخ.

أوراق الألم وانعتاق الروح

وذكر د. رمضان بسطاويسى أن رواية الحكروب تسعى إلى تقديم عالم إنسان ،من خلال علاقاته المتباينة بذاته وبالآخر وهذا العالم يتسع ليصبح مثل« جبل الحكروب» فى أسوان ، ليحتضن من حوله ، وتصبح «أوراق اعتماد شخص» للموت هى فضاء قصصى لتقديم الصور والنماذج الإنسانية التى يعيش معها ويحيا بها ،ونقطة التماس التى يلتقى عندها «جمال الراوى» الشخصية الرئيسية للرواية وباقى شخوصها هى نقطة« الألم» بكل صوره ، الألم البدنى ،والألم النفسى ، والألم هنا هو فلسفة خاصة، لأنه يصبح جزءا من نسيج الوجود، وتصبح رحلة الحياة اليومية هى مكابدة لهذا الألم ومحاولة لتقليل آثاره . الألم هنا تساؤل وفرط وعى بمعنى الحياة

واشكالياتها ، وليس مجرد تأوهات يطلقها المرء لينبعث بها حزنه الخاص، الألم هنا لوحة متعددة الألوان والدرجات وتمتلئ برائحة الحياة وأصواتها ، أنه تعبير عن رحلة الصلب اليومى،ومن يفك مساميرنا من على الخشب، وينزلنا من على الصليب . إن الراوى يجعل من ألمه الخاص نقطة الالتقاء بكل الشخوص التى شكلت تجربته الحياتية فالرواية تبدأ بضمير المخاطب للأب الذى تصهره غيبوبة «مرض السكر» وتتواصل فى خطاب الألم وكتابته ، فهو يخاطب فى« صلاح» ألمه واكتئابه الذى يضفى جلالا خاصا ، ويخاطب فى الخال وصفى ألمه الناتج عن مرض السرطان الذى بدأ باللسان ، وبالأعضاء الصغيرة التى يتم بترها ، ويخاطب فى هالة «ألم المرض الجلدى التينيا» ومنصور عجزه الخاص وهكذا يجعل الراوى من رحلة الالم الكتف والذراعين لابراز عدم قدرته على التكيف مع الطقس اليومى الذى يعيشه فى مصنع الثلج فى مناخ شديد البرودة ، وهذه إشارة إلى عدم قدرته على التفتح الروحى والوجدانى على العالم ، وكأن الفعل اليومى محاولة لعبور الألم من خلال بوابات الألم الضعيفة لدى الآخرين ، من خلال الأب الذى يرى دموع ألمه الخاص ،وهو يحرص عليه من لسع عقارب الجبل حين يقوم فى الليل لدخول دورة المياه ومن خلال التواصل الإنسانى مع هالة ، ومحاولة التواصل مع لوحات صلاح، وحالات الآخرين ، وهروبه من ألمه الذى يقعده عن العمل للتواصل الحسى مع نادية.

يبدو أن الرواية تقوم على فلسفة خاصة بالألم ،وهى التسليم بأن الألم جزء أساسى من نسيج الوجود،والحياة ، وأن مجابهته ، هى خير وسيلة تقهره ، وتجاوزه .والألم هنا تعبير عن حالات وطقوس شتى يعيشها الإنسان فى حياته اليومية ، هى تعبير عن صورة من الاغتراب ، حين يغترب المرء عن نفسه وعن روحه وهى تعبير عن التشيؤ ، أن يشعر المرء أنه جزء أو شئ ضمن عوالم الحكروب الذى يهيمن على المكان ، ويحتضن البيوت التى أقيمت حوله.

إن الرواية رحلة فى جماليات المكان، حيث تصبح حالة مرتبطة بالألم ومحاولات التحقق المختلفة ، فالحكروب يعطى احساسا ما يهيمن على الرواية ، وهذا الاحساس يتفرع إلى علاقات تفصيلية ، مثل علاقة الراوى بشجرة الكافور التى بذرت بذرتها يوم مولده ، وصارت تماثله فى العمر ، والأب يجلس وحيدا يتحدث إليها، هذه العلاقة بين الإنسان والشجرة ، هى محاولة لتأنيس الوجود اضفاء للطابع الإنسانى عليه، فصيبح الحكروب أشبه بالأسطورة ، مثل السماء ، والأب الجانى ، والجلال المهيب ، هنا يصور الكاتب الجبل بوصفه انعكاسا متعدد الدرجات لشخصية قاطنى هذا الجبل ، والجبل هنا يعكس شيئا أبعد من مجرد كونه مكانا . إنه يعكس حالة وتجل يصعب الامساك به ، وحاولت الرواية الامساك بهذه الحالات ، ونجحت فى ذلك من خلال التزاوج البصرى والوجدانى ، فالبصرى واضح فى هذه الصور التى يقدمها لنا للأوراق التى يحملها ،وهى ثلاث عشرة صورة تتوزع على مدار الرواية التى تتكون من تسعة فصول ، وهى نموذج

لرواية بصرية وادخال قصاصات الورق داخل متن الرواية مألوف ، وقد سبق لصنع الله ابراهيم تقديم هذا فى نماذج من الأوراق الشخصية فى وسط نص لا يقدم معالجة تقليدية هو ذات» وإنما فيها هذا الحضور الوجدانى لكل شخوص الرواية.

والحكروب كرواية مرتبطة بأزمنة ثلاثة، الزمن الواقعى حيث تشير الرواية من خلال الأوراق المبعثرة على امتدادها . أن الزمن الواقعى يمتد إلى أكثر من ستة أشهر من منتصف عام ١٩٨٩ إلى بدايات ١٩٩٠ ، بينما يشير زمن الكتابة إلى عام ١٩٩٤ كما هو مدون فى نهاية الرواية ، والزمان الجمالى: داخل النص ،وهو زمان حر يعتمد على موجات التقاء الزمان الداخلى الذى يتمثل فى الصقيع الداخلى حين يصطك مع صقيع المصنع ، فتنفجر المقاومة وتتشيأ احتمالات الراوى.

يشتد حضور الموت بوصفه أفق الزمن، حين تنتهى ممكناته ، وظلال الموت يشتد حضورها زوال الرواية ، فى الألم والمرض ، ثم يتجلى فى الفقد ، وقد عبر هذا فى صورة قصصية فى الرواية وذلك حين تراود الفكرة زوجة خاله:(فعندما تضربها فكرة الفقد على غفلة كانت تفك جدائل شعرها وتقفل دورة المياه على نفسها ، وتفتح صدرها المكدس فى داخله الشجن، وتروح فى نوبة بكاء حارقة ، ثم تفتح الباب وتندفع إلى غرفة النوم، وتلقى بشعرها فوقه ، وتتشبث به وتدور بفمها على كل موضع فى جسده ، وتعضه أحيانا، وكأنها تريد الاحتفاظ بنكهة روحه قبل أن يخطفها المجهول القادم بخطوات ثابتة ، وكأنها تود لو وضعته كرائحة خالصة فى الذاكرة. ص٧٤.

والجسد يحتل فى الرواية مكانة مهمة، ليس بوصفه مكانا للتعبير عن الألم ، فارتعاش جسد هالة وتشظى أعضاء صلاح وجسده بعد عودته من السفر ، وألم الكتف لدى جمال ، والأعضاء التى يتم بترها من الخال ، كل هذا يجعل من الجسد موطن الألم، مثلما الجبل هو موطن البشر.

هذه رواية تفتح افاقا جديدة ، وتقدم تجربة للقص المفتوح الذى يمكن أن يمتد بلا نهاية ، لأنها تتفرع وتتمو مثل إيقاعات الليل والنهار ،وهى انفتاح على صور الموت والعزلة والألم ،والمرض ، وهى تتميز بالتعبير عن جماليات المكان فى جزء من مصر ، وقد توسل الكاتب بلغة فيها قدر كبير من الحميمية والالتصاق بالألم . بل إن الكتابة هنا لا تسعى لتقديم رواية بالمعنى التقليدى ، لكنها تسعى للتحرر من أسر قيود العمى والفقر والألم من خلال الكتابة.

تشبه النص المسرحى

وأوجز د. مصطفى الضبع قراءته للرواية فى عدد من النقاط قرأت رواية(الحكروب) بنطقها الصعيدى الصحيح ، وكنت مشدوداً لها لسببين: أولاهما أن هذه رواية اكتشف من خلالها كاتبا جديدا والثانى : انه مرتبط بالمكان ، فالحكروب منطقة على تخوم المدينة ، يحمل الكثير من سمات

القرية والمدينة معاً ،وما ينطوى عليه ذلك من تقديم نص مغاير سواء بخصوص أسوان ، وهناك سابقون كتبوا عن المنطقة كعبد الوهاب الأسوانى ومحمد خليل قاسم ، فكان على أن أدع هذه الخلفية وأنا أقرأ هذه الرواية التى تتميز بتقديم الأنثى التى كانت من قبل تمثل خطيئة ما ومن خارج المكان ، لكن هذه الرواية تؤكد أن الخطيئة نابتة من الأرض وأن معظم النساء هنا خاطئات دون وازع أو مبرر ..الأجمل مشاهد الجنس فى الرواية قدمت على نحو غير مستفز على الاطلاق فى لغة غير صادمة.. ربما ينطوى الأمر على حل ضمنى بأن القضية ليست هى قضية الجنس، وجوده أو عدمه ، بل كيف تقدم ذلك وتوظفه بشكل فنى فى الكتابة ،فالمشاهد المكتوبة لا تصدم القارئ وتشعره بأن هؤلاء فعلوا ذلك دون أن يشعروا المتلقى انهم أمام عمل آثم .لماذا؟ لأن الرواية تريد أن تقول أن هذه الأشياء التى كنا نعدها خطايا.

هى عادة من عادات البشر . وليس معنى ذلك أنه يعلى منها بوصفها قينة ، لكنه يرفضها كما يرفض أشياء كثيرة بالنص عبر ما يقدمه من شخصيات ومن مقولات تسردها شخصيات فيما يشبه تقديم فلسفة ما، هذه المقولات لاتقدم بشكل تقليدى بل بصورة ايحائية تحمل البعد النفسى والاجتماعى والجسمانى دون تصريح بذلك، مما يجعل هذه الشخصيات فى حالة تماه مع الراوى فهى ليست بعيدة عنه.

يأتى ذلك فى عبارات تحمل رؤية عميقة ، لا يمكن تصورها بأنها صادرة من شخص بسيط ومتعطل ، لكن هذا الشخص كان شأنه كالفلاسفة حين يتأملون ويرون أن من يعتلى هو بالضبط من لا يستحق وهو الأمر الحق الذى سيتضح بعد سنين.

تقدم الرواية مجموعة من التناقضات مثل الجبل مقابل الماء وتكرار كلمة الماء توحى بحالة من الفعل التطهيرى بالماء ، وثنائيات مثل مرض/ صحة ، مرتفع /منخفض ، صلابة / ليونة ،رجل /امرأة ،حرارة / برودة.

وتطل الإبداعات الصعيدية يظهر القطار والنيل ، ليقدما مفتاحين لقراءة نصوص كتاب الصعيد ..وكتابة هذه الرواية هى نوع من الاعتراف عبر مخطوطة ليست للراوى وحده ، بل ضمت محيطا إنسانياتها متميزاً، يلتقط فيها الكاتب لحظات ساخنة من الشخصيات فى بولفونية / تعدد أصوات / يحرك بها شخصياته بنجاح.

والنص الروائى هنا يشبه نصا مسرحيا ،تحديدا من خلال نسخه المخرج المسرحى الذى يضع سيناريو لتحريك الشخصيات ، وإنتاج الدلالة عبرهم .وخاصة خلال مشهد الرجل الذى يموت ، الذى يفصح عما آل إليه مجتمع الصعيد من إهمال ..كما أن اللوحات الوثائقية من تذاكر كشف طبى وغيره تقوم بأدوار متعددة على مستوى النص، مكنت الراوى من إحكام الحكاية لربط الفواصل السردية عبر قطع المشهد البصرى عند نقطة ما.

لعبة الكراسى الموسيقية

على عوض الله كرار

ببطء غير ملحوظ ، مثابر ودءوب ، اصطنعت غرائز الشعوب وفطرتها ، لطبقات ما تحت الطبقة الحاكمة ، مايماثل ماتفعله معها ، وبها ، وفيها ، تلك الطبقة العلوية : اصطنعت الألعاب ، ربما كى تتفهم ألاعيب تلك الطبقة – ومن هذه الألعاب ، لعبة الكراسى الموسيقية .. ومفرداتها كالتالى:

* عدد من الكراسى يماثلها عدد من اللاعبين + واحد

* شخصان : أولهما يعزف على الأكورديون – مثلاً – أو البيانو .. وثانيهما يقوم بقيادة اللعبة عبر مراحل ثلاثة هى : القيام بدور الشارح (شرح ميكانيكيتها ، لاجدليتها) وهو دور افتتاحى عابر .. ثم ينهض بأعباء الدور الرئيسى الآخذ معظم الوقت فى المتابعة والملاحظة .. وأخيراً مراسم منح الجائزة.

طبعاً معظمنا تقابل مع اسم هذه اللعبة فى ثنايا العديد من المقالات والندوات والكلام العابر ، وهى تستخدم كتشبيه تمثيلى لعلاقة سلطة ما (أيا كانت) مع رعية ما.. واللعبة تدور هكذا :

ترص الكراسى حول دائرة وهمية ، والأطفال (ودائما هى لعبة ترتبط بالطفولة .. الطفولة الحقيقية ، لا المجازية) والأطفال هؤلاء ينتظرون بدء العزف ، ليهرولوا خلف بعضهم البعض ، ولحظة توقف الأكورديون يسرع كل منهم بالجلوس على كرسى ، ويظل طفل واحد هو الواقف بذهول مؤقت لما حدث ، فالكراسى كلها كانت بجواره تدور من حوله ، كانت بحوزته، ومع ذلك التقى نفسه هو أول من يخرج من السباق .. وفى مقابل خروجه يخرج القائد كرسياً واحداً عن سياق اللعبة .. ومن المفارقات التى قد تحدث ، أن هذا الطفل الذى لم يستحوذ على كرسى داخل السياق الأصغر (= اللعبة) ، نراه يجلس على هذا الكرسى الخارج إلى السياق الأكبر الضامم متفرجين من الزملاء المهللين لخروج طفل ثان ثم ثالث وهكذا ، فى مقابل كل منهم يخرج كرسى ، وإلى أن يفوز الطفل الأخير.

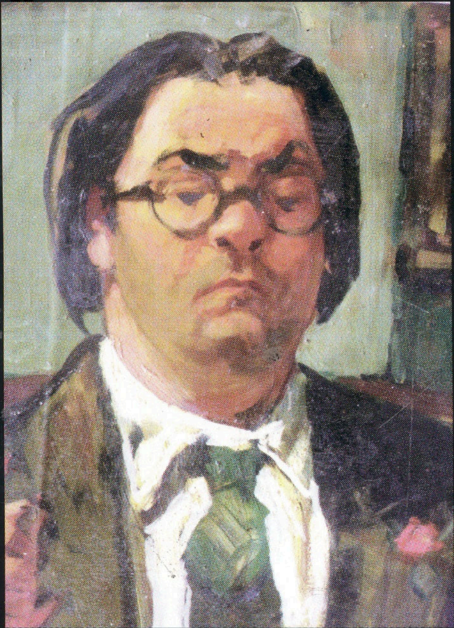
(فى حياتنا : الطفل الأخير هو الذى يفوز غالبا!)

لو تعاملنا مع هذين الطفلين سنرى أن الأول ، إما أنه كان مهموماً بشئ مايخرجه عن الانتباه السمعى ، وحين يتغير نسق الهرولة إلى إنحناءات جانبية متخابطة ومتسارعة ، أوتوماتيكيا يفعل مثلهم ، ولكن بعد فوات الأوان (يلاحظ هنا أن التغيير المتزامن مع التخابط هو الذى أفاقه من عالمه الداخلى الخاص ، إلى عالمه الخارجى العام).. أو أنه فنان بالسليقة ، سحرته الأنغام ، فماشها بروحه التى من فرط عشقها ، لما يماثلها (من الأشياء غير المرئية ، وغير المستطاع إمساكها) لاتنتبه إلى لحظة وقوف الموسيقى .. وسواء كان مهموماً ، أو كان فنانا ، فالجذر واحد : هو انسان ذو حس على درجة ما من الشفافية ، وخاصة ونحن فى مجتمعات يتحول أفرادها يوما بعد يوم إلى مايشبه الآلات الميكانيكية العصرية ، إما أن تؤتمر من خارج بعيد عنها (= فكرة الريموت كنترول) ، أو من داخل لا مكان محدد له فى جسمها (= الغرائز).

والطفل الأخير الفائز عادة مايكون من هذا النوع ، هو نموذج للرديئين من البراجماتيين: أذنه مع البدء ، ومع الانتهاء ، مافى الوسط من فرح وسرور وموسيقى ، لايعنيه ، تركيزه كله على الخدعة السريعة التى سينفذها حال توقف الموسيقى.

* * *

(عوام الناس هم الأجرأ فى خلع المعانى عن ألفاظها ، وإحلال معنى آخر بدلاً منها ، فحين لاحظت أحاسيسهم التماثل الحادث بين المقطع الثانى من لفظة (ألاعيب) ، ولفظة (عيب) ، أسقطوا معنى الأولى ، وسلطنوا معنى الثانية عليها ، مع الإبقاء على حالة الجمع الرافع لدرجة السوء ، والإبقاء أيضا على بعض المعانى الصغيرة التى كان يتضمنها المعنى العام ، مثل : المراوغة والدهاء والرغبة فى أن يشارك الآخرون كعنصر أساسى فى اللعبة ، ولكن كحلية وكشرط من شروط دورانها).



الأمل للطباعة والنشر رقم الإيداع ٧٥١٢ / ٩٢ «الثمن: جنيهان»